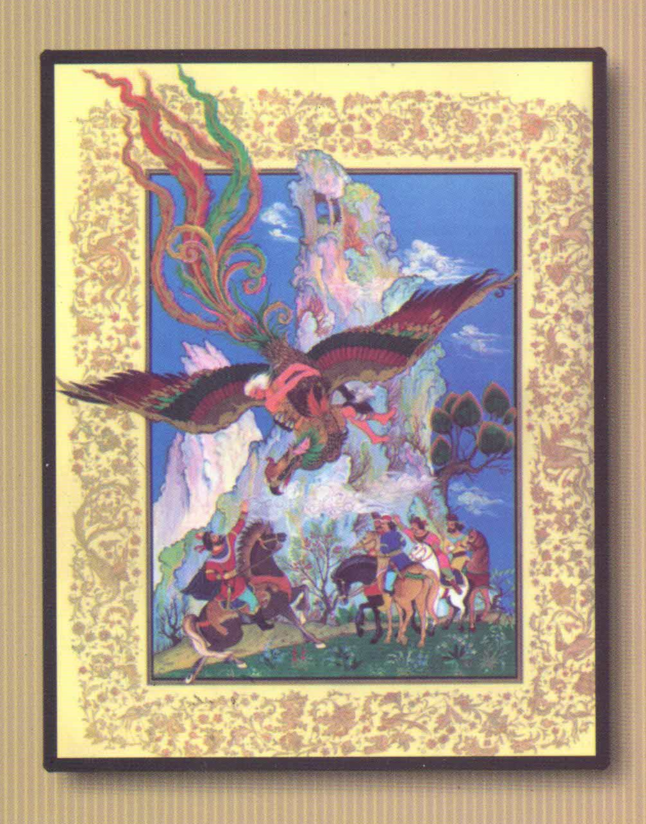
البنية الأسطورية

في سيرة الظاهر بيبرس



الدكتور

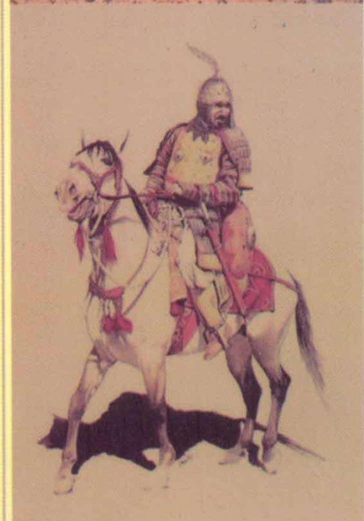
إبراهيم عبد العليم حنفى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

يحاول هذا الكتاب دراسة البنية الأسطورية لسيرة الظاهر بيبرس نظراً إلى أن دراسة السير بعامة لا تجد حظاً كبيراً من اهتمام الدارسين. وتأتي أهمية دراستها بما لها من مكانة خاصة فى الأدب، فتعد ديوان الأدب بما تحمله فى طياتها من لغة، وشعر، ونثر، وبلاغة . . . إلخ، وفنون شتى.

كما أنه يمثل نسقا عاما فى المعتقد الشعبى زاخراً بالعادات والتقاليد، كما يرصد واقع الجماعة وفكرها تجاه قضية ما، ألا وهى قضية البطل الذى يمثل أمة بذاتها يحمل همومها ويزود عنها فى المخاطر، فيعد بطلا ارتدى ثوباً أسطوريا. فالظاهر بيبرس رغم أنه بطل تاريخى حقيقى له وجوده فى الأماكن، والأحداث التى شملت حوض البحر الأبيض المتوسط وجزره، وامتدت غربا إلى طنجة، وبلاد البرتغال، وشرقا إلى بلاد العجم حتى الهند والصين جنوبا وإلى بلاد العرب، والحبشة والسودان. فإن الخيال الشعبى قد طبع هذه الأماكن بالأسطورة، فأصبحت داخل السيرة لا وجود لها. إنما هى بقاع مسحورة تتشكل وفقا لخيال الراوى فتشيع فيها الظلمة.








ISBN# 9789774485619


الهيئة المصرية العامة للكتاب

البنية الأسطورية

فى سيرة الظاهر بيبرس

الدكتور:
إبراهيم عبد العليم حنفى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٣

حنفي، إبراهيم عبد العليم.
البنية الأسطورية في سيرة الظاهر بيبرس/
إبراهيم عبد العليم حنفي. ـ القاهرة : الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.
٢١٢ص: ٢٤ سم.
تدمك ٩ ٥٦١ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الأساطير العربية.
٢ ـ الظاهر بيبرس، بيبرس العلائي البندقداري
الصالحي، ١٢٢٨ ـ ١٢٧٧.
٣ ـ مصر ـ تاريخ ـ عصر المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م).
رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٠٦٧/ ٢٠١٣
I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 561 - 9

ديوى ٢٩٨,٢٢

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد مجاهد

الكتاب: البنية الأسطورية فى سيرة الظاهر بيبرس
المؤلف: دكتور إبراهيم عبد العليم حنفى
الطبعة الأولى: ٢٠١٣م
طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
الإخراج الفنى والغلاف: أميمة على أحمد

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
email:info@gebo.gov.eg

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

مقدمة

يتناول هذا الكتاب دراسة سيرة الظاهر بيبرس من خلال البناء الأسطورى الذى سيطر على تكوينها مثل النبوءة، والحلم، والأمكنة الأسطورية، والعوالم الأسطورية التى أثرت فى بناء البطل حتى أصبح بطلا أسطوريا، وكذلك الأنساق الوظيفية التى ساهمت فى بناء الأحداث، والتكوين بعامة، واللغة، ومفرداتها وأشكالها، والأبطال المساعدين، وتعدد أشكالهم، وقدراتهم الخارقة فى مساندة البطل .

كما اهتم الكتاب بدراسة الراوى، وقدراته الفنية داخل السيرة، وما كان لهذا الكتاب أن يخرج بهذه الصورة إلا بمساندة شديدة الحميمية، وعشق لهذا الأدب من خلال الأستاذة الدكتورة / **ثناء أنس الوجود ربيع** التى دأبت بشدة على إخراجه، وتشجيع المؤلف على إنجازه، فقد لاقى المؤلف منها، الأستاذة التى تشد على طلابها لإخراج ما لديهم من طاقات، وقدرات، والأم التى تحتضن أبناءها، وترعاهم، وتعضد من قواهم ليقتربوا من الكمال، والاكتمال، وهذا ليس غريباً عليها، فقد لاحظ الباحث من خلال دأبها للبحث العلمي أنها تولي اهتماماً كبيراً لكل باحث، حتى يظن أنه الوحيد لديها لما تعطيه من عصارة فكرها، وخبرة سنين عمرها فى بساطة، ويسر، فلها كل التقدير، والاحترام بقدر ما أعطت، وأثنت، وساندت .. وقد يعجز المؤلف عن الشكر، لكنه لا يكف عن الدعاء لهذا الهرم الشامخ أن يجازيه الله عنا كل خير.

كما لا أملك وصفاً ولا شكرًا يخص أباً جليلا وعظيماً، فكلمة أب احتوت كل المعانى ألا وهو أستاذنا الدكتور/ **أحمد شمس الدين الحجاجى** الذى إذا ذكر

اسمه ذكرت محاسنه، وفضائله، وقد ارتبط اسم الكتاب باسمه، فمنذ دخول الباحث كلية الآداب جامعة القاهرة، وتفتحت عيناه على علم هذا العالم، وسحره بأسلوبه، وطريقته حتى تتلمذ على يديه فى مرحلة الماجستير، والدكتوراه، فكان للمؤلف قبلة يحج إليها أينما ولى وجهه شطره، حتى عرف المؤلف بأنه مريده، فكان شرفاً يرتديه، وفخراً، وعظمة يتمسك بها، فهو نبراسٌ للعلم، والمسلك، فما زال باحثًا دؤوبًا على العلم فى عالم السيرة يجمع، ويسجل، ويضيف الجديد من نصوص السيرة، وأميناً على رصد المعلومة، وقد لازمه المؤلف كثيرًا فى جمعه للسيرة الهلالية، وتعلم منه الكثير فى هذا المجال الذى أحبه منه منذ أن شب عن الطوق، وعرف ما هو الأدب الشعبى، فهو الذى وضع الباحث على بداية الطريق، فأي كلام يوفيه؟ وأي شعور يحتويه؟ وأي تعبير يملأ كيان هذا البحر؟ فلا توجد كلمات لامتداده.

فهو الأب، والعالم الجليل فله كل الحب، والتقدير، والاحترام وسدد الله خطاه، وجعله منبراً دائماً، وشمساً نهتدي بنورها.

المدخل

السيرة بين الأسطورة والشفاهية والكتابية

يحاول هذا الكتاب دراسة البنية الأسطورية لسيرة الظاهر بيبرس نظراً إلى أن دراسة السير بعامة لا تجد حظاً كبيراً من اهتمام الدارسين. وتأتي أهمية دراستها بما لها من مكانة خاصة فى الأدب، فتعد ديوان الأدب بما تحمله فى طياتها من لغة، وشعر، ونثر، وبلاغة ... إلخ، وفنون شتى.

كما أنه يمثل نسقا عاما فى المعتقد الشعبى زاخراً بالعادات والتقاليد، كما يرصد واقع الجماعة وفكرها تجاه قضية ما، ألا وهى قضية البطل الذى يمثل أمة بذاتها يحمل همومها ويزود عنها فى المخاطر، فيعد بطلا ارتدى ثوباً أسطوريا. فالظاهر بيبرس رغم أنه بطل تاريخى حقيقى له وجوده فى الأماكن، والأحداث التى شملت حوض البحر الأبيض المتوسط وجزره، وامتدت غربا إلى طنجة، وبلاد البرتغال، وشرقا إلى بلاد العجم حتى الهند والصين جنوبا وإلى بلاد العرب، والحبشة والسودان. فإن الخيال الشعبى قد طبع هذه الأماكن بالأسطورة، فأصبحت داخل السيرة لا وجود لها. إنما هى بقاع مسحورة تتشكل وفقا لخيال الراوى فتشيع فيها الظلمة، والطلاسم، والأرصاد، والوديان، والمدن، والجبال، التى شكلت أنساقا، وأدواراً حيوية ليست جامدة داخل السيرة. وهناك أيضا أحداث للبطل الكونى بيبرس تمثلت أعماله بأربعة أجيال، ولعب الخيال فى هذه الأحداث دوراً كبيراً مثل دخوله مع أصحابه مدينة عاشوا فيها وتزوجوا، وأنجبوا خلال ثلاث سنوات، ولما رجعوا وجدوا أنهم لم يلبثوا إلا قليلا (ربع ساعة).

ومن ثم فقد حلق البطل وفق خيال الراوى والجماعة فى زمان ومكان مقدسين، ونبوءة تحمله إلى عالم البطولة، ودعوة تستجاب له، وقوة كونية تسانده فى مهامه. متمثلة فى بطل روحى يرى نبوءة له، وأولياء يأتونه سعيا كلما ولى وجهه شطراً ما، فيغدو أسطوريا ومعتقدا لدى الجماعة التى يمثلها

مادام متصلا ومستمرا فى أحداثها، كذلك الأسطورة هى الدين والحقيقة والمعتقد لدى جماعة آمنت بها ونطقت كلامها، وعبرت رسما ورقصا وأداء مختلفا فى شكل شعائر وطقوس، فالأساطير عند الإنسان البدائى فن وفلسفة، وعلم، ودين، إنها جماع حكمته ودستور حياته مصوغين فى قالب قصصى عن الخلق والحياة والموت والبعث"[١] فكانت الكلمة أحد مفرداتها بل هى كل مفرداتها التى ظهرت من تلك الشعائر فولدت فنونا. فوجود الشعيرة لحكاية أو لأسطورة يساوى فن أغنية، أو تعويذة، أو حواراً يفسره عدة كلمات، فالكلمة نفسها مضمون الأسطورة وهذا ما ارتبط بالعقيدة الإنسانية)[٢].

فالكلمة هى صانعة النص ومكونة إطاره الفنى، ولغة إشارته، ورموزه وبها يحيا الإنسان مشكلا نسقه الوظيفى فى الحياة. فدوره لا يتعدى أن يثبت وجوده فى الحياة بعامة، ويدافع عن معتقده، وما يؤمن به فيوظف مخزون كلماته تجاه ما يعتبره ديناً، وربما ينتج عن هذا لغة مكتوبة نثرا، أو شعرا، أو رسما أو حركة بعامة. (فالإنسان الأول رأى فى الكلمة أول قوى روحية يستطيع بها أن يدفع أذى الطبيعة الحية الصامتة، وأن يعيش معها فى انسجام. وحين يدرك بتجربته أن للمظاهر الطبيعية قوى كامنة لها القدرة على ضره. كانت الكلمة دائما هى القادرة على التحكم فى الروح الكامنة فى الأشياء فتمنعها من العمل ضده، ولم تتغير قداسة الكلمة ـ فالكلمة هى القوة الكونية الأولى التى عرفها الإنسان)[٣]. ومن ثم كانت الأسطورة لغة يعبر بها بفكره وخياله (فقد تكون قصة سردية مرتبطة بالشعيرة)[٤] حملت (بما لا يصدق أو بما هو محض خيال)[٥] فى شكل أحاديث ونصوص مكتوبة وشفاهية. ففى المعاجم اللغوية وردت الأسطورة مرتبطة بالكلمة والكتابة، فهى من الفعل الثلاثى يسطر إذا

---

(١) شكرى عياد: البطل فى الأدب والأساطير. ص ٦٥.

(٢) أحمد شمس الدين الحجاجى: الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر، القاهرة، ط ـ دار المعارف، سنة ١٩٨٥ ـ ص ١٠.

(٣) أحمد شمس الدين الحجاجى: الأسطورة والشعر العربى المكونات الأولى ـ مجلة فصول ـ القاهرة ـ ص ٤٣.

(٤) Lord Raglan, The Hero, ١٩٣٦ London: Methuen P. ١٢١.

(٥) Spence., L., The Outline of Methodology, ٤٤ London: Watts P.١.

كتب)[٦]. أو ربما تفيد الأحاديث الباطلة (سطر علينا فلان تسطيرا إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل)[٧]. ومن هنا جاء اشتقاق الأسطورة إما بمعنى الكتابة، وإما بمعنى التسطير بمعنى الاختراع والتزيين والتنميق) أو معانيها المستنبطة، (فهى لا تخرج عن كونها أحاديث عجيبة مؤلفة لا نظام لها وأقاويل مزخرفة منمقة أو حكايات مقصوصة)[٨].

الأسطورة والخرافة:

ولكن لابد أن نفرق بين الأسطورة والخرافة بما أننا إزاء دراسة السيرة (سيرة) فإذا كانت (الأسطورة حقيقة ودين)[٩] فإنها تروى وتصدق كما لو كانت تاريخا، ورغم أن الرواية هي فى العادة تأييد مطالب جماعة ينتمى إليها، لكن الخرافة لا تحتوى على عنصر من المعجزات ولا تعتبر مقدسة)[١٠]. (فهى مجرد شائعة ثم زيد فيها وأصبحت جزءا من تراث الشعب المنقول وذلك قبل أن تتخذ شكلا فنيا لدى القصاص الشعبى)[١١]. (فهى تسبق كل تاريخ مدون فى كونها بقايا معتقدات تصل فى تاريخها إلى أقدم العصور وقد فقد مغزى هذه المعتقدات منذ زمن بعيد، ولكننا ما نزال نحس أثرها، بل إنها تكون بنية الحكاية الخرافية التى تهتم فى الوقت نفسه بالمتعة الفطرية فى تصوير الأمور الخارقة للعادة)[١٢].

---

[٦] العين: سطر: ٧ / ٢١٠.

[٧] مجمل اللغة (سطر) ٧ / ٢٠.

[٨] أحمد إسماعيل النعيمى: الأسطورة فى الشعر العربى قبل الإسلام – القاهرة – ط١ – سينا للنشر – سنة ١٩٩٥ – ص ٢٨.

[٩] أحمد شمس الدين الحجاجى: الأسطورة فى المسرح المصرى المعاصر – ص ١٠.

[١٠] Molinowskib, Myth in Primitive Psychology (London, ١٩٢٦. P. ١٧).

[١١] أحمد كمال زكى: الأساطير – القاهرة – ط١ الهيئة المصرية العامة للكتابة سنة ١٩٨٥ – ص ١٤.

[١٢] فريد رش فون ديرلاين: الحكاية الخرافية، ت نبيلة إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٦.

ومن ثم كان لدراسة الأساطير أهمية بالغة، فنشأت لدراستها مدارس مثل المدرسة التاريخية، والطبيعية، والتعبيرية النفسية.

المدرسة التاريخية:

ترى هذه المدرسة أن الأساطير التى وفدت إلينا ما هى إلا تاريخ البشرية الأول، وقد أضفى عليها خيال الإنسان. وما كان تاريخ الأبطال إلا تاريخا لعصر الأبطال الذى زخر بالقوة والسيطرة حتى أضفى عليه عنصر القداسة(١٣).

أما المدرسة الطبيعية:

فقد اهتمت بتفسير مظاهر الطبيعة، وما تزخر به من برق، ورعد، ومطر، ورياح، وربط الإنسان كل هذه الظواهر بقوة غيبية بعيدة تسيطر عليها وتتحكم فيها وتتصارع فيما بينها، بحيث ينتهى الصراع بخلق حالة من التوازن بين الخير، والشر. متوخيا من ذلك السيطرة على قوى الطبيعة بالطقوس والتعاويذ لتحقيق عملية نفعية)(١٤).

المدرسة التعبيرية:

وتذهب إلى أن الأسطورة إنما نشأت نتيجة قصور أو عيب فى اللغة مما أدى إلى أن تكون للشئ الواحد أسماء متعددة. كما أن الاسم الواحد كثيرا ما يطلق على أشياء مختلفة، وكان من ذلك أن خلط الناس بين الأسماء ومالوا إلى الاعتقاد بأن الآلهة المتعددة ليست إلا تصورات مختلفة لإله واحد)(١٥).

المدرسة النفسية:

اهتمت هذه المدرسة بالتحليل النفسى للأسطورة حيث رأت أن الحلم ما هو إلا ضرب من ضروب الأسطورة، إذ أن هناك ظواهر لا شعورية تخرج

---

(١٣) نبيلة إبراهيم: الأسطورة – ص ١٦.

(١٤) جيمس فريزر: الغصن الذهبى ١٠/ ٤٣.

(١٥) نبيلة إبراهيم: الأسطورة – ص ١٢.

فى صورة رموز تمثل قوى تتحكم فى مسيرة الفرد وسلوكه الاجتماعى فى إشارتها إلى حاجات حيوية تكمن فيما سماه (فرويد) بـ "عقدة أوديب" وفيما جعله "يونج" لقاء ثقافيا نفسيا على صعيد اللاوعى الجمعى)[١٦].

كما تنوعت الأساطير مثل الأسطورة الكونية، والتعليلية، والحضارية، والبطل المؤله، والرمزية، وأيا كانت الأساطير، ومدارسها، وأنواعها فإنها تدور حول المعتقد فهى تعكس نظاما دينيا ظهر فى المعابد وطقوس وشعائر الكهان. حتى (إذا ما ظهر الدين الحقيقى فصل ما بين الخرافة والأسطورة)[١٧] فيظهر شكل يعبر عن هذه الأساطير الموروثة ألا وهو الأدب الذى يعلو عندما تتلاشى هذه المعتقدات الدينية القديمة، فيأخذ منها جانبا من الواقع أو رموزاً ويضفى عليها صفات أسطورية. مما تحمل من معتقدات وتقاليد شتى أو ربما تكون هذه الشخصيات مخلوقة من خيال، فيحاول أن يرسى قواعدها كى تكون واقعا تؤمن به الجماعة وتتخذها مثالا ورموزا، ومن ذلك الأبطال الأسطوريين الذين زخرت بهم النصوص فى الملاحم والسير العربية، فقد صيغت من قبل مؤلفين (لم يفرقوا بين بطل وآخر بل جعلوا من البطل الواحد عدة أبطال باسم واحد. وصاغوا نصوصاً قريبة لمستمعيهم وأبطلوا مقولة إن السيرة تاريخ، لأن البطل إذا لم يثبت على حال من الروايات التى تتحدث عنه فكيف يكون تاريخا، قد يكون سيف بن ذى يزن فى التاريخ، وقد لا يكون، وقد يكون هناك المهلهل، وقد لا يكون، وقد يكون حمزة وقد لا يكون، وقد يكون هناك أبو زيد الهلالى، وقد لا يكون، وبالتأكيد هناك بيبرس ـ ولكن من المؤكد أنه لا علاقة بين البطل التاريخى وبطل السيرة ـ البطل التاريخى يختص بالتاريخ يحقق وجوده من عدمه. أما البطل الأسطورى فيختص بالفن وليس من حق التاريخ أن يحقق فى وجوده من عدمه، لأنه موجود صنعه الفن، وفن السيرة صنع أبطالا أصبح واقعهم الحقيقى فى خيال صناعهم من رواة ومتلقين)[١٨]. تناقلها بعضهم عن بعض شفاهة وكتابة فتعرضت للزيادة والإضافات، فأبطال السير بعامة عدا

---

[١٦] شكرى عياد: البطل فى الأدب والأساطير ـ ص ٣٨.

[١٧] أحمد كمال زكى: الأساطير ـ ص ١٧.

[١٨] أحمد شمس الدين الحجاجى: مولد البطل فى السيرة الشعبية، دار الهلال، القاهرة، ص٤١.

بيبرس (لا توجد أدلة كافية على وجودهم كأبطال فى الفترات التى نسبوا إليها، أو فى أى وقت آخر، فهم يشغلون حيزا ذهنيا وليس تاريخيا. وإذا كان المؤرخ يرغب فى أن يستخدم هذه الشخصيات التاريخية الأسطورية فإن ذلك يمكن أن يتم عن طريق تصورات غامضة لوقائع غير مؤكدة وقد يوحي ذلك للمؤرخ باصطناع سلسلة من الأحداث الواقعية أو المؤثرات الثقافية رغم أن ذلك يرتبط أكثر بالعقلية الجماعية للناس الذين اخترعوا هذه الشخصيات أو نقلوها من جيل إلى آخر)[١٩]، عبر الشفاهية وما تحمله من تراث للجماعة كالحكايات والأساطير، والخرافات. كما يقول (رجلان) أنه لا يمكن أن يصون التراث الشفهى الحقائق التاريخية اللهم إلا ما قد تحتاجه مجموعة من الأساطير، والخرافات، والحكايات الشفهية وأنه لولا الكتب والتدريس لما كان الاهتمام بالماضى)[٢٠]. فالشفاهية كانت النواة الأولى لسرد الأحداث، وتذكرها، وقد (يميل التفكير المطول الشفاهى حتى عندما لا يكون فى شكل شعرى إلى أن يكون إيقاعا بشكل ملحوظ. لأن الإيقاع حتى من الناحية الفسيولوجية يساعد على التذكر)[٢١]. ومن ثم فإن حقل التاريخ الشفهى يعتبر من حيث التركيز البحثى فى مقدمة دراسة التاريخ، ومن حيث تحليل النص. فإن معرفة القراءة والكتابة أو عدمها من المصادر المدونة، والمصادر الشفهية قد وجدت جنبا إلى جنب بدرجات متفاوتة حتى بداية العصور الحديثة تعتبر عملية اكتشاف الماضى عن طريق المنهجية الشفهية من الأهمية الكبرى)[٢٢]، ولكن الجماعة الشعبية هى التى تؤطر لتاريخها فتضيف ما يناسبها من أحداث، وتحذف ما يخالفها عبر سير الملوك، والحكام، فارتبط التاريخ الشفهى بالسلطة والحكم. ومن ثم يستطيع الكاتب أو الراوى أن يكون له دور مهم فى سرد الأحداث إلا أنه يوافق فى نهاية الأمر ما تتطلبه الجماعة فهو يروى من خلالها. فتتقبل وترفض، وتحذف، وتضيف صانعة بذلك تاريخا لها، فظهرت السير الشعبية

---

(١٩) ديفيد هينج: التاريخ الشفهى – ترجمة ميلاد المقرحى، مركز الجهاد، ليبيا ١٩٩١، ص١٦٧.

(٢٠) Raglan, Lord, The Hero, P. ٢٤.

(٢١) والترج أونج: الشفاهية والكتابية – ص ٩٤.

(٢٢) ديفيد هنيج، المرجع نفسه – ص٢٤.

الشفاهية، حتى دونت فى كتب وأوراق، بل كانت أحداثها تسمع على صاحبها وبطلها فيضيف، ويحذف أيضا ورغم أنها امتلأت بالأساطير إلا أنها كانت توافقه. ومن ذلك سيرة الظاهر بيبرس فقد ظهرت سيرتان الأولى رسمية تاريخية، والثانية شفاهية، وما لبثت أن دونت، ولكن هاتين السيرتين تتشابهان إلى حد كبير فى الأسلوب، والعرض مما يدل على أنهما كتبتا فى زمن متقارب بينهما، فالأولى كتبت فى عهد الظاهر بيبرس وكان كاتبها (يُسْمع الظاهر بيبرس أجزاء منها فكان بيبرس يضيف أحداثاً ويحذف ما لا يوافقه ولكن الكاتب استطاع بعد وفاة بيبرس أن يغير ما لم يكن يقدر عليه أثناء حياته)[٢٣].

(وقد يدخل كاتب السيرة وراويها من الشخصيات التى لم يعرفها التاريخ، ويجعل لها من الأدوار ذات الأهمية ما يؤثر فى سير الأحداث، فلا يكتفى بالشخصيات البشرية التى تسير تصرفاتها ضمن الإطار الإنسانى المعقول، وإنما يجعل من تلك الشخصيات مظهرا لقوة ما فوق البشرية بحيث يرسم صورة الإنسان الأعلى الذى لا يتحقق فى التاريخ، والذى تتسم تصرفاته وأعماله باللامعقولية، والمبالغة، والإفراط فى الخيال. وقد يتجاوز المؤلف ذلك إلى رسم شخصيات لا تمت إلى البشرية بصلة كأصحاب الخوارق وملوك الجان. وأصحاب القدرة على الحركة، والتشكيل، ثم الكهان أصحاب السحر، وخوارق الطبيعة)[٢٤] وهذا ما حدث فى صياغة السيرة الثانية للظاهر بيبرس.

أما السيرة الثانية التي يذهب البعض إلى أنها قريبة العهد بالسيرة الأولى بل قد تسبق عليها فى الزمن فيعلق "هانس أرنست" محقق السيرة الأولى الرسمية، إن ركاكة كتابة السيرة التاريخية تماثل الكتابة (الخرافية) مما يدل على أن القاص حاول أن يكتب السيرة بالطريقة المشهورة للسيرة الخرافية فقد جاء بالأمثال العامية فحولها إلى أمثال باللغة العربية الفصحى، وما جاء حول مقتل قطز فقد نفت السيرة الخرافية مقتل قطز على يد بيبرس، أما السيرة التاريخية فتذكر أن القتل على يد بيبرس. ويذكر " شافع بن على" بأن الضربة الأولى جاءت من سلاح دار قطز ولأنه كان وجلا فلم تكن ضربته هذه قاتلة

(٢٣) محي الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر – ص ٣٣.
(٢٤) فاروق خورشيد: فن كتابة السيرة – ص ٣٦.

فأجهز بيبرس على قطز وأنهى قتله، أما القاضى محيى الدين فقال: إن قتل قطز جاء مرة واحدة لينتهى بيبرس من أى عمل لشريك يشاركه فى الملك، وقد تشابهت السيرة التاريخية، مع السيرة الخرافية فى إغفالها لطفولة بيبرس. كما ظهرت التعميمات المسهبة فى السيرة التاريخية وذكر القصص التى تؤول إلى قصص أخرى لم يفهم محتواها كما زخرت بالأساطير)[٢٥]. كما نلاحظ أيضا أن السيرة التاريخية قد استمدت مفردات الحكايات وديباجتها من السيرة الشعبية ومن ذلك مثال (ولما جلس السلطان صلى على النبى المختار وولى وعزل) كذلك فى السيرة التاريخية (لما استقر السلطان بقلعته وجلس فى ديوان ملكه وولى وعزل وكتب).

ولكن مهما تكن كتابة السيرتين تنتمي إلى حقبة زمنية واحدة، فلا ينبغي أن يبعدنا ذلك عن أن السيرتين كُتبتا فى عهد بطلها، ولكن السؤال الذى يطرح نفسه لماذا كتبت السيرة الشعبية فى عهد صاحبها؟

لا شك أن الجماعة الشعبية قد أضافت وساهمت فى ذلك كثيرا فهى تكتب ما تتمناه، ولم تكن معنية بما هو كائن أو بالتاريخ، فقد كان بيبرس لديهم بطلا عظيما قريبا منهم يشاركهم فى احتفالاتهم، ومناسباتهم واعتنى بالمرضى أيما عناية، وشق الترع، وبنى الجسور، (حيث يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك التى ظلت تقوم بدور القوة الضاربة المدافعة عن الحضارة العربية الإسلامية على مدى أكثر من قرنين ونصف قرن مما جعل خيال الفنان الشعبى المصرى يرى السلطان رمزا حمله المصريون مثل رموزهم الاجتماعية وصبغوه بالقيم والمثل والأخلاقيات التى تمثلهم)[٢٦].

فاهتم بكتابة السيرة (طائفة من المداحين والصوفية)[٢٧] الذين خلقوا مصطلحات مناهضة، مثل السلطان، والخليفة، والوزير، والقطب اعتراضا على مماليك هذا العصر. فكانت لهم دولة قائمة بذاتها. فلا خليفة إلا الخليفة

(٢٥) العينى: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق هانس أرنست، دار إحياء الكتب، القاهرة ١٩٦٢، ص ٥.

(٢٦) قاسم عبده قاسم: من الفولكلور والتاريخ، ص ١٢٢.

(٢٧) عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس – ص ١٧.

الصوفى، ولا سلطان إلا السلطان الصوفى، ولا وزير إلا الوزير الصوفى ولا ولى إلا الولى الصوفى. ومن ثم فقد عنى كاتب السيرة عند تناوله لشخصية بيبرس بأن يعتقه مرتين من قبل الملك الصالح (ولى الله المجذوب)، ولذا ارتفع بيبرس إلى درجة الولاية لديهم. وهى الولاية الصوفية فجعلوه مستجاب الدعوة قامت على خدمته قوى غيبية متمثلة فى الأولياء أينما ولى إلى حرب، بالإضافة إلى عوامل نبوءته التى صاحبت مجيئه للحكم فكانت نبوءته بالرؤية. فقد تلقى نبوءته بنفسه وكذلك دعوته فى البرية بأن يصير ملكا وسلطانا على مصر، والشام، فوافقت زمنا مقدسا. كما تلقت العامة رؤية لبيبرس وتوليته حكم مصر. ومن ثم تضافرت كل القوى الكونية الغيبية فى مساعدة بيبرس، فمثلت أنساقا وظيفية مختلفة. ومن ثم حلقت العامة فى شكل الراوى مثالا لصورة البطل المحلق فى خيالهم فجاء الخيال مملوءاً بالأساطير التى كانت دعامة من دعائم فكر الإنسان فى مرحلة من حياته. وكانت لها القدرة على الحضور الدائم والالتقاء بتجارب الإنسان فى مختلف عصوره.

لذا يحاول المؤلف أن يكشف النقاب عن دراسة الفكر فى مرحلة العصر المملوكى من خلال السيرة التى دارت حول بطل من أبطاله، وذلك اللون الذى كان مهملا من قبل كثير من الباحثين فدراسة السيرة تحتاج جهدا كبيرا جدا فهى بحق ديوان الأدب، ولا يمكن لأى باحث أن يخوض فيه إلا إذا تسلح بأسلحة ثقافية خاصة، حتى إن المثقف أو الأديب لا يكون أديبا إلا إذا مر بالسير وبمعرفتها، لما تملكه من ألوان مختلفة مثل النثر ودروبه، كذلك الشعر وأغراضه المختلفة، كذلك اللغة والرمز ومعظم الأشكال السردية. فلا شك أن دراسة كل هذه الأنواع الأدبية فى لون أدبى واحد يحتاج جهداً لا بأس به وخاصة دراسة سيرة الظاهر بيبرس، فقد تناولها أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس من قبل ولكن من منظور تاريخى حيث عرض جانبا من تاريخ الظاهر بيبرس، والأكراد الأيوبية وأصولهم وعلاقتهم بالملك الصالح أيوب وكيفية وصول الصالح أيوب للحكم، كما حاول تصحيح ما أغفلته السيرة من التاريخ، فقد أهملت ترتيب الملوك الأيوبية الذين حكموا مصر والشام. فقد ذكرت السيرة

أنه لما توفى صلاح الدين حكمها ابنه الكامل، ثم نجم الدين ومن بعده، الملك الصالح وأغفلت السيرة التفرقة بين أبناء صلاح الدين، وإخوته. فلم تذكر شيئا عن النزاع الذى دب بين أبنائه، وأغفلت النزاع الذى قام بين العادل وصلاح الدين من ناحية، وبين أبنائه من ناحية أخرى، حتى ظهر عليهم واحد بعد واحد. فحذا العادل حذو أخيه ... فجعل خلفه عليها الصالح أيوب.

والكتاب من خمسة أجزاء وهى:

الأكراد الأيوبية، والظاهر بيبرس، والفداوية وأصولهم، وأمراء البحر، والخرافة.

كما تناول فن المحدث المحترف الذى قام بتقسيم السيرة إلى عدة مشاهد مستخدماً طرقا فنية فى كل مشهد كالعبارات، والمقولات الحكائية التى تبدأ أو تنتهى بها المشاهد.

كما اهتم الكتاب بتناول بعض الأبطال المساعدين مثل عثمان ابن الحبلى، وجمال الدين شيحة، ومعروف بن حجر، وملامحهم الفنية داخل السيرة وعلاقتهم بالظاهر بيبرس.

واهتم أيضا بالحوادث التى لعبت دوراً مهما فى السيرة، والتى شكلت هدف السيرة، وهى نصرة الإسلام ومكافحة التتار، لذا كان من المهم دراسة وصف البيئة التى تدور فيها الحوادث مثل قصور السلاطين التى تدور فيها المكائد، والدسائس، والبيئة المصرية التى ظهرت باهتة غير واضحة المعالم فى السيرة. كذلك بيئة الفداوية، واتصالهم المباشر بالصليبيين.

ولم يغفل المؤلف الأسلوب الأدبى الذى تناولته السيرة من طمس للمعالم وتحريف للعبارات، وقد أدى ذلك إلى اختلاف الرواة وانتقالها الشفوى من حدث إلى آخر، كما كان السجع فيها هو السمة الغالبة كما ورد بها الخطاب المباشر، والحوار.....إلخ. فقد مر على دروبها سريعا متتبعا المراحل التاريخية للشخصيات. لذا كان لزاما على الباحث أن يتوخى الحذر فى دراسة هذه السيرة التى تناولها أستاذ جليل، ومن ثم استطاع الباحث أن يمر سريعاً على مراحل بيبرس التاريخية، ثم ينخرط بالبحث على بنية السيرة الأسطورية مارا

بالشخصيات باعتبارها عناصر أسطورية وكذلك دراسة اللغة والشعر، والرمز والنبوءة والحكم والزمان والمكان، وفئات من المجتمع كان لها دور بارز فى حياة البطل من العياق العيارين وأولاد إسماعيل. وقد حاول المؤلف أن يقترب من السيرة والتاريخ فى دراسته لبطل السيرة، وأن يدرس البنية الأسطورية للشخصيات وكذلك البنية السردية.

الفصل الأول

البطل

فصل البطل

تتشاكل الشخصيات فى السيرة لتعطى عدة أدوار توافقية أو عدائية تمثل نسقا عاما فى بنية السيرة، فتتحد من حيث الدور الذى تلعبه سواء أكانت توافقية أم عدائية، وتنمو معا لتحدث توازنا فى المعايير والأدوار بعامة، فلا فرق بين مجتمع بيبرس، وشخصياته، ومجتمع جوان وشخصياته إلا من خلال الحيل وفكها ودورها الوظيفى الذى من خلاله نستطيع أن ندرس عناصر أنثروبولوجية تظهر من خلال أدوار، أو محيط الشخصيات التي تنمو من إرهاصات المجتمع. فالشخصيات ما هى إلا أنماط تتحرك لتجسد مجتمعها، وهذا ما يجعل الراوي يتدخل فى بنية أحداثها فيضيف عادات، وتقاليد يعرفها هو فلا فرق أيضا بين شخصيات تناولها التاريخ، وشخصيات أسطورية فى كونها أدوارًا، وظيفية بذاتها فكلاهما له معالجته الخاصة تجاه المواقف ليعطينا فى النهاية اقتناعا بدورها، وهذا الاقتناع يؤدى إلى وجود حالة من التوازن المعياري. فإذا كانت سيرة الظاهر بيبرس قد قامت على الصراع بين المسلمين، والبيزنطيين فقد مثل المسلمين (الظاهر بيبرس) ومثل البيزنطيين (جوان) ومن حيث الأبطال المساعدين، أو المصاحبين، فكان لبيبرس شخصية مساعدة وهى شخصية (جمال الدين شيحة)، كما كان لجوان شخصية مساعدة متمثلة في شخصية (البرتقش)، وإذا ساهم الأولياء فى تخطى حدود الزمن بكراماتهم لمساعدة البطل المسلم، فقد ساهم الكهان فى المجتمع البيزنطي فى تسخير الجان لمساعدة البطل المضاد (جوان)، كما يظهر دور آخر هو البطل المصاحب للعدو، مثل شخصية (أيبك) الذى كان بحكم انتمائه للإسلام مدافعا عنه إلا أنه يكن العداء للظاهر بيبرس، أو البطل فى بداية تكوينه. وكما يظهر البرتقش لجوان الذى

يذكر دائما جوان أن جمال الدين شيحة سوف يقطعه على عربة كلاب مما يثير غضب جوان دائما ويقف كثيرا حائلا ضد تنفيذ خطط جوان، وحيله، كما أن للعناصر الأسطورية دورها بصفتها شخصيات عجائبية متمثلة فى المغارات، وما تحتوى عليها من سيوف مرصودة، وكائنات عجائبية فى المجتمع المسلم. وفى المقابل توجد الكنائس العجيبة التى يختبئ بها جوان وتظهر الأرصاد التي تساعده على تنفيذ مهمته، حتى إذا آلت السيرة إلى نهايتها فسرعان ما تمتد أحداثها لتشكل هذا التوازن، فعندما يموت بيبرس يظهر السعيد ابنه فى مقابل ظهور أسفوط بن جوان، كما يظهر محمد السابق بن شيحة ليقوم بدور أبيه من فك حيل أسفوط وتكون نهاية أسفوط على يديه فيقطعه، كما يظهر زرقش ابن البرتقش، ويساند أسفوط فى الصراع ضد السعيد ومحمد السابق لتتوازن الرؤى السردية، وتسير فى منوال واحد تؤول فى النهاية إلى أن هذه الأحداث إنما حدثت من قبيل القضاء والقدر، أو المقدرات التى رصدت من خلال كتاب زمانى وهو كتاب اليونان الذى به نبوءة لكل هذه الأحداث.

لذا يتبدى لنا سؤال إنذاك كل طرف بعامة يعرف نهايته فلم الصراع ؟

وهنا يظهر من خلال الصراع الإجابة عن هذا بأن عنصر البقاء ومعاندة الأقدار ومحاولة تغييرها بالحيل، أو بالحروب، أو بالجان، والسحر. لا شك أن كل هذه العناصر قد ساندت في إثراء العمل، فلولا هذا الصراع لفقدت السيرة عذويتها ومن ثم ظهر الصراع منذ بداية السيرة إلى نهايتها، ولعل بدايتها تشبه نهايتها، ففى البداية الوزير المقتدى يراسل الملك منكتم ملك العجم ليأتي لمحاربة المسلمين، وأخذ بلاده، ويأمر بقتل الرسول الذى أرسله إليه. وفى نهاية السيرة بعد موت الظاهر، وشيحة، وتولية السعيد يظهر قلاوون مطالبا بالحكم وتكثر المطالبة به مما يعنى انفتاح المادة الحكائية على دوامة الصراعات، فيتم استقدام محمد الناصر من الكرك ليأخذ مملكة مصر.

وقد زخرت السيرة بشخصيات متعددة لكل منها صفاتها الخاصة، ونسقها الخاص الذى تحدد من خلال الأدوار التى قامت بها داخل بنية السيرة.

ونستطيع أن نجملها فيما يلى:

الشخصيات المرجعية وهى كمية المعلومات التى كونها الراوى قبل سرده، مثل المعلومات التاريخية ذات التاريخ الخاص.

الشخصيات شبه المرجعية: وهى الشخصية الملفقة أو غير المؤكدة تاريخيا مثل الأولياء الذين اجتمعوا فى زمن واحد داخل السيرة وهم أحمد البدوى، وإبراهيم الدسوقى، وعبد الله المغاورى، والشيخ جياد، والقفاص ...الخ، رغم أزمانهم التاريخية المختلفة الوجود.

الشخصيات العجائبية: وهى تتضمن الجان والسحر، وسيدنا الخضر أبو العباس عليه السلام الذى يظهر فى اليقظة فى صور شتى، واختص بالظهور علانية فى سيرة الظاهر بيبرس على وجه الخصوص.

أما البنيات البسيطة والمركبة فى السيرة فتتكون من :

١- الإنس بعامة أو الجان.

٢- العقل إذا كان الإنسان مسلما، أو يؤمن بالجان والحيل مثل شخصية (جوان).

٣- الصفة إذا كانت الشخصية متحولة، مثل الجن الذى يتغير ويغير شكله، أو الثابتة مثل الإنسان.

٤- الساحر.

٥- الولى الذى يتحول إلى هيئة أخرى، كأن يتحول إلى طائر مثل شخصية سيدنا الخضر.

٦- العيار الذى يحتل مكانة مرموقة، كأن يكون بطلا فى السيرة مثل شخصية (شيحة).

٧- الحياة ويتجدد هذا العنصر فى الشخصيات المعمرة مثل الولى وخاصة السيدة نفيسة التى احتمى بها عثمان بن الحبلى خوفا من بيبرس (وأخذته سنة من النوم، وقد رأى بيبرس هذه الرؤية مع عثمان، وهى تقول لبيبرس: هذا تابعى وخادمى وأنا لم أفته أبدا ولكن رضيت أن يكون خادمك على

طول المدى وكذلك أنت الآخر تطيع أمره فإنه صحيح النظر وأنا ناظرة إليكما بالرعاية والعناية، وعلى يديك زال بخسه وانمحى عهده، وأقبل عليه سعده ويكون أخاك على مقامى)[٢٨].

الشخصيات المركبة:

وتتكون من عنصرين:

أولهما: طبيعى وهى شخصية ناجمة من تراكيب جنسيتين، أو اختلاط جنسى بشرى بجنس حيوانى مثل شخصية جوان الذى رضع من كلبة فصارت أفعاله بخسة شيطانية.

ثانيهما: اصطناعى: وهى شخصية وليدة حكيم أو ساحر مثل الأشياء المطلسمة نحو الحمارة المرصودة، أو برق الملكة تاج ناس.

وإذا حاولنا دراسة شخصية البطل (الظاهر بيبرس) فإنه لا يمكن دراسته بمعزل عن بقية الأبطال المساعدين له، أو العناصر الأسطورية التى شكلت أنساقا فى تكوينه. فإذا كان الظاهر هو صاحب السيرة، فإن دور جمال شيحة لا يقل شأنا فى السيرة، وكذلك أولاد إسماعيل أو الفداوية لذا نرى على أبواب وفصول السيرة ذكر جمال شيحة وأولاد إسماعيل (سيرة الظاهر بيبرس محمود الظاهر بيبرس ملك مصر والشام وقواد ومشاهير أبطاله مثل شيحة جمال الدين وأولاد إسماعيل وغيرهم من الفرسان وما جرى لهم من الأهوال والحيل) إلا أننا سنعرض للبطل بدراسة خاصة به لتميزه عن باقى أبطال السيرة.

فإذا كان لأبطال السيرة الشعبية بعامة ميلاداً. فإن سيرة الظاهر بيبرس تختلف عن باقى السير، فلم تعرف السيرة نشأة البطل، ولا ميلاده فيعد الوحيد الذى تلقى نبوءته بنفسه فبدأت السيرة ببحث الصالح أيوب عن صاحب الرؤيا الذى رآه فى منامه، أو البطل المخلص الذى سيكون عونا له، ذلك الأسد الذى قتل السباع السبعة وإذا غضب ظهرت شعرة أسد بين حاجبيه. لذا كانت هذه البداية، وإلى أن يتم شراء المملوك محمود صاحب هذه الأوصاف الذى لم

---

[٢٨] السيرة – م١ – جـ٣ – ص ٢٣٨.

تعرف له بداية إلا بعد ما تأكدت له شخصيته وأصبح الظاهر بيبرس صاحب اللقب الشهير والذى أضفت عليه الجماعة الشعبية صفات البطولة التى يرونها من إفرازات اجتماعية سائدة تنبئ عن مكنونات هذا العصر التى زخرت السيرة بها فالبطل ظاهر وطاهر، ومنقذ، ومنفذ، وصالح، وولى، ويكتفى بزوجة واحدة، يؤمن بالقدر، تسانده قوى غيبية ذات امتداد ترده سالما فى المآزق إلى حيث كان، وكذلك كل (قصور البطل من وجهة تكوينه الذاتى لابد أن يؤكد أن البطل ليس بمعزل عن الجماعة. فالتصورات الذاتية تجعل قيمة البطل بالنسبة لنا هى أنه يمر بتجارب يمكن أن نمر نحن بمثلها أو بصورة مخففة منها أى انقلاب فى أحوال البطل تثير فى نفوسنا الانفعال، أما الأشرار فلا يثيرون فى نفوسنا الشفقة ولا الخوف)[٢٩].

بيد أن الحركة التى ينتقل بأثرها البطل عبر أحداث السيرة هى التى تجعل للسيرة قيمة، فهى سرد وجود واستمرار البطل ليبرز من خلال مثلث حياتى يتمثل فى النشأة والاغتراب، وتأكيد البطولة وحيث إن عنصر النشأة غائب فى هذه السيرة - الخاص بالظاهر بيبرس - لذا يتبدى لنا أن نتحدث عن الاغتراب الدرامى الذى بدأت به السيرة من كون البطل مريضا، مغتربا عن وطنه لا يملك من أمره شيئا مملوكا اختطف من أهله الملوك، وبيع للسماسرة وتجار الرقيق، ودخل فى زمرة المماليك، ثم يسوقه القدر المرتب فى السيرة ليكون بطلا، وحاكما على الشام، ومصر فى آخر مرحلة من مثلثه (تأكيد البطولة) التى شكلت بنية فى توالى الأحداث وترابطها، فكل عنصر يهدينا إلى عنصر ضاربا بناقوس استحقاق أن لبيبرس البطولة والزعامة، لما تملكه من أدوات لإقناع العامة وقارئي السير، فاستطاعت السيرة أن تؤكد وجوده بين أفراد الشعب دون تعالٍ أو كبرياء ينزل إلى الحارة ويتبارى مع العيارين وما لبثت أن رفعته العامة إلى مرتبة الولى، والحاكم، والمحتسب، واتحدت كل عناصر الطبيعة الخارقة، وغير الخارقة فى مساعدته لتأكيد بطولته وامتدت السيرة

---

(٢٩) شكرى محمد عياد، البطل فى الأدب والأساطير، القاهرة ، ط١ دار المعرفة، ١٩٥٩، ص ١٦: ١٩.

وأحداثها إلى ابنه السعيد كجانب من الخير ضد الشر الذى مثله جوان، وابنه أسفوط.

فهذه الانتقالات، والحركات عبر نسيج السيرة ما كانت إلا انتقالا من سيرة إلى سيرة، من سيرة حمزة البهلوان إلى سيرة الظاهر بيبرس بصفتها آخر السير الشعبية، وكأن عالم السير يسير فى اتجاه واحد، أبطالها شديدو الصلة بعضهم ببعض لتجسد كل سيرة نمطا أنثروبولوجيا واجتماعيا تكون فيه الأسطورة وبنيته الأداة الفاعلة المتمركزة داخل القالب السردى نستشف من خلاله مواضع الأسطورة حتى إن بدايات الراوى، أو السارد الذى يعتبر شخصيته لا تنفصم عن شخصيات السيرة بصفته محرك كون الشخصيات، التى تكاد تكون واحدة عندما يبدأ الراوى الانخراط فى وصف الأحداث الأسطورية، وتركيبتها البنيوية، فبالرغم من أن (دور المؤلف غير كبير فإن إدخال العناصر السيكولوجية أو التصوير السيكولوجي للشخصيات أو تحويلها من أبطال ميثيولوجيين، أو فولكلوريين إلى أبطال "روايات" يتم بواسطة استخدام الكلام الإخبارى، أو المباشر على نطاق واسع حينما يعلل هذا البطل أو ذاك تصرفاته معبراً عن ذلك بأسلوبه الخاص به، وهذا الطابع المتميز للسيرة الذى يساعد على تضخيم حجمها، مما يميز السيرة عن الحكاية، إذ أن بطل الحكاية لا يعلل، ولا يبرر تصرفاته ويكتفى بالقيام بدوره أما بطل السيرة فقبل تأدية دوره يوضح أسباب تصرفاته، ولماذا لا يتصرف هكذا بالضبط؟ وليس بصورة أخرى ومن ثم يفسر مجددا سبب العمل الذى قام به فى هذه العملية لإضفاء الطابع السيكولوجى. حيث تنصهر العناصر المختلفة للسيرة فى مؤلف واحد فن ما قبل الرواية)[٣٠] أما الأبطال فيرتفعون إلى نسبهم فى أصول تكاد تكون أجنبية تماما عن مدلول كلمة عربى (ولكنها لا تستطيع أن تؤثر فى واقع ارتباط هؤلاء بعضهم ببعض ولا فى أهمية هذا الارتباط)[٣١] (فبعض الأبطال أكراد واضحو النسبة، وهم الأيوبيون مثلا، ومنهم سلطان مصر – عند بدء السيرة - الصالح

---

[٣٠] نعمات الله إبراهيم، السير الشعبية العربية، ص١٦٦.

[٣١] فاروق خورشيد، أضواء على السيرة ص٩٨.

أيوب وبعضهم عجم لا شك في انتسابهم إلى بلاد الفرس ونسبتهم تعود إلى أرض إيران وبعضهم ترك كالظاهر بيبرس)[٣٢]، وبعضهم بدو من أبناء سيناء كشيحة الذى يعود نسبه إلى غزة مباشرة، وبعضهم ينبع من حوارى القاهرة كعثمان بن الحبلى الذى يخرج من حى الحسينية ومن الشام يخرج إبراهيم الحورانى وحسن الحورانى، (ومن المغرب يأتى قائد الأسطول العربى فى الحروب الصليبية فى السيرة محمد فارس البطريق الذى يعود نسبه إلى مدينة طنجة بمراكش، ويقود سفينة حربية رهيبة اسمها الغراب)[٣٣] (بينما يأتى نسب آخر بطريقة أكثر غرابة إذ ينحدر عرنوص الذى يلعب دورا خطيراً فى الأجزاء الأخيرة من السيرة من أصل إيطالي وكذلك ابنه بتمورج لذا لا يستطيع كاتب السيرة أن يهمل أصول المماليك الذين يلعبون دورا هاما فى أحداث سيرته، فبعضهم من منطقة جورجيا وبعضهم من الجركس)[٣٤] والذين تعود أصولهم إلى العرب وذلك عندما ارتد جبله بن الأيهم عن الإسلام إبان عهد عمر بن الخطاب سار جبله بن الأيهم إلى هرقل صاحب الروم الذي في أنطاكية حين فتحها الصحابة رضى الله عنهم فى سَنة سبع وعشرين للهجرة وركب البحر إلى بلاد قسطنطينية، وهرب جبلة ومعه خمسمائة رجل من قومه من عرب غسان فتنصروا كلهم، وأقاموا عندهم إلى أن انفرط ملك القياصرة ثم تحيزوا إلى جبال الجراكسة، وبلادهم، وهى ما بين بحر طبرستان، وبحر يبطش الذى يمده خليج قسطنطينية، فاختلطوا بالجراكسة وتزوجوا منهم نساء، (وتزوج الجراكسة منهم نساء فتوالدوا وتناسلوا، وكثرت ذرياتهم واختلط بعضهم ببعض ودخلت أنساب بعضهم فى بعض حتى ليزعم كثير من الجراكسة أن أصلهم من نسب عرب غسان)[٣٥]. فإن هذه الشخصيات تمثل الكيان العربى فى ظل امتداده على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى مواجهة الغزو الصليبى نحو

---

(٣٢) عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس ص٤٧.

(٣٣) فاروق خورشيد، المرجع نفسه ص٩٨.

(٣٤) فاروق خورشيد: أضواء على السيرة ص٩٩.

(٣٥) العينى: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، محمود بن أحمد المعروف بالبدر العينى – ت هانس أرنست - دار إحياء الكتب، ١٩٦٢ ، ص٥.

هدف واحد يتبلور فى التصدى للعدو بأشكاله مهما اختلفت شخوصه وتجسدت فى حيل (جوان) الذى يمثل العدو الأكبر للإسلام.

وإذا أردنا أن نتعرض للشخصيات داخل السيرة فقد نتعرض لها تاريخيا فبعضها له تاريخ والبعض الآخر من نسج خيال الشعب، محاولين مقارنة الشخصية بين السيرة والتاريخ حتى نتعرف على نتائج التحول بتأثير خيال الشعب، فإذا كان التاريخ يحكى ما كان فإن السيرة تحكى ما يجب أن يكون. فمن الشخصيات التاريخية الظاهر بيبرس، والصالح أيوب وشجرة الدر والشيخ العز بن عبد السلام و"الخضر عليه السلام" وأيبك.

أما الشخصيات التى عرفتها السيرة من قبل أي أنها ممتدة عبر مراحل السيرة الشيخ النووى، وأصول جوان، ومريم الزنارية، والشيخ عبد المغاورى، أما من شخصيات السيرة، منهم الأغا شاهين على بن الوراقة قلاوون، وعثمان بن الحبلى، وإبراهيم بن حسن الحورانى، وسعيد بن حسن الحورانى، وأبو بكر الطبرانى، ومعروف بن حجر، وعرنوص بن معروف بن حجر، وجمال الدين شيحة، والسابق بن شيحة، وأرقش بن شيحة، والسعيد بن الظاهر بيبرس، والعياق والفداوية.

أما النساء فهي شجرة الدر، وحسنة الدمشقية، ومريم الزنارية، ومريم الحمقاء، ومريم ابنه جوان، والملكة تاج بخت، والملكة تاج ناس.

والأولياء في السيرة هم عبد الله المغاورى، والقفاص، وإبراهيم الدسوقى، وعبد القادر الجيلانى، وصاحب الوقت، والسيد البدوى.

شخصيات العدو:

جوان، والبرتقش، وأسفوط بن جوان، وزرقش بن البرتقش، وملك النصارى، والساحر، ودواهى .

والساحرات هن : ميمونة، وبحرونة، وشواهى .

لقد لعب القدر دوراً عظيماً فى تهيئة بيبرس للبطولة، فتوافرت كل مكونات القوى الكونية فى صنعه، لأن هدف مجيئه هو حماية الإسلام،

والمسلمين فإذا كان أعجمى النشأة فقد صيرته السيرة عربيا لإلتحامه بالعرب، وإذا كان بلا وطن فقد صارت مصر، والشام وطنا له، وإذا كان بلا أم فقد تبنته حسنة الدمشقية، كما صار الصالح أيوب أبا له، واتخذ عثمان بن الحبلى صديقا وأخا كما أمرته السيدة نفيسة عندما ظهرت له فى الحلم. وإذا وقع فى مأزق سارعت القوى الكونية لإنقاذه متمثلة فى الأولياء والبرق الخاطف أو دعوة مستجابة لإنقاذه، وما لبث أن تعرض للصراعات الداخلية والخارجية، فالداخلية متمثلة فى أيبك، أما الخارجية فمتمثلة فى جوان وملوم النصارى على حد تعبير السيرة. أما الصراعات الداخلية فقد ولدت له مناصب إثر كل صراع، فعندما يكيد له أيبك ليخفض من شأنه عند السلطان الصالح أيوب وعندما ثبتت براءته يرفعه السلطان مقاما عليا، وتتنامى شخصيته لتكون مقنعة لدى قارئ السيرة فيبدأ من الجندية، ثم المحتسب، أو المراقب ليتدرج بدوره فى مناصب الدولة حتى إذا حان وقت توليه الحكم لم يجد اعتراضا من الحاشية أو الشعب، فقد رفعه الشعب داخل نسيج السيرة إلى مرتبة السلطان الصوفى كما رفعت من قبله الصالح أيوب ولعل كاتب السيرة قد لعب دورا مهما ينبئ بأن السيرة كتبت فى عهد الظاهر بيبرس، أو قريبا من عهده منه حيث إن المصريين كانوا متضررين من العهد المملوكى، لذا لجأوا إلى الأبطال المخلصين روحيا، أو القوى الكونية المتمثلة فى الأولياء واتخذوا منهم سلاطين، وخلفاء تعويضا عن أولى الأمر فأطلقوا ألقابا على الأولياء مثل الخليفة، وسلطان العارفين لذا يتبين لنا أن راوى السيرة أو كاتبها قد كتبها بنزعة صوفية تظهر بين الحين، والحين داخل محتوى نصوص السيرة، ومن ثم سوف تتعرض لأنساق بيبرس الوظيفية مثل الألقاب والمناصب والنسب ... إلخ.

ألقاب بيبرس:

جاءت ألقابه إما للتعجب، أو للتمنى فقد لقبه الصالح أيوب بالظاهر ولقبته حسنة الدمشقية بيبرس، كما أظهرت السيرة أخطاء البطل، وعقابه لترسيخ الأداء الفنى لنموذج البطل، والاقتناع به ومن ذلك اعتراضه على رأى الشيخ النووى فيدعو النووى على بيبرس فيصاب بالعمى.

(ومن الملاحظ أن السيرة احتفلت ببيبرس وهو فى طريقه إلى الملك أكثر مما احتفلت به وهو متربع عليه، وتفسير ذلك أن البطولة كانت أظهر فى المرحلة الأولى منها فى الثانية، أو لم يكن الشعب بطبيعة الحال راضيا عن حكومة العبيد والرقيق، وإذا كان التاريخ يقص علينا سخط الناس، وتذمرهم من تمليك من مسه الرق عليهم، فإن السيرة أكدت هذا المعنى عندما جعلت الصالح أيوب يعتق بيبرس مرتين، ويشهد على إعتاقه ويكتب الوثائق بذلك، ولم يتربع على عرش مصر إلا بعد أن تهيأت له النفوس، كما اتصل بالعنصر الذى جاء بعده بحلقة كبيرة أخرى فقد أظهر أصحاب السيرة الفداوية فى موضع متقدم منها: فآخوا بين بيبرس وبين أمرائهم وسلاطينهم فغلبوه على بعضهم بل غلبوا بعضهم عليه، ينقذونه من الأسر حينا ويردون إليه الحياة حينا آخر وظل بيبرس أثناء العنصرين الآخرين علما من الأعلام فحسب. وباسمه تستثار الهمم. وتسنفر الأبطال وتجيش الجيوش ويدوخ المملوك وتفتح المدائن والبلدان)[٣٦]

فإذا حاولنا معرفة النشأة الأولى لبيبرس، ولم نجد ما يوضح لنا أكثر من السيرة منذ أن ولد إلى أن بيع فى بلاد الشام، قد أجمع المؤرخون على أنه ولد ببلاد القفجان[٣٧] (وقضى بها شطرا من حياته الأولى إلى أن بيع لأحد تجار الرقيق على أثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة ٦٤٠هـ ١٢٤٢م غير أنهم اختلفوا فى الجهة التى بيع فيها بعد ارتحاله عن موطنه)[٣٨].

ويحدثنا المقريزى أن تاجرا قدم به إلى حماة، ولما عرضه على الملك المنصور محمد لم يعجبه، فبيع بدمشق بثمانمائة درهم ثم رده مشتريه لبياض فى إحدى عينيه فاشتراه الأمير علاء الدين إيدكين البندقدار[٣٩] مملوك الصالح نجم الدين أيوب وهو معتقل بجماة (وأقام فى خدمته مدة ثم أخذه منه المالك الصالح)[٤٠] ويروى "الشيخ قطب الدين اليونينى المتوفى سنة ٧٢٦هـ فى

---

[٣٦] عبد الحميد يونس، الظاهر بيبرس، ص ٢٦.

[٣٧] القفجان: بلاد حوض الفلجا والأراضى التى حول بحر قزوين.

[٣٨] محمد جمال سرور: الظاهر بيبرس ص ٢٨.

[٣٩] البندقدارى أى حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير – المرجع السابق ص٢٨.

[٤٠] المقريزى: السلوك لمعرفة أول مملوك – طبعه الدكتور زيادة جـ١ – القسم الثانى ص٦٣٧.

"الذيل على مرآة الزمان"، وأبو المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤هـ فى كتابه "الزاهر" عن هذه المسألة رواية يستفاد منها أن بيبرس قدم إلى سيواس على أثر بيعه ببلاده، ثم نقل إلى حلب وبيع بعد ذلك بالقاهرة للأمير علاء الدين أيدكين البندقدار وظل عنده حتى أخذه الملك الصالح عندما قبض عليه فى شوال سنة ٦٤٤، ورأسه على فرقة من حراسه، وسرعان ما ظهرت مواهبه حتى فى حياة الملك الصالح نفسه، وظل يتدرج فى المناصب حتى أصبح قائد فرقة المماليك التى كان لها الفضل الأكبر فى صد حملة لويس التاسع عن مصر، ولما توفى هذا السلطان عام ٦٤٧هـ اسخط ابنه توران شاه على المماليك فقتلوه، واشترك بيبرس فى هذه المؤامرة والتحق بخدمة السلطان الجديد أيبك، وأمر أيبك بشنق أحد المتآمرين، فاضطر بيبرس إلى الفرار إلى الشام ظل بها مدة مع أمراء الأيوبية متنقلا بين دمشق والكرك، ولم يعد إلى القاهرة إلا بعد اغتيال ايبك فعهد إليه السلطان قطز بقيادة طليعة الجيش المسير لقتال المغول، ولم يقطعوا لبيبرس شيئا، وكان يطمع فى حكم حلب فأغضبه ذلك ودفعه إلى التآمر مع بعض المماليك وقتل السلطان وهو ذاهب إلى الصيد فى طريقه إلى مصر، وانتخب قواد الجيش، والأمراء بيبرس سلطانا، ولما تمت البيعة قال أقطاى المستعرب لا تتم لك السلطنة إلا بعد دخولك القاهرة، وطلوعك قلعة الجبل فركب، ومعه الأمير قلاوون، وبلبان الرشيدى، وجماعة آخرون فلقيهم فى طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبى نائب السلطنة، وكان خارجا لمقابلة قطز فأخبره هؤلاء بما حدث فبايع بيبرس وقدم له فروض الطاعة، ثم تقدمهم إلى القلعة ووقف على بابها حتى دخلوا البلاد وكانت القاهرة قد زينت لقدوم قطز فرحا لما فعله بالتتار واستبشارا بقدومه إليها واستمرت تلك الزينة حتى قدم بيبرس وأشيع خبر تملكه وقتل قطز، رغم ما لحق الناس من هم، ووجل خوفا من بطش المماليك البحرية ومعاونيهم، لما كانوا عليه من الظلم والفساد، ولما تولى بيبرس عرش مصر تلقب بالقاهر ركن الدين بيبرس الصالحى، فأشار عليه وزيره زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب، وقال له: ما تلقب به أحد وفلح فاستجمع بيبرس لمشورته وتلقب بالملك الظاهر، وبدأ السلطان عمله بأن قسم مناصب الدولة الكبرى بين أنصاره وثبت باقى حكام الأقاليم، وعمال

الأيوبية فى مناصبهم، وقام عامل دمشق لمناهضة بيبرس وطالبه بالسلطنة بيد أن أنصار الملك الظاهر تمكنوا من القبض عليه وكانت الديار المصرية والشامية محوطة بالأعداء من كل جانب، ففى الشمال يربض ملك أرمينية النصرانى، وفى الغرب تمكنت القوات الصليبية على طول الساحل الشامى، وفى الداخل جماعة الحشاشين، وفى الشرق المغول يطلبون الثأر والغنيمة، وفى الجنوب مصر والنوبيون الذين لا يسكتون عن القتال أضف إلى ذلك الفزع الدائم من توقع حملة صليبية أخرى تفد على الشرق من أوربا والخوف المستمر من قيام أحد أمراء الأيوبية مطالباً بالعرش، وقد ينجح فى استنفار الناس واجتذاب الأنصار، ثم هؤلاء الشيعة الذين لم ينسوا ما حاق بهم منذ عهد صلاح الدين فهم يتأهبون لإقامة أحد العلوية على العرش، بيد أن بيبرس سرعان ما وجد وسيلة ميسرة تكسبه وخلفاءه مظهر الحاكم الشرعى، فإن واحدا من سلالة آل عباس وابنا للخليفة الظاهر كان قد نجا من مذابح المغول وظهر فجأة فى دمشق ودعاه السلطان إلى القاهرة ودرست نسبته حتى إذا تأكدت صحتها بويع بالخلافة فى وسط مظاهر الحفاوة والتكريم، وأعطى هذا الخليفة السلطان حكم مصر والشام والبلدان الأخرى التى ينتظر وقوعها فى قبضته ومنحه لقب قيم الدولة وكان بيبرس ينوى حقيقة أن يعيد الخليفة إلى عرش آبائه فى بغداد وأن يجعل تحت إمرته جيشا قويا يستطيع أن يفتح عاصمة دولته، ولكنه عدل عن ذلك وسمع مشورة صاحب الموصل ورأى، أن الخير أن يبقيه فى القاهرة تحت عينه الساهرة ولذلك أعطاه جيشا لا يكفى للحملة على المغول حتى إذا التحم معهم ذهب الخليفة نفسه ضحية الموقعة الأولى، ولم يكن للخليفة ظل من السلطان بل إن خطبته عندما بويع تدل عبارتها صراحة على خضوعه للسلطان، ونال بيبرس بعمله هذا نفوذا ملحوظا فى مكة والمدينة، وكان باعتباره خادم الحرمين أول من أرسل محملا يحمل الكسوة الشريفة إليها ولا تزال هذه العادة متبعة إلى عهد قريب، كما كان يرسل الجواهر الثمينة والهدايا للأماكن المقدسة، واستطاع أن يقيم علاقات طيبة مع معظم الحكام الفرنجة والمشارقة، وكثيرا ما اتصل بالمغول فى أرض الفرات والذين كانوا فى شغل بأعدائهم فى آسيا الوسطى فلم يستطيعوا مواجهته بكامل قوتهم واسترعى نظر

بيبرس بعد ذلك ما كان عليه ملوك أرمينية من قوة، وسلطان فشرع فى غزو بلادهم. وبدا لبيبرس أن الصليبيين هم أشد خصومه وألد أعدائه، ولكنهم كانوا قد انقسموا على أنفسهم ونشر بعضهم الدعوة الدينية ضده، وحاكوا الدسائس الصغيرة حوله فى حين انضم إليه البعض الآخر نكاية بمنافسيهم من إخوانهم فى الدين، ولم تكن الإمدادات التى أرسلت من أوربا بكافية وقد خلصته وفاة الملك الافرنجى لويس السابع من أقوى خصومه واستطاع السلطان بيبرس تحطيم قوة الأمير بويموند صاحب طرابلس بانتزاع انطاكية بعد أن أرسل عليهم سبع حملات وكسر شوكة الداوية باحتلال صفد وبرج ساقيتا، كما ذهم فرسان القديس يوحنا واختل حصن الأكراد وأمنع معاقلهم، وأخضع الإسماعيلية للسلطان القوى صاحب النفوذ المطلق على الشام، وسقطت حصونهم الواحد بعد الآخر وهى "مصييان" "وقد موس" "وكهف وخوانى"، وأصبحوا عمالا للسلطان الذى سدد خناجرهم نحو صاحب مرقبة الأمير إدوارد الذى أصبح فيما بعد إدوارد الأول ملك إنجلترا، وكان بيبرس أول سلاطين مصر الذين وسعوا رقعتها ناحية الجنوب فقد غزا قواده بلاد النوبة، ودخل فى طاعته الملك شكر كما خضع البربر لسلطانه، وهكذا ظفر بيبرس بأعدائه ومهما يكن من شئ فإن نجاحه يعود أغلبه إلى سرعته وجرأته التى لا مثيل لهما، وبراعته فى التنظيم، وكانت طرق البريد تخترق مملكته كلها حاملة الأخبار من عواصم الولايات والأقاليم إلى القاهرة بسرعة فائقة، وشاهد ذلك وصول البريد من دمشق إلى القاهرة فى ثلاثة أيام. وكان السلطان يتنقل بفرسانه يمثل هذه السرعة. فقد كان يباغت المدينة فى الوقت الذى يعتقد أهلها فيه أنه لايزال فى القاهرة، وكان أعظم مجازفاته ما قام به صحبة رجاله الأربعين فى مهاجمة حصن الأكراد. ويقال ان بيبرس تنكر فى ثياب شيخ، واشترك فى السفارة إلى بويموند صاحب طرابلس ليختبر بنفسه قدرة المدينة على المقاومة غير أن هذه الروايات بعيدة عن التصديق ولم يأل السلطان جهدا فى تحصين مملكته فأعاد بناء الأسوار والمبانى التى خربها المغول، وأقام السكنات وهى الأماكن الهامة، وهو الذى

ابتدع العادة المتبعة فى بلادهم أهل السنة وهى أن يكون لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة قاضى خاص)[٤١].

(وقد عانى بيبرس من شن الثورات الداخلية ضده، ولعل أقوى ثورة هى ثورة الأمير سنجر فكلف بيبرس نائبه فى بدمشق الأمير علاء الدين البندقدار بالقبض على بعض الأمراء الذين توهم منافستهم له مثل الأمير شمس الدين أقوش البرلى، الذى كان قطز قد ولاه على نابلس وغزة، وبعض بلاد الساحل ولكن شمس الدين البرلى استطاع الفرار، ومعه بعض المماليك العزيزية والناصرية فاتجهوا شمالا وحاولوا استمالة صاحب حمص، وحماة إلى جانبهم، فلما فشلوا فى ذلك انقضوا على حلب، واستولى عليها البرلى ورفاقه وعندما علم السلطان بيبرس بما فعله الأمير البرلى فى حلب غضب لذلك وأرسل ضده جيشا بقيادة الأمير جمال الدين المحمودى)[٤٢].

ومن المؤامرات التى تعرض لها بيبرس هى مؤامرة المماليك ضده (ففى سنة ١٢٦١ اتفق المماليك على قتله وفرقوا الأموال على المماليك لاستمالتهم، لكن أحد الأجناد وشى بالأمير الصيقلى – زعيم المؤامرة – عند السلطان فقبض على ذلك الأمير وشركائه، واستمروا معتقلين إلى أن عفا عن معظمهم بعد ذلك وهنا نلاحظ حرص بيبرس فى ذلك الدور الذى أخذ يمكن لنفسه فيه أعلى استمالة لقلوب الأمراء بالعفو وحسن المعاملة على أنه إذا كان الظاهر بيبرس قد لجأ إلى التسامح مع أمراء المماليك الذين خرجوا عليه فى بداية حكمه، فإنه لم يكن مستعدا لاتباع هذه السياسة مع غيرهم، إذا أحس بخطر يهدد كيانه من ذلك أن بيبرس كان متخوفا من بعض بقايا البيت الأيوبى بالشام. وهم الذين عز عليهم أن ينتقل الحكم والسلطة إلى مماليكهم ويحرمونهم – وهم سلالة أيوب وأقرباء صلاح الدين – ومن حقهم الموروث فى السلطنة وقد زاد من مخاوف الظاهر بيبرس أن الملك المغيث عمر الأيوبى صاحب الكرك استعان ببعض جمع الأكراد وأخذ يغير على الشوبك وغيرها من المناطق القريبة التابعة للسلطان الظاهر وعندما أحس الملك المغيث الأيوبى بنية بيبرس فى الانتقام

---

[٤١] انظر: محمد جمال سرور، الظاهر بيبرس من ص ٢٨: ٣٥.
[٤٢] أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر جـ٣ ص ٢٠٩ – ٢١١.

أسرع إلى الاعتذار وطلب العفو عنه وعن حلفائه الأكراد، فعفا بيبرس عنهم جميعا كما أسرعت أم المغيث لمقابلة بيبرس عند غزة لتشفع فى ولدها وتطلب له الأمان فتظاهر بيبرس بالموافقة على طلبها وأعلن عفوه وعن المغيث وطلب ليقابله فى بيان ولما تقابلا غدر به بيبرس فقبض عليه وأرسله إلى القاهرة ثم قتله بعد ذلك)[٤٣].

(واستطاع بيبرس أن يمكن لنفسه فأخضع الثورات وقضى على الفتن والمؤامرات التى اعتاد أن يتعرض لها سلاطين المماليك فى أوائل حكمهم وتبدو براعته فى بعد نظره السياسى فى أنه حرص دائما على أن يحيط حروبه بسياج من المعاهدات والاتفاقيات الدولية الخارجية ليضمن تقوية جبهته من ناحية واكتساب أعوان وحلفاء ضد خصومه من ناحية أخرى)[٤٤].

(وإذا كنا قد عرضنا جانبا من تاريخ بيبرس فى نظام السلطة، والحكم فإن هناك جانبا فى اعتقادى أدى إلى ظهور السيرة، وكتابتها فى عصره هو اهتمام بيبرس بالاحتفالات الدينية (محافل التسلية ومشاركة المصريين فى أعيادهم وجهوده فى تجميل القاهرة فقصدها الناس للتنزهة والتمتع بطيب هوائها ثم أن الناس اهتموا فى هذا العصر اهتماما بالغا باستغلال النيل والتنعم بمناظره وهوائه، وكذلك شغف الناس فى ذلك العصر بسماع الموسيقى والغناء مما جعل للموسيقى، والغناء أهمية كبيرة فى ذلك العصر)[٤٥]، (ومن وسائل التسلية التى شاعت فى القاهرة فى عهد السلطان بيبرس خيال الظل، وإذا كان الناس فى مصر فى أوائل القرن العشرين قد اعتبروا خيال الظل تسلية شعبية فإنه فى العصور الوسطى كانت التسلية العامة المفضلة لجميع طبقات المجتمع، فالسلطان صلاح الدين الأيوبى شغف وقت راحته بحضور تمثليات خيال الظل وصحبه وزيره القاضى الفاضل)[٤٦].

---

[٤٣] ابن شاكر الكتبى: عيون التواريخ جـ٢٠ ص ٢٣٠ – ٢٣١ مخطوطة دار الكتب.

[٤٤] سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس ص ٥٧.

[٤٥] انظر: السيوطى: بلبل الروضة وكوكب الروضة وهما رسالتان مخطوطتان بدار الكتب المصرية.

[٤٦] Paul Kahle: The Arabic sgadow in Egypt. PP. ٣١ ٣٤.

(وقد اهتم بيبرس بالاحتفالات الدينية مثل الاحتفال بدوران المحمل الرجبى فيعتبر أول من استحدثها فى مصر ٦٧٥هـ وقد قيل أن الغرض من طواف المحمل فى شهر رجب أو فى ذلك الوقت المبكر من السنة هو إعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحجاز آمن وأن من شاء الحج فلا يتأخر فى الاستعداد ولا يتخوف من الطريق)[٤٧].

وقد اهتم أيضا بالنواحى الإنسانية مما جعل الناس أكثر شغفا بحبه مثل الاهتمام بجمع (أصحاب العاهات من شوارع القاهرة فى خان السبيل ظاهر بباب الفتوح ونقلوا بعد ذلك إلى مدينة الفيوم وأفردت لهم بلدة تغل عليهم ما يكفيهم)[٤٨]. وقد علم بيبرس بكتابة السيرة الرسمية وما أضيف إليها عناصر أسطوريا فكان يسمع من كاتبها (القاضى محى الدين فكان كلما أعجبه جزءا خلع عليه الخلع وما يتبعها جزاء له، لذا فإن المؤلف قد وضع فى موقف لا يستطيع معه إلا تسجيل ما يسر السلطان، ويعود لمحى الدين بالمكافأة ومع أن التسليم بهذا يبدو خطيراً لأول وهلة إلا أن مما يخفف من خطورته أن الأمور التى تهم بيبرس، ويمكن أن يتدخل فى تغييرها فى السيرة قليلة، وقد أعطى محيى الدين فرصة لتعديلها بعد وفاة بيبرس ربما لم يكن يقدر عليه أثناء حياته)[٤٩].

وقد ملئت هذه السيرة بالعجائب والأساطير، حتى أنني اعتقد أن السيرة الشعبية المنتشرة محل دراستنا قد كتبت على أثر هذه السيرة فى عهد الظاهر أيضا فى وقت شغف المجتمع ببطولات الظاهر واهتمامه بالجانب الدينى والاحتفالات الدينية، ولا عجب أن كتبت على يد المداحين والصوفية لما تحمله فى طياتها من رموز صوفية جعلت الصالح أيوب والظاهر بيبرس أولياء صوفيين، ويلجأون إلى الزهد والورع إذا أصابتهم مشكلة وتسبقهما النبوءة فى

---

(٤٧) ابن حجر: أبناء الغمر جـ٢ ، ص٤٥٠ مخطوط بدار الكتب.

(٤٨) المقريزى: السلوك جـ١ – ص ٥٥٣.

(٤٩) محى الدين بن عبد الظاهر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر تحقيق عبد العزيز الخويطر – الرياض دت – ص ٣٣ : ٣٤.

الأحداث وينشدون المدائح النبوية ويذكر عبد الحميد يونس أن هذه السيرة كتبت على يد القصاصين والمداحين فى الموالد (فالأصل فى السيرة ان تكون للنبى صلى الله عليه وسلم، ثم أصبحت للصحابة فالأولياء فالأبطال ولعل المحدث من طبقة هؤلاء المداحين وبيئتهم، ومن ثم انتقل إلى السيرة ضرب من المنظومات يقترب جدا من تلك المقطوعات التى ينشدها طائفة المداحين المحترفين للنبى وأهل بيته فى المواسم والموالد والأسواق، ولا تختلف عنها إلا فى هذه الشوائب من السيرة تلخص أو تشير إلى حادث وقع وتهيئ الجو وتمهد لحادث يقع، وفيها كذلك منظومات كثيرة قريبة مما ينشد فى الأدعية والأذكار)[٥٠]. لذلك لعب القصاص دورا عظيما فى تحويل هذه الشخصية التاريخية إلى مادة لعب فيها الخيال حيث أوجدوا أسبابا، وبراهين فى كل حدث يقوم به الظاهر بيبرس يمحى عنه الخطأ ويعلل له النجاح كما أرجع اسمه وألقابه إلى تصوراته وخياله تزعم أن اسمه محمود (ووصل نسبه إلى بيت ملكى فذكر أنه ابن القان شاه جمك من السيدة أبق، وكان أبوه ملك خوارزم العجم، وزاد على ذلك أن مولده كان بمدينة المشرق والدربون من أعمال خوارزم)[٥١]. ولم يغفل الرواة صفاته الجسمانية فهو(فهم وفطين يحفظ القرآن ضعيف وجهه حسن إذا غضب يكون وجهه جدريات تملكه من الطارقة اليمنى إلى الطارقة البيسرى ويكون بين عينيه شعرة أسد وبين حاجبيه سبع من اللحم، هذا عند الغضب وإذا راق لم يكن لذلك أثر)[٥٢]. وتتفق رواية القصاص فى نشأته مع الدعاية التاريخية بصفة عامة وتختلف معها فى التفصيل فهى تذهب إلى عثور تاجر الرقيق عليه فى مدينة بورصة وسيرا به إلى حلب، ثم إلى دمشق، وهناك يمرض ولما شفى من مرضه سافر به إلى مصر وقد تعرض للبيع مرة أخرى عن طريق دين كان للأقواسى عند التاجر. (وكلما رآه أحد من العيان تنبأ له بمستقبل عظيم وخلط القصاص بين نجم الدين البندقدار وعلاء الدين أيدكين النبدقدارى. وقال: إنه هو الذى قدم به من مصر، ويتفق القصاص مع التاريخ فى أن بيبرس قد أصبح فى

---

(٥٠) عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس ص ٩٦.
(٥١) المرجع السابق – ص ٦٠.
(٥٢) السيرة – جـ١ – ص ٢٨.

مصر رئيسا على فرقة الملك الصالح وإن سماها الوشاية وفى هذه المرحلة من سيرته لازمه عثمان بن الحبلى، ثم ولاه القصاص كثيرا من المناصب لا تتسع لهذه الفترة من حياته فجعله ملتزما بها. حيث يعتبر الظاهر بيبرس بحق المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك التى ظلت تقوم بدور القوة الضاربة المدافعة عن الحضارة العربية الإسلامية على مدى أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان ـ تكشف السيرة المكائد والدسائس التى تعرض لها بيبرس وقد جعل خيال الفنان الشعبى المصرى فى السيرة من السلطان رمزا حمله المصريون كل رموزهم الاجتماعية، وصبغوه بالقيم والمثل والأخلاقيات التى تمثلهم)[٥٣].

وتستطيع أن تقسم حياة بيبرس إلى عدة مراحل كالتالى:

١ـ الصبا
٢ـ الاغتراب
٣ـ الاستقرار عند الملك الصالح
٤ـ المناصب
٥ـ الألقاب
٦ـ البطولة
٧ـ السلطة

ثم نحاول أن نبين علاقة البطل بالمكونات التى تحيط به، كما وضحتها السيرة:

أولا: مرحلة الصبا:

مرحلة الصبا دخلت عالم السيرة بغتة دون أن نعرف شيئا عن مرحلة الطفولة والنشأة كما لم يحفل بها التاريخ أيضا فلم تعطنا السيرة إلا تعريفا مبتسراً، فهو محمود بن الملك خوارزم شاه قد اختطف، وبيع لتجار الرقيق حتى إذا أصبح يافعا تربى فى حياة الرق بين من اختطفوا مثله، ولعل حلم الصالح أيوب يعد النواة الحقيقية للتعرف على شخصية البطل، عندما أمر الصالح "على بن الوراقة" أن يشترى له الغلام الذي بين عينيه شعرة أسد، والذي رآه فى المنام، وعندما ذهب علي لشراء المماليك، وجد صاحب تلك العلامات مريضاً ورائحته كريهة، إلا أن علياً كان مصرّاً على أن يشترى المماليك جملة من

---

(٥٣) قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور ـ ص ١٢٢.

مسعود بيك، لكن مسعود رفض ذلك. فيأتيه الأمر بالبيع عبر حلم يراه للملك الصالح. فيعدل مسعود عن رأيه ثم يأتى الملك الصالح فى منام مسعود بيك، ويقبل بيع المماليك ولو بثمن بخس خشية غضب الملك الصالح عليه[٥٤]، وعندما تفحص على بن الوراقة المماليك وجد ضالته وإذا به صبى مريض لا يأكل ولا يشرب منذ ثلاثة أيام لذلك عندما ذهبت المماليك إلى الحمام لتستعد للذهاب إلى مرحلتهم الجديدة مع على بن الوراقة وجدوا ذلك الغلام مريضاً يخرج منه ريحاً كريها، فكرهوا اقترابه وسألوا الحمامي عنه، فأجابه بأنه تابع لرجل يدعى محمود المسارع الذي تركه في الحمام ثم انصرف، فبدأ كل واحد من المماليك يبصق على وجهه، ومنهم من ركله بقدميه داعياً عليه بالموت مثل علاء الدين الذي بات مصراً على عداوته ورفض وجوده بين المماليك[٥٥]. ويغدو سرد السيرة فى خلق الأبطال المصاحبين للبطل إثر ظهور عدو له. فإذا رفضه علاء الدين ظهر له صاحب الأمير أيدمر الذي كانت دعوته مضادة لدعوة العدو، وأعلمه أن هذا المرض ما هو إلا بلاء وقدر من الله، فانخرط المملوك باكياً على مصيره وما آل إليه من ضعف وسوء حال[٥٦].

وكانت مرحلة ضعف البطل، ومرضه هى أول مرحلة لجذب الانتباه إليه، إذ كانت مسارا للحديث بين أيدمر وعلى بن الوراقة عن المملوك الضعيف الذى يحفظ القرآن، ويقول الأشعار، فيذهب علي بن الوراقة إليه ليراه فتتكشف له علامات أخرى للفتى الذى يبحث عنه فيبادره بأسئلة تغضبه حتى إذا غضب ظهرت السبع جدريات فى وجهه فأيقن أنه هو[٥٧].

ثانياً: بيع محمود إلى على بن الوراقة:

تعد هذه المرحلة انتقالاً من التكشف إلى الاهتمام بالمملوك، وخلاصه بين مالكه بدأ علي بن الوراقة ينحو نحواً جديداً تجاه المملوك، فبدأ بالاعتذار إليه

[٥٤] راجع ملحق السيرة فقرة رقم (١)

[٥٥] راجع ملحق السيرة : فقرة (٢).

[٥٦] راجع ملحق السيرة : فقرة (٣).

[٥٧] راجع ملحق السيرة : فقرة (٤).

عما ساءه منه ثم بحث عن مالك هذا المملوك، فعرف أنه مملوك لمحمود المسارع الذى تركه لمرضه فى هذا المكان، ولم يعالجه، ولم يسأل عنه، فطلب علي بن الوراقة من محمود المسارع أن يبيع له ذلك المملوك المريض فيفرح محمود المسارع بذلك كثيراً حيث كان يبحث عن فرصة لبيعه ولو بكيس من تراب، فتذكر علي قطعة القماش التي أعطاها له الملك الصالح وأمره بأن لا يفتحها، فظن علي أنها تحمل سراً. فقد جاء وقت وظيفتها فما كانت إلى ثمناً لشراء ذلك المملوك ولذا فرح بها محمود المسارع كثيراً وباع المملوك لعلي بن الوراقة، فأشفق عليه علي بن الوراقة، وأحبه[٥٨]. وما كان حب علي بن الوراقة لمحمود إلا نكبة على محمود نفسه، إذ تناوبت عليه المماليك بالرمى من على النوق، وهم بالطريق مع على بن الوراقة دون أن يشعر على بذلك فلما جن الليل كان محمود يئن من شدة المرض[٥٩]. فتضايق علاء الدين، فألقى به في قارعة الطريق دون أن يشعر به أحد، وظن أنه قد فارق الحياة، وتخلص منه إلى الأبد، لكن علي بن الوراقة قد فطن لذلك، فبدأ يسأل عن محمود، وكلما بحث عنه وجده ملقى على الأرض فيحمله على دابته. لكن المماليك لم تترك ذلك الأمر، فقد عاودوا الإعتداء عليه، فيتصدى لذلك الأمير أيدمر الذي تولاه برعايته، وأخذ يصاحبه، ويسامره، ويسقيه، ويطعمه.

وفى الطريق يظهر عادة العدو، والمصاحب فقد ظهر له رجال فى الطريق جاءوا إليه بقدر يسعون، وهم أولاد إسماعيل الذين تحولوا من ناهبين، وقاطعين الطرق لقافلة علي بن الوراقة إلى حماة .. يتبعون سيره ويقومون بالدفاع عن قافلة علي بن الوراقة إكراما له بأمر من الملك الصالح الذى أتى إليهم فى منامهم يوصيهم بحماية علي، والمملوك الصغير، فأمرهم بأن يوثقوا عهدهم به، ومن يخالفه في ذلك سيكون خصمه ..[٦٠].

وتتاطر الرؤى الحكائية فى بنيتها فإذا ظهر له العدو، والصاحب، وكانت بداية التشكيل الكونى للبطل من خلال مرضه. فإن فى المرض أيضا يظهر له

(٥٨) راجع ملحق السيرة : فقرة (٥).
(٥٩) راجع ملحق السيرة : فقرة (٦).
(٦٠) راجع ملحق السيرة : فقرة (٧).

أم تتبناه. ففى المرستان الذى كان يعالج فيه من المرض، والذى أسكنه إياه أيدمر كان المرستان لرجل يدعى "دحروج" كان متزوجاً بامرأة من نسل الأشراف تدعى حسنة الدمشقية(٦١) كانت تخرج ليلاً تتفقد المرضى والضعفاء، فاقتربت من محمود فوجدته في صراع مع رجل يستعين، ويستغيث بالآلهة لكي يشفى، فلما سمعه محمود، طلب منه أن يستعين بالله، وأن يسلم لكن ذلك الرجل رفض هذا الأمر فقتله محمود، فدنت حسنة الدمشقية منه وفرحت بصنيعه، وراحت تعد له طعاماً كي يقتات به، ويقوى، ويشفى من مرضه. وما كان هذا الحدث الذي تمثل في الصراع الذي رأته حسنة الدمشقية إلا بداية حدث أكبر وكأن الأحداث تولد بعضها بعضاً، فما كان الطعام إلا تمهيداً لظهور نبوءة بيبرس.

فقد حف مجلس محمود، وحسنة الدمشقية أولياء الله وأقطاب التصوف الذين دعوا لمحمود بالشفاء وولايته لمصر، والشام، ورؤيته لليلة القدر، وقد حضروا جميعاً، ولكن محمود يراهم في المنام، وحسنة الدمشقية تراهم في اليقظة، حيث دعوا بالشفاء لكل من يتناول هذا الطعام.

وبدأ بيبرس يشفى من مرضه ليبدأ فى مجابهة أول ما وقع به وهو الظلم وتؤكد السيرة أن بطولة بيبرس منذ صباه تتأكد فى رفضه للظلم بعامة ومحاربته للظالمين فإذا كان أول رجل يقتله كافراً،ويعبد النار، وهو مريض فإن ثانى رجل يقتله بعد شفائه مسلم ظالم للمسلمين مفسد لكل ما يراه صاحب عزم واستكبار أراد أن يأخذ غلاما يقرأ القرآن إلى بيته عنوة رغم استعطاف والد الغلام لهذا الظالم أن يتركه، فيرى بيبرس هذا فهجم على الرجل فيرديه قتيلا (٦٢).

وبهذا الفعل تتأكد بطولة الغلام، ويعلو صيته عند حاكم الشام الذى أصر على معاقبته لقتل رجل من أتباعه، فسأل عنه فقالت حاشيته إنه غلام ابن السَّيِّدَة حسنة الدمشقية.

---

(٦١) راجع ملحق السيرة : فقرة (٨).

(٦٢) راجع ملحق السيرة : فقرة (٩).

ولكن علي بن الوراقة يلعب دوراً كبيراً في الأحداث، فلم يكن مكفولاً بشراء مملوك فحسب، حتى إذا فقده، أو قتل منه في الطريق لم يحاسب عليه، ولم يلق غضب الصالح أيوب. بل كان مهتماً بحمايته لأنه صاحب رؤية الملك الصالح، بالإضافة إلى أن علياً قد رافق المملوك، وأحبه حباً شديداً، لذا كان مدفوعاً لحمايته بوسيلتين: الأولى هي رضاء الصالح أيوب، والثانية حبه الشديد لمحمود. فقد ذهب علي إلى عيسى شرف الدين ليطلب منه الصفح عن محمود[٦٣].

ثالثا: أ ـ رحيل محمود إلى مصر

ب ـ بعد عفو عيسى باشا الشام عن محمود، شرع على بن الوراقة أن يصحبه إلى مصر ليبدأ مرحلة جديدة فى وطن يحتويه، وبيئة يعانى كثيرا من الالتحام بها ولم يأت رحيله بصورة يسيرة على أمه حسنة الدمشقية[٦٤]، التي حزنت حزناً شديداً لفراقه ثم راحت تعد له العدة والعتاد والأموال.

وعندما هم على بالسير، إذ وجد عائقا يحد من سيره، ويحول بينه وبين أداء أمانته للملك الصالح. فتعرض محمود للسبي مرة أخرى. فقد كان علي بن الوراقة قد أخذ ديناً من علي بن الأقواسى، وعندما ذهب إلى مصر أول مرة، نسى هذا الدين، ولما رجع ثانية لينقذ محمود ذهب إلى الشام على عجل من أمره، فوقف علي بن الأقواسى فى طريقه، وأصر على أن يأخذ المائة دينار، فتوسل إليه علي بن الوراقة أن يتركه، إلا أن الأقواسى رفض ذلك، وأخذ الغلام محمود على سبيل ذلك فتركه علي بن الوراقة وذهب الأقواسى بمحمود إلى زوجته ليعمل في المنزل يغسل الثياب ويقضى حوائج البيت حتى اعترك مع أولادها فخاف من بطشها.

رؤية ليلة القدر:

قرر محمود الهرب من الأقواسي، لكن هذا الهروب يدخل فى عالم النبوءة، وتحقيقها، فما كان خوفه إلا عدة أدوار تمثل نسقا مصحوباً بدعوة منه تنجيه من بطش الأقواسى وزوجته واللذين يمثلان نمطا آخر للظلم فوافقت

---

[٦٣] راجع ملحق السيرة : فقرة (١٠).
[٦٤] راجع ملحق السيرة : فقرة (١١).

دعوته زمنا مقدسا، وهو ليلة القدر فدخل قبراً فوجد فيه ثلاثة رجال قد هربوا من عيسى الناصر[٦٥]. فلما جن عليه الليل رأى أبواب السماء قد فتحت فراح يدعو لنفسه بأن ينجيه الله من عذاب عيسى الناصر وأن يوليه حكم مصر، والشام. وما كانت هذه الليلة إلا ليلة القدر، وقد تحققت دعوة الأولياء برؤية هذه الليلة.

وعندما قرر محمود العودة إلى الشام وجد من يعينه على الأقواسي، إذ تأتي أخته فاطمة الأقواسية إلى أخيها لتعطيه جزءا من زكاة مالها، فتعلم بقصة الديّن الذى علق برقبة علي بن الوراقة، وكان محمود أداة هذا الديّن، فتسرع لأداء هذا الديّن، وتهدى مالها كله لهذا الغلام، وطلبت من العلماء أن يكتبوا ذلك في حجة شرعية[٦٦] .

حسب بيبرس ونسبه وسلاحه :

وقد وجد بيبرس من يحميه، ويذود عنه، لكنه لم يكن له سلاح يدافع به عن نفسه. فهو فتى مؤهل للبطولة الأسطورة فلا بد له من سلاح أسطوري يذود به عن نفسه، وعن جماعته، لذلك اجتمعت القوة الفردية والقوة الجماعية في سلاح واحد لا يستطيع حمله إلا مجموعة رجال، لكن البطل قد أوتي قوة جماعية ذات نسق بطولي واحد حتى يكون بطلاً مخلصاً، فمن أين يحصل على هذا السلاح؟ فلا بد أن يكون في مكان أسطوري يحمل سراً. فبينما محمود عند الأقواسية، إذ دخل عليه رجل واصطحبه إلى مغارة، وهناك تلا اسمه، وحسبه، ونسبه، فنال سلاحاً أسطورياً متمثلاً في (اللت الدمشقي)[٦٧] الذي يقترب وزنه من عشرة كيلوجرامات، ولم يحصل عليه بطل من الأبطال قط.

ومن ثم أخذت شخصيته تتنامى من الغلام محمود إلى البطل الذى يحمى نفسه (فلم يكن من الضعف الذى وصفه به القصاص عندما صوره لنا لأول مرة إلا صفة عارضة شفى منها، بل إن القصاص زاد من قوته بل زوده باللت

---

[٦٥] راجع ملحق السيرة : فقرة (١٢).
[٦٦] راجع ملحق السيرة : فقرة (١٣).
[٦٧] اللت: هو سلاح حديدي مثل السيف. راجع ملحق السيرة : فقرة (١٤).

الدمشقى الذى لم يفارقه طول حياته، وهي حديدة مكببة تشبه الفأس. وجعله القصاص مثلا من أمثلة الشجاعة، والإقدام يتغلب على كل من يقف فى سبيله حتى من اللصوص وقطاع الطرق)(٦٨). وما لبث بيبرس أن استخدم هذا السلاح كأداة للهروب بها من كل من سولت له نفسه بالاعتداء عليه، فقد قابله قطاع طرق، فتغلب عليهم، وأسرهم.

ولما طلبوا منه السماح سامحهم وأعطاهم الأمان، وعندئذ تحول العدو إلى الصاحب، فاصطحبهم إلى السيدة الدمشقية وأقاموا معه عندها واتخذهم عتاده(٦٩)، ليكون بهم نسقاً وظيفياً متمثلاً في الحماية، وتكوين البطولة الجماعية، فقد تحول من الفردية إلى عقل الجماعة، ليلعب عدة أدوار مع تلك الجماعة، ويتبادلوا فيما بينها الأنساق والأدوار الوظيفية التي ترمي إلى توحيد الهدف، وما كان السلاح الأسطوري إلا أداة للشجاعة، وإظهار البطولة في مجتمع لا يعترف إلا بمبدأ القوة، كما ساعده ذلك السلاح في الدفاع عن من أحبه، وهي السيدة حسنة الدمشقية التي تعرضت لظلم من (سرجويل) المسيحي الذي هم بسرقة محصولها الزراعي، فيتصدى محمود لأتباعه ويهزمهم، ويولون الأدبار. وهنا يظهر ترسيخ محمود لمبدأ العدالة ضد الظلم سواء من المسلم، أو المسيحي أو (الكفار) على حد تعبير السيرة، إلا أن معظم الأحداث تتصدى للكفار.

ومن ثم شكى سرجويل إلى عيسى الناصر الذى يكّن لمحمود كل العداء. فيستصدر أمراً بإعدامه، ولم يجد محمود بداً إلا الهرب مرة أخرى، ويقتل سائساً من أتباعه فى لحظة الإمساك به لتنفيذ العقوبة لكنه يجد مخرجا حتى لا تنتهى السيرة بنهاية هذا الحدث. فيأتى الوزير نجم الدين من مصر لينقذه، ويتضح من السيرة أن نجم الدين هو زوج أخت السيدة فاطمة الأقواسية فتتغير الأحوال وتتزين الشام لقدومه ويصحب محمود إلى مصر.

---

(٦٨) عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس ص ٦١ ــ ٦٢.

(٦٩) راجع ملحق السيرة : فقرة (١٥).

فلم يعد بيبرس ذلك الغلام المريض الذى يصحب من قبل على ابن الوراقة الموفد لشراء المماليك، بل أصبح البطل الذى ذاع صيته، ومن ثم فقد تمت مصاحبته إلى مصر بواسطة وزير، لذا راح يودع أمه حسنة الدمشقية[٧٠].

وبعد رحلة طويلة قابلا فيها قطاع الطرق، وانتصرا عليهم، وصلا إلى مصر، فوجد بيبرس نفسه فى وطن جديد طالما تمنى أن يسكن به، إلا أن السكن لم يكن الذي ينشده بيبرس فقد لاقى صعوبات تتأتى إليه من كل حدب، وصوب، فتبدأ بالقاعدة الشعبية أولا فى صورة العيارين الذين يرفضون كل ما هو جديد، أو يفرض عليهم وفى مقابل الصراع تتأكد بطولته من خلال نبوءة يراها أحد أفراد هذه الطائفة، وهو يحيى الشماع الذى رأى هو وزوجته حلما لبيبرس يشير إلى أن الذي سيحكم مصر، والشام غلام اسمه بيبرس به أوصاف هذا الغلام الذي لم يكن اسمه بيبرس فى ذلك الوقت وإنما كان اسمه محمود لذا عرف الشماع وزوجته فحوى الحلم، وتفسير الرؤية الخاصة بهذا الغلام. ويُعد وجود بيبرس فى الحارة المصرية، واعتراكه مع أحد العيارين أمام الدكان، والشماع، وانتصاره عليه نواة حقيقية للتعرف عليه، ويذاع صيته بين الناس ليودع بها الشام، وتستقبله مصر ويبدأ فى التعرف على أصدقاء، وأخوة جدد، وتكون له سيدة تتبناه مثل السيدة حسنة الدمشقية ألا وهى شجرة الدر، ويتخذه الملك الصالح ابنا له كما اتخذ بيبرس من عثمان بن الحبلى أخا له ليدعم به طريقه للبطولة الحقيقية.

ب- الاستقرار عند الملك الصالح:

لا شك أن البطل بيبرس قد أثار جدلاً حول حمايته للمظلومين في الحارة المصرية مما جعل دفع العامة إلى الاقتراب منه، حيث حظى بحبهم، فكان الحب هو ثانى العناصر الأساسية التى تنامت فى شخصية بيبرس بعد القوة، إذ كان ضعيفا مريضا. ففى الحارة المصرية يهرع الناس البسطاء إلى الاحتماء به، فيذود عنهم، ويتصدى لأغا الوشاقية الذى سلب طعامهم،

---

[٧٠] راجع ملحق السيرة : فقرة (١٦).

وأموالهم، وقد كان يضرب غلامًا صغيرًا فطلب الغلام شفاعة بيبرس، فتشفع له، ولكن الوشاقى رفض شفاعته، مما أثار غضب بيبرس فهجم على الوشاقى فقتله، ويأخذ الوشاقية قتيلهم إلى الملك الصالح، فيأمر الملك الصالح بحضور بيبرس، فيرفض بيبرس الحضور إلا بحجة شرعية من قاضى الإسلام. وهنا نلاحظ أن بيبرس لم يعد فتى صغيرا بل شابا يافعا بطلا يدرك معنى الحجة الشرعية، وتكمن لديه القوى التى تؤهله لأن يرفض حكم الملك الصالح إلا بحجة شرعية. لذلك أمر الملك الصالح الشيخ العز بن عبد السلام أن يكتب له تذكرة شرعية بالحضور(٧١) . فلما قدم بيبرس ودافع عن نفسه، وبيّن أن الأغا الوشاقى قد ظلم الغلام، وضربه أمام بعض من العامة، فأتى القاضى ببعض منهم، وقصوا له ما رأوه، فثبتت براءة بيبرس. وفرح السلطان به لأنه تأكد فى أول حادثة له بمصر، أنه سيدافع عن المظلومين، مما يؤهله بعد ذلك للدفاع عن مصر والشام، والتصدى للعدو الخارجى. ولعل النقم التى يقع فيها بيبرس تكون نعما عليه فى شكل مناصب، حيث إن البطل يتدرج فى المناصب حتى أتاه الحكم على مصر، والشام فكان راضياً مرضياً.

مناصب بيبرس:

بعد رفع الظلم عن بيبرس فى تهمة القتل لأغا الوشاقية يعزل الملك الصالح الوشاقية، وينعم عليه بمنصب أغا الوشاقية، بعد سماع قول العلماء فيه الذين أفتوا ببراءة بيبرس، وأن الظالم إذا قتل ليس له فدية، وليس له حق. مما جعل الصالح أيوب يرد لبيبرس حقه، الذي يراه وهو منصب الوشاقية، فألبسه على التو لباس الوزير، فيكون أول منصب يتقلده بيبرس(٧٢) .

وتهدف السيرة إلى أن المناصب التي كان يعتليها بيبرس من الملك الصالح، هي من أهداف الملك الصالح لترسيخ شخصية بيبرس بين المصريين

(٧١) راجع ملحق السيرة : فقرة (١٧).
(٧٢) راجع ملحق السيرة : فقرة (١٨).

وأصحاب المناصب، حتى أنه كان يقول للخدام: لا ترفضوا أمراً لبيبرس، فأمره مثل أمري، وطلبه مثل طلبي، وأعطوه كل ما يريد[٧٣].

ولم يلبث بيبرس فى كل منصب اعتلاه، حتى دبرت له المكائد من قبل القاضى صلاح الدين (جوان)، وأيبك اللذين يكنان له كل العداء لبيبرس فيتفقان معا على قتل كاشف الجيزة، ويشيعان بين الناس أن بيبرس قد إرتكب هذه الجريمة، فيغضب الملك الصالح عليه، ويعزله من منصبه. وما إن تمت حيلتهما إلا وسرعان ما كشفت، فيقلد السلطان بيبرس منصبا جديدا، وهو "كاشف الجيزة"[٧٤].

وما كانت هذه إلا بداية الخدعة من جوان ليوقع بيبرس فيها، ويدبر له المكائد، وما كان رأيه بتنصيب بيبرس، إلا لأنه يدرك أن السلطان سيولى بيبرس هذا المنصب، لذا عندما عرض عليه هذه الفكرة لم يتردد السلطان فى تلبية هذا المطلب الذى يوافق هواه أو ما ينتويه.

أما أيبك فبات يفكر فى مكيدة جديدة تلعب دوراً يوافق منصب بيبرس الجديد، فقد قام بتزييف وتقليد خاتم السلطان الذي يستطيع من خلاله كتابة مراسم إلى بيبرس حتى إذا قام بتنفيذها أنزل السلطان عليه جام غضبه، وأسكنه الحبس لا محالة، ويجد صعوبة إثبات براءته، بعد أن قتل أيبك الصائغ الذي قام بتقليد الخاتم حتى لا يجبر على كشف السر.

فكتب جوان كتابا إلى بيبرس بأن يضع نفسه فى الحديد عند وصول الرسول إليه ومعه رسالة مختومة من الملك الصالح، وأشار جوان على أيبك أن يرسل ابن أخته "قراجو" الذي يعمل محتسبا فى الشام إلى بيبرس، ومعه كيسا مليئا بالحديد ليكبل بيبرس نفسه بذلك الحديد آمراً إياه أن يسلم نفسه مكبلاً بالحديد[٧٥].

لكن بيبرس يساوره الشك فى تلك الرسالة، فيرسل عثمان بن الحبلى ليتأكد من ذلك، فلما عرف أنها حيلة، ومكيدة مثل المكائد السابقة، تيقن أن هذه

(٧٣) راجع ملحق السيرة : فقرة (١٩).
(٧٤) راجع ملحق السيرة : فقرة (٢٠).
(٧٥) راجع ملحق السيرة : فقرة (٢١).

الحيلة لا يغدو صنعها من جوان وأيبك، فيقتل حامل الرسالة "قراجو" ابن أخت أيبك، ويغدو بيبرس فى منصب الصارى عسكر بدلا من أيبك الذى يصبح تابعا في فيالق بيبرس. كما أسند الملك الصالح إلى بيبرس منصب "المحتسب" حتى يكسبه خبرة فى البيع، والشراء بجانب الخبرة العسكرية، فالسياسة يلزمها معرفة شاملة بكل أمور الحياة، فراح بيبرس ينظم البيع والشراء، لكن أيبك قد زاد من عدائه لبيبرس خاصة بعد مقتل ابن أخته "قراجو"، فراح يؤلب البائعين عليه حتى اتفقوا على التخلص منه. ولكن هيهات هيهات، وقد أصبح بيبرس مدركا لفنون حيل أيبك فتكرار المكائد جعله يعرف خطوطها جيداً، ومن ثم عرف آيات من رموز العدو فأعد العدة له وقد ساعده فى ذلك (قدرته، وفتونه، وشجاعته، وذكاؤه مما يكاد يجعله رمزا مجسداً لمصر كلها، فصعوده فى سلم الدرجات الوظيفية تعد مرحلة من مراحل حياته الوظيفية أداة فى يد الكاتب ليكشف مواطن الفساد والضعف والانحلال وليقاوم بجسمه، وبراعته منابع الشر، ويقضى عليها ثم يصبح ملتزما بها - ويقوم أمور الدولة، ويبعد المفسدين عن مناصبهم الرئيسية إلى أن أصبح وجوده خطراً حقيقيا يهدد جوان إذ لا مجال لمثله من العملاء إلا فى مجتمع فاسد يحكمه الرشوة، ويحمى وجوده بين أفراده بالمال. فيتآمر جوان تآمراً مباشراً على الظاهر بيبرس وتنتهى مؤامرته بالكشف عن شخصيته، واضطراره إلى الهروب، ويدخل بيبرس مرحلة جديدة وهى الدفاع الرسمي عن الدولة ضد أخطار الصليبيين المتمثلة فى مكائد جوان وحيله)[٧٦].

ألقاب بيبرس:

جاء في التاريخ أن بيبرس كان مملوكاً أعجمياً، أختطف من أهله، وبيع، ولم يعرف اسم محمود إلا من خلال الخيال الشعبى. إلا أننا سوف نعرض ألقاب بيبرس من خلال التاريخ، والسيرة لنبين رغبة الخيال الشعبى فى إضفاء روح الولاء، والحب لشخصية البطل. كما عُرف بيبرس بـ "بيبرس البندقدارى" نسبة إلى أستاذه أيدكين البندقدار[٧٧].

---

[٧٦] فاروق خورشيد: فن كتابة السيرة ، ص ٢٠ .

[٧٧] راجع ملحق السيرة : فقرة (٢٢).

أما لقبه بالظاهر:

تلقب بيبرس بلقب "الظاهر" عند اعتلائه عرش مصر (وكانت القاهرة قد زينت لقدوم بيبرس عندئذ تلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى فأشار عليه وزيره زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب وقال له ما تلقب به أحد فأفلح فاستمع بيبرس لمشورته وتلقب بالملك الظاهر)(٧٨).

أما شخصية البطل فى الخيال الشعبى فقد تذوب تاريخيا وتجنح إلى الأسطورة، وترتدي مآثره بلباس الخوارق، وليلعب الخيال الشعبي دوراً لا بأس به فيحول الأبطال إلى شخصيات أسطورية أو فولكلورية(٧٩). فأضفى ذلك على الأنساب التى انتسب إليها وألقابه التي لقب بها لقباً جديداً فى السيرة الشعبية.

فقد عرفته السيرة باسم محمود، وأما لقب بيبرس، والظاهر فقد جاءا عبر حكايات سردتها السيرة. وجاء نسبه إلى دمشق حيث عاش بها فترة اغترابه حيث مرضه وإقامته عند السيدة حسنة الدمشقية التى تبنته، ولقبته بيبرس. حيث كان لها ولد قد توفى يدعى بيبرس الذى يعنى (الأسد) فى اللغة التركية فقد كان قويا فنيا جميلا، يشبه محمود المملوك الذى اتخذته ولداً لها، ومن ثم أرادت أن تلقب محمود بيبرس ابنها تيمنا بهذا الاسم(٨٠) .

وجاء لقب الظاهر من خلال الملك الصالح، وذلك عندما قتل بيبرس أغا الوشاقية لظلمه – دافع بيبرس عن نفسه أمام قاضى القضاة العز بن السلام. فرح الملك الصالح بفصاحة بيبرس، وحجة لسانه، ونفيه تهمة القتل عن نفسه مدعيا أن الجماعة بكونها الواسع قد ظلمت فى شكل هذا الغلام. فلا عدوان إلا على الظالمين مما جعل الصالح أيوب يعجب به ويطمئن له قائلا: أظهر يا ظاهر وأقصد حماهم(٨١).

---

(٧٨) محمد جمال الدين سرور: الظاهر بيبرس – ص ٥٥.

(٧٩) نعمات الله إبراهيم: السير الشعبية العربية – ص ١٦٨.

(٨٠) راجع ملحق السيرة : قرة (٢٣).

(٨١) راجع ملحق السيرة : فقرة (٢٤).

البطولة:

تظهر بطولة بيبرس بعد تدرجه فى السلم الوظيفى للدولة، ويعتمد الملك الصالح عليه اعتمادا أساسيا فى نظام الحكم، ومحاربة الأعداء حيث تظهر بزوغ الشر مباشرة من جوان المتخفى فى شخصية القاضى صلاح الدين وتكتشف حيله مع أيبك، وتساند بيبرس قوى أسطورية تحارب الشر بأشكاله من جوان الذى يحتال مرة ويكيد أخرى مستخدما السحر، وتسخير الجان ـ لخطف أو قتل بيبرس. لذلك كان من فنية السيرة مجابهة الشر بالتصدى له من خلال عناصر مشابهة للشر المتنوع فيكون مرة بدعوة بيبرس، واستجارته بالله وأخرى الاستعانة بالأولياء، أو يسخر له البراق الخاطف من قبل ملكات تسلم فتتولى الدفاع عنه وتنقذه من براثن الحيل حيث تطغى العناصر الأسطورية على معظم أجزاء السيرة فيختفي اعتماد بيبرس على قوته الحربية، ففى اعتماده على القوة، والسيف، نرى بيبرس يستخدمها فى قتل الكفار المسيحيين على حد تعبير السيرة، فقد وظف جوان بعضا من المسيحيين لمساندته ضد بيبرس، وراح يثير الفتن ويكيد له فقد أرسل أشخاصا لسرقة أموال بيبرس فانتبه بيبرس إليهم وتابعهم بعد أن أتموا السرقة[٨٢].

ويظهر جليا اعتماده على دعوته المستجابة، وقد ألبسه الخيال لباس الولي الصوفي الذي لا ترد دعوته، ومن ثم إذا نجح جوان فى القبض على بيبرس دعا بيبرس دعوة فيأتيه الغوث سعياً في شكل ولي مثل صاحب الأسبق الضائع أو الخضر، أو القصاص... إلخ[٨٣]، أو يأتيه بطل مساعد مثل إبراهيم الحورانى الذى لم يأل جهداً فى متابعة بيبرس، فكان إذا ظن أن هناك مكيدة أو حيلة من جوان بات متتبعا لبيبرس حتى إذا نجح جوان فى اختطاف بيبرس هرع إبراهيم الحورانى بالبحث عنه، فكان إبراهيم يعتبر بيبرس جماعة كونية فى شكل سلطان يجب الدفاع عنه فكان يفتدى السلطان بنفسه، ويتلقى الطعنات أحياناً، فكان بيبرس يمثل له القيمة، والسلطان. فظهر من خلال هذه العلامة نسقا

---

[٨٢] راجع ملحق السيرة : فقرة (٢٥).

[٨٣] راجع ملحق السيرة : فقرة (٢٦).

وظيفيا لشكل المساعد من تلاحم فى الحياة فى شتى صورها المختلفة بوصفه مع البطل فهناك العديد من الأبطال المساعدين على اختلاف أجناسهم وصفاتهم وأنساقهم الوظيفية. فكل منهم يرى بيبرس بمنظور خاص به فمنهم من يراه بطلاً عياراً، وآخر يراه بطلا قومياً يدافع عن قضيته، وآخر يراه بطلاً حربياً، ومنهم من يراه ولياً صوفياً، إلا أنهم جميعاً قد شكلوا نسقاً واحداً وهو الدفاع عن الدولة الإسلامية التى يتزعمها بيبرس[٨٤].

وقد يكون المدافع عن السلطان قوى خفية كصوت إنسان يناديه من وراء حجاب لأن يتماسك ويصبر حتى يأتيه الفرج[٨٥].

أو قد يكون هناك ولى له قدرة حربية، والخوض فى المعارك، فيحارب الملوك الذين أغراهم جوان بقدرته وحيله وادعائه بأنه رسول المسيح مثل روميل الكاهن الذى أراد أن يتزوج ابنة أخيه، وقد طلب من جوان أن يفتيه فى ذلك بصفته رسول المسيح، فتأتى فتواه إجابية ويحلل الزواج من ابنه الأخ لكن الفتوى تظل معلقة بشرط ولا تتحقق إلا بتحقق هذا الشرط وهو قتل ملك المسلمين، ومن ثم يسعى كل ملك لقتل بيبرس وأعوانه حتى ينال رضا رسول المسيح (جوان) الذى يحل الحرام ويحرم الحلال. لكن الأنساق الوظيفية المتلاحمة والمجندة والمتصدية المتمثلة فى الأولياء وكراماتهم وقدرات الأبطال المساعدين الخارقة تقف حائلا لإنجاح حيل جوان فيدور السرد فى حلقات مثل ذلك مشابهة عارضا فنون الحيل مستخدماً عبارات، ومقولات حكائية تكاد أن تكون مكررة في كل موقف[٨٦].

وتستمر السيرة فى عرض بطولات بيبرس حيث تلعب الأسطورة فى ذلك دوراً مهماً، ورئيسياً، فلا شك أنها تشير إلى أحداث، وفتن داخلية قد تعرض لها بيبرس فى شكل مكائد من جوان المتخفى فى شخصية صلاح الدين القاضى، والذى يؤلب أيبك ضد بيبرس مما جعل أيبك يمثل نسقا داخلياً، حيث كان يثير

---

(٨٤) راجع ملحق السيرة : فقرة (٢٧).
(٨٥) راجع ملحق السيرة : فقرة (٢٨).
(٨٦) راجع ملحق السيرة : فقرة (٢٩).

الفتن ضد بيبرس عبر حكايات أسطورية للكهان والباباوات النصارى وربما تشير من قريب، أو من بعيد إلى شخصيات تاريخية مثل شخصية علاء الدين البندقدارى، ودوره فى حياة بيبرس، وحيث إننا أمام شخصية تاريخية فلابد أن نشير إلى بعض من حياته البطولية عبر التاريخ لنبين كيف عبرت عنها السيرة فى شكل رموز كى يحتفى قارئها بها، فيجد مجالاً خصباً للخيال والدعاية بالتكرار، والاستفاضة حيث يطلق على كثرة ما بها من تكرار وقول مأثور (هى سيرة).

ففى التاريخ لم تتم الأمور لبيبرس فى سهولة مطلقة، ودون أن يتعرض للثورات الداخلية المألوفة التى تعرض لها سلاطين المماليك كافة فى مستهل حكمهم، وكان بيبرس قد كتب إلى الملوك يخبرهم بسلطنته فلبوا كلهم بالسمع، والطاعة عدا الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق الذى استاء لمقتل قطز وأنف من طاعة بيبرس، وقد أخذ سنجر الحلبى يمكن لنفسه بسرعة فى دمشق فدعا لنفسه فى خطبة الجمعة وتلقب بالملك المجاهد ووضع اسمه إلى جانب اسم الظاهر على النقود فشكلت ثورته خطرا كبيرا على بيبرس، فلجأ إلى محاربته بسلاح المال، فأرسل أحد أمرائه إلى دمشق ومعه مائة ألف درهم، وخلع عليه حلى قيمتها ألف دينار، وذلك ليستميل الناس على المجاهد سنجر، ونجحت خطة بيبرس فانقض الأمر على سنجر فاضطر إلى الفرار إلى بعلبك على حين دخل الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، وهو أستاذ الملك الظاهر وحكمها نيابة عن السلطان بيبرس. كما فكر بيبرس فى إحياء الخلافة العباسية كستار يحتمى به من الضغائن، والفتنة ففكر عقب سقوط الخلافة العباسية فى بغداد فى استمالة أحد أبناء البيت العباسى الفارين من وجه المغول إلى مقر إمارته ببلاد الشام، ليعلنه خليفة ويجنى من وراء ذلك بعض المكاسب السياسية التى تمكنه من الصمود فى وجه المماليك بمصر. (وفى نفس الوقت احتاط السلطان بيبرس لمنع تضخم نفوذ الخليفة العباسى الجديد فراقبه مراقبة شديدة ولم يسمح له بالظهور فى المناسبات العامة، وصار الخليفة العباسى شبه محجور عليه ومن

ناحية أخرى إذا هجم المغول على البلاد فقد تكون الخليفة أول ضحية يبدأ بها)[٨٧].

كما تبدو براعة بيبرس وبعد نظره السياسى فى حرصه الدائم على أن يحيط حروبه بسياج من المعاهدات، والاتفاقيات الداخلية والخارجية ليضمن تقوية جبهته من ناحية، واكتساب أعوان، وحلفاء ضد خصومه من ناحية أخرى وفى حروبه للصليبيين فاستطاع أن ينازلهم فى المنصورة وسبرغورهم وأخاط علما بأساليبهم الحربية، ووقف على حقيقة قوتهم ونشاطهم السياسى وكان الصليبيون يعرفون أن أسلوبه غير ملتو فلم تمر سنة من السنوات الواقعة بين سنة ١٢٦١، ١٢٧١ دون أن يوجه حملة أو يقوم بغارة على الممتلكات الصليبية بالشام وفى تلك الأثناء كان يلجأ أحياناً إلى توقيع المعاهدات، وعقد الهدنات مع الصليبيين إذا أحس بحاجته إلى ذلك، ولكنه لم يجد غضاضة فى أي وقت فى خرق تلك المعاهدات، ونقض الهدنات قبل انقضاء أجلها التقليدى وهو عشر سنوات وعشرة شهور، وعشرة أيام ففى سنة ١٢٦٣ شرع بيبرس بالقيام بهجوم شامل على الصليبيين بالشام فتوجه بكليته إلى الفريج، وكان أن اتجه بيبرس إلى غزة وإلى جبل الطور قرب عكا وعندئذ تملك الصليبيون الخوف فأرسلوا إلى السلطان يظهرون التوبة والتمسك بالهدنة وبعد أن قرع بيبرس رسل الفرنجة. سألهم: "ما تقولون؟" قالوا: "نتمسك بالهدنة التى بيننا"، فرد السلطان: "لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان وإنفاق الأموال التى لو جرت لكانت بحارا؟". وهكذا أخذ رسل الصليبيين يتذللون لبيبرس ويطلبون مراحم السلطان ويتعهدون بفك أسرى المسلمين، والمحافظة على العهود والمواثيق، ولكن بيبرس لم يرق لاستعطافاتهم، ورد عليهم قائلا لو كان هذا قبل خروجى من مصر فى هذا الشتاء، وهذه الأمطار، ووصول العساكر إلى هنا. وبدأ بيبرس فى محاربتهم فهدم أبراج الصليبيين، وردم خنادقهم مما أدى إلى

---

[٨٧] سعيد عبد الفتاح – الظاهر بيبرس – ص ٥٢ : ٥٥.

هروب الصليبيين إلى عكا، واحتموا بأسوارها فتسلق المسلمون تلك الأسوار وحرقوا الأبواب، وأسروا جماعة من الصليبيين، ولم يكتف بيبرس بذلك بل أرسل قسما من جيشه إلى حيفا ففر الصليبيون من المدينة، وقلعتها ولاذوا بسفنهم، وعندئذ ضرب المسلمون حيفا وقلعتها، وأحرقوا أبوابها وعادوا بالأسرى، والغنائم سالمين، وحين عاد بيبرس إلى القاهرة يوم ٢٩ مايو سنة ١٢٦٥ لم يستطع البقاء طويلا بعيدا عن مسرح القتال فاتجه إلى عين جالوت حيث قام أمراؤه ببضع غارات استكشافية على الإمارات الصليبية المجاورة مثل صور، وصيدا، وكان الظاهر بيبرس قد بلغه أن "بوهيموند السادس" أمير أنطاكية أغار على مدينة حمص، فأرسل عليها جيشا بقيادة الأميرين "جمال الدين أيدغدى العزيزى" و "سيف الدين قلاوون الألفى". (أما بيبرس نفسه فقد اتجه إلى عكا، ومنها إلى صفد حيث تجمعت كل جيوشه العاملة ببلاد الشام، وهنا أيضا أظهر السلطان بيبرس همة كبرى، وشجاعة نادرة، وعندما عاد إلى القاهرة علم بتحرك التتار على حلب، فأسرع بمغادرة القاهرة فى ١٥ فبراير سنة ١٢٦٨ قاصدا الشام. فهاجمهم واستولى على انطاكية ويعود إلى القاهرة حيث إنه كان دائم التنقل فسمع عن تحالف بين الصليبيين والمغول ضده فانتقل إلى بلاد الشام مرة أخرى سريعا فضيق الحصار على طرابلس، وشرع فى الاستعداد لمهاجمة طرابلس لكنه علم بقدوم الأمير "إدوارد" الانجليزى الذى صار فيما بعد "إدوارد الأول" ملك إنجلترا، الذى أثار مخاوف بيبرس إذ خشى أن تكون تلك الحركة مقدمة لحملة صليبية كبيرة فى طريقها إلى الشام. لذلك قبل بيبرس العرض الذى تقدم به "بوهيموند السادس" صاحب طرابلس، وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن تكون الهدنة لمدة عشر سنين)[٨٨].

---

[٨٨] انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيرس – ص ٨٠ إلى ٨١.

السلطة:

إذا كان التاريخ قد سرد أحداثاً فى وصول بيبرس للسلطة تدل على ذكائه ونيته المسبقة فى الوصول إليها عن طريق الخبث والدهاء فارتكب جرائم عديدة منها اتهامه بقتل الملك المظفر قطز، إلا أن السيرة تسرد كل ما يجب أن يكون عليه البطل من الأخلاق الحسنة، والولاء للصالح أيوب، ومن ثم يتولى بيبرس السلطة من قبل القوى الكونية أو الحكومة الكونية، والمتمثلة فى الأولياء والصالح أيوب والعلماء المسلمين بعامة.

ومن ثم نعرض وصول بيبرس إلى السلطة بين التاريخ، والسيرة مروراً بقتله لقطز، وتبرئته فى السيرة:

عقب موقعة عين جالوت والذى أبلى فيها بيبرس بلاء حسناً فيها فأراد أن يأخذ من الملك المظفر ولاية حلب التى كان السلطان قد وعده فعلا بمنحها إياه (ولكن قطز امتنع وتنكر للجميل، وبذلك أظهر قصر نظر واضح، لأن المكانة التى أحرزها بيبرس فى ذلك الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها إنسان، ولو كان قطز حكيما لألهى بيبرس بنيابة حلب، وبذلك يأمن منافسيه له فى مصر. ومهما يكن من أمره، فقد أسر بيبرس فى نفسه وصمم على الانتقام فى أول فرصة مواتية ويقال إن بيبرس دبر المؤامرة مع زملائه من البحرية لقتل قطز، والخلاص منه، ولم تلبث أن واتتهم الفرصة عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية فى طريقهم إلى القاهرة إذ أظهر قطز رغبته فى الصيد، ولما فرغ السلطان من الصيد تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبى التتار فأجابه السلطان إلى طلبه، وأنعم عليه ما أراد، وكان تظاهر بيبرس برغبته فى تقبيل يد السلطان، وكانت إشارة بينه، وبين شركائه من الأمراء المتآمرين فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة فى حين انهال عليه بقية أمراء البحرية بسيوفهم، ورماحهم وألقوه عن فرسه حتى أجهزوا عليه. وبمقتل قطز خلا الجو للبحرية، وزعيمهم بيبرس فقد امتاز عصر المماليك بعدم احترام المبدأ الوراثى فى الحكم، فالسلطان نفسه ليس سوى أمير كبير استطاع أن يصل إلى منصب السلطة بفضل قوته، وسعة حيلته. وإذا كان بعض سلاطين المماليك قد نجحوا

فى توريث أبنائهم منصب السلطنة فإن هذا النجاح كان مؤقتا وغير شرعى فى نظر المماليك أنفسهم فلا يلبثون أن يعزلوا ذلك الإبن ليتولى أقوى الأمراء الحكم على أن الأمر الذى يستدعى الدهشة هو السهولة والبساطة اللتان تم بهما إحلال القاتل محل القتيل، إذا استدعى العسكر فى الحال ليحلفوا للسلطان الجديد قبل أن تجف دماء ضحيته)[٨٩].

أما سلطة بيبرس فى السيرة فجاءت من قبل الفنان الشعبي الذي رفض أن يكون البطل خائنا لوليه فقد جاءت السلطة لبيبرس عبر اهتمام الملك الصالح به وتفضيله على سائر المماليك وإعتاقه مرتين بحجة من علماء الإسلام ليخلصه من العبودية فقد لا يرضى عنه المصريون، وعلماء الإسلام لذلك جعله حرا (وإذا كان التاريخ والمؤرخون قد أهملوا دور المصريين فى صنع تاريخهم فقد أبى الفنان الشعبى إلا أن يبرز هنا الدور ويجعل للشعب المصرى الصدارة فى صياغة هذه الفترة من تاريخنا العريق، ولعل الراوى أراد أن يضفى على روايته المصداقية والجدية التى تتميز بها المؤلفات التاريخية التقليدية)[٩٠] .

ومن ثم فقد أولى الملك الصالح أيوب اهتماما لرأى المصريين ومن ناحية أخرى فقد كان يدعو الله (أن من يتولى حكم مصر قبل بيبرس يموت قتيلا) وفي السيرة أراد الراوى أن يجعل القتل أمرا مقدورا وينفى الزعامة لقطز لأن الذى يستحقها البطل بيبرس. فقد كتبت له حجتين شرعيتين تفيد ذلك من الملك الصالح، فقد طلب الصالح أيوب من العز بن عبد السلام أن يكتب وثيقة رسمية وشرعية ويوقع عليها الملك، والأكراد تفيد بأن بيبرس سيتولى ملك مصر والشام بعد وفاة الصالح أيوب، وتعطى الحجة لبيبرس، أما الحجة الثانية فهى تأكيد للحجة الأولى، وقد جاءت تكريما لمآثر بيبرس فقد أبلى بلاء حسنا فى محاربة الأعداء فأمر الملك الصالح أيوب بكتابة حجة ثانية تأكيداً للحجة الأولى[٩١] .

---

(٨٩)انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيرس – ص ٣٦.

(٩٠) قاسم عبده قاسم: بين التاريخ والفولكلور – ص ١٢٤.

(٩١) راجع ملحق السيرة : فقرة (٣٠).

أما الحجة الثانية فقد جاءت تقديراً لبطولات بيبرس ودفاعه عن المسلمين بعامة وعن الملك الصالح بخاصة. فقد ألب جوان أربعة ملوك ضد الصالح أيوب فهم بيبرس إليهم وأبلى بلاء حسنا فى محاربتهم وقتل عدداً كبيراً منهم فأمر الصالح أيوب قائلا : (أعطوا كل ما كان لبيبرس واكتبوا له حجة شرعية متممة لا يكون ملكاً بعد حياتى إلا هو)[٩٢].

ومن ثم تبرئ السيرة بيبرس من قتل قطز وتظهره بأنه قد فضل قطز على نفسه فى ملك مصر، وأنه لا يرضى بأن يكون سلطانا إلا بعد موت الملك المظفر قطز، ومن ثم يقتل قطز من قبل بطريق تابع لجوان اللعين ليحدث بذلك فتنة فى مصر، وذلك عندما وصل أولاد إسماعيل إلى مصر وسألوا بيبرس عن الحكم، فأخبرهم بأن الملك قطز المظفر قد حكم مصر والشام فغضبوا لذلك، إلا أنه راح يثنى على قطز وأفعاله، فلم يرض المقدم سليمان الجاموسى عن هذا القول فبدأ يدبر مكيدة لقتل قطز، فوشى لابنه "فهد" أن يقتل قطز، ولما ذهب فهد لتنفيذ ذلك، وجد قطز مقتولاً. فقد أوعز جوان لأحد البطارقة بقتل ملك مصر، وكان يقصد بذلك بيبرس، لذا أخطأ البطريق وقتل قطز، لكن القوى الخفية تظل عادلة تقتص من القاتل، فقد هب الولي ضائع الاسم ليقتل ذلك البطريق، وقد جعلت السيرة قطز وليّاً صوفياً يطلب من ضائع الاسم أن يثأر له من قاتله. فهذا النسق الوظيفى للحدث تضافرت فيه كل القوى لتبرئه بيبرس من قتل قطز عبر مجموعة عبارات سردية أفضت بالمنطق، والإقناع أن البطل خال من لخيانة، وصنع الدسائس فإذا كان بطلا فى خيال العامة قد أبطل كل الفتن والدسائس فكيف يمكن له أن يقتل ملكا مظفرا؟ فقد اتهم بقتله إلى أن جاء ضائع الاسم وكذب ما نسب إلى بيبرس حاكيا لحاشيته ما حدث[٩٣].

ومن ثم تنفى السيرة التهمة عن بيبرس بقتل قطز، ثم تذهب بعيدا عن المماليك، وثبتت التهمة على العدو الوحيد للإسلام جوان وأعوانه. ويتولى بيبرس السلطة إلا أنه لم يفلت من ضغائن أيبك الذى استقدم "توران شاه" ابن

---

(٩٢) السيرة: م ٢ – جـ١٣ – ص ٩٨١.

(٩٣) راجع ملحق السيرة : فقرة (٣١).

الملك الصالح ليتولى الحكم خلفا لأبيه، لكن عندما جاء توران شاه أتى بأفعال يرفضها معظم عامة الشعب المصرى، فكان منكباً على احتساء الخمر ودائم السكر، مما جعل بيبرس يؤدبه على أفعاله. وهنا تتفق السيرة مع التاريخ فى هذا الحدث الخاص بتوران شاه، ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن توران شاه كان إذا سكر فى الليل جمع ما بين يديه من الشموع وصفها أمامه ثم أخذ يضرب رؤوسها بالسيف حتى تنقطع واحدة بعد الأخرى، وهو يقول: (هكذا أفعل بالبحرية)[٩٤]، أي المماليك البحرية ولا شك فى أن هذا الوضع أثار مخاوف زعماء البحرية، فأوجسوا خيفة من غدر السلطان الجديد بهم، وبدأوا يفكرون فى التخلص منه قبل أن يتخلص هو منهم، لذا قتلوا توران شاه بإيعاز من شجرة الدر التى ضاقت بأفعال توران شاه، وأيضاً بعد ما أجزت له العطاء وصانت له حقه فى الملك عقب وفاة أبيه[٩٥]. أما شجرة الدر كانت تمثل لبيبرس الأم الثانية بعد السيدة حسنة الدمشقية، فعاملته معاملة حسنة، كما كان بيبرس يجل لها الاحترام، ويخاف عليها من أطماع أيبك، ولم تسرد السيرة شيئا على أنها تولت حكم مصر. بل جعلت السيرة محورها بيبرس، ومعاملته لشجر الدر، فكان دورها فى السيرة بسيطاً فقد صورتها إنسانة بسيطة طيبة تحب زوجها، وتبنت بيبرس لقربه من الملك الصالح.

بيبرس الزوج والأب:

جاء زواج بيبرس بقدر عند قيامه بمحاربة أعداء الإسلام على حد تعبير السيرة، فقد وفق الراوى زواج بيبرس من أعجمية مثله، كما جعل لأباه "خوارزم شاه" دخلاً فى هذا الشأن. فزوجة بيبرس هى "تاج بخت بنت القان قلاوون" الذى هرب بها أبوها إلى خوارزم خوفاً من بطش "القان بركان خان" الذى أراد الزواج منها عنوة، وعندما وصل إلى الملك "شاه جمك"، واستجار به وطلب حمايته، فأجاره خوارزم شاه، وعندما وقع بصره على الأميرة تاج

---

(٩٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة – جـ٦ – ص ٣٧١.

(٩٥) سعيد عبد الفتاح عاشور: الظاهر بيبرس ص ٢٣.

بخت، طلب من أبيها أن تكون زوجة لابنه بيبرس الذى يسكن مصر، فأسرع أبوها إلى مصر لعله يرد ذلك المعروف للملك خوارزم شاه. فلما رأى بيبرس تاج بخت أعجب بجمالها، وقد عرف من أبيها أنها تحفظ القرآن الكريم فتزوجها، وقد أنجبت منه السعيد[٩٦] الذى يُعنى برعاية كبيرة من والده السلطان بيبرس، فقد كان يعده لخلافته وتوليه على مصر، والشام وذلك عندما يبلغ من الكبر عتياً. لذا كان يرده إلى صوابه إذا أخطأ فى مرحلة شبابه، فذات مرة رأى بيبرس ابنه ثملاً مع بعض النساء فاشتاط غضباً، وراح يؤدبه، ويضربه ضرباً مبرحاً حتى سمعت تاج بخت ابنها يبكى فأنقذته من أبيه، إلا أن الابن بات يفكر فى الهرب احتجاجا على عقاب أبيه.

ويجد الراوى فرصة سانحة لهذا الحدث البسيط لإدخال بنية أسطورية فى الحكى، ففى الترحال، والهروب، والاغتراب عادة ما تلعب العجائب بشتى صورها فى بنية الحدث، فقد هرب السعيد إلى بلاد النصارى، وراح يرعى الخنازير. فأرسل بيبرس إبراهيم الحورانى للبحث عن السعيد، وقد أمره بقتل السعيد وعندما وجده إبراهيم قطع رأسه فغضب السلطان لذلك لأنه كان يقصد بكلمة قتل أي عقاب. لكن إبراهيم الحورانى قد أخذ السعيد إلى مقام السيدة نفسية ورد رأس السعيد على جسده فدهش السلطان، ثم شرع السلطان فى تعليم ابنه السعيد القرآن وعلومه حتى يتربى تربية إسلامية[٩٧].

وحاول بيبرس أن يرسخ دعائم شخصية السعيد عند المماليك حتى إذا انفرط عقد بيبرس نرى السعيد يأخذ مكانه فى سلم الملك برضاء من الشعب المصرى والعلماء والمماليك، ذلك المثلث الذى يشكل الحكم، والحاكم، والشعب. كما لعب بيبرس دور الزوج المثالي فلا يرضى بغير تاج بخت بديلا، فيختلف بذلك عن الأبطال المصاحبين له الذين تزوجوا بأكثر من زوجة فقد يبرهن القاص الشعبى على أن البطل لا يتزوج بأخرى، فذات مرة اختطف السلطان بيبرس من قبل قلاوون بواسطة عون من الجان وعندما مال به الجان

(٩٦) راجع ملحق السيرة : فقرة (٣٢).

(٩٧) راجع ملحق السيرة : فقرة (٣٣).

إلى مدينة الملكة تيجان الساحرة نظرت إليه وقد أعجبت به وأحبته، فأمرت جنودها بأن يقتلوا "قلاوون" حتى تستأثر بيبرس زوجاً وحبيباً. ثم عرضت عليه أن يكون زوجا لها. لكن بيبرس أبى ذلك، لأنه قد أقسم ألا يتزوج على تاج بخت. وهنا نستشرق نسق البطل فليس كعادة أبطاله المساعدين أو كعرنوص بن معروف الذى له فى كل مدينة زوجة، وإنما يمثل كيانا اجتماعيا بذاته له وظيفته وله دوره فهو ملتزم بما يؤمن به، ومقتنع بما يفعله. فبالرغم وجوده عند ملكة السحر، إلا أنه ثابت على ما عهد إليه فهو المسئول وهو البطل[٩٨].

[٩٨] راجع ملحق السيرة : فقرة (٣٤).

الفصل الثانى

الأسطورة والزمان

- الحلم (النبوءة)
- الدعوة الزمانية
- تخت الرمل
- الكهان
- السحر

فصل الأسطورة والزمان

إن الصورة البنيوية فى السيرة الشعبية تتجلى بشكل واضح خاصة فى الدعوة الزمانية التى توجت بنسيج واحد يظهر من خلاله سمة عامة فى ترابط بنية السيرة. فتمثل النبوءة نسقا خاصا فى السيرة حيث تلعب دورا مهما فى حياة البطل، فتخبر عن أحداث تكون قدره فى المستقبل قبل وقوعه فلا توجد سيرة إلا ولعبت النبوءة دورا عظيم الأثر فيها، فارتبطت بالزمان والمكان فقد تكون (خبرا يريح صاحبها ويمنحه اليقين ويزيل الخوف عنه أو تحميه من نفسه، وقد تكون يقينا للجماعة بدور بطلهم المقدر عليه، وقد تكون رسالة إلى عدو البطل فيحاول أن يحتاط للأمر، ويحاول أن يوقفها فتكون محاولته تحقيقا لها كما يكون لها أيضا أثر في إخراج البطل من حيز الإنسان العادي إلى حيز الإنسان الأسطوري أي من الواقع إلى الأسطوري، وفيها يداخل دائرة الكون الكبير ليصبح مرتبطا به ارتباطاً وثيقا)[٩٩].

ويمكن التعرف عليها من خلال الحلم أو الرؤيا، ورصد النجوم، وقراءتها وقراءة الطالع بضرب تخت الرمل، والأنباء التى توجد فى الكتب القديمة لأحد الحكماء مثل كتاب الحكيم (يونان) فى سيرة الظاهر بيبرس، ويثرب الحكيم فى سيرة حمزة البهلوان وبما أنها مرتبطة بالزمان (فليس كل وقت أو مكان صالحا للرؤية الصادقة، كما أن الزمان مرتبط ارتباطاً كبيراً بقراءة النجوم ومواعيد ظهورها، وعلاقتها بالنجوم الأخرى، ويلعب الزمان، والمكان دورا مهما فى

---

[٩٩] أحمد شمس الدين الحجاجى: مولد البطل فى السيرة الشعبية، القاهرة ، ط دار الهلال، ص ٤٨ ، ٤٩ سنة ١٩٩٥.

استجابة الدعوة، فإذا دعيت الدعوة فى الأماكن المقدسة فى الزمان المقدس فإن فرصتها كبيرة فى التحقيق)(١٠٠).

لذا فقد شكلت النبوءة نسقا عاما فى بنية السيرة الزمانية (وإن كل الأحداث، والأفعال إن اختلفت أزمنتها التاريخية المؤطرة تؤوب فى النهاية إلى رؤية واحدة التى من خلالها تتحقق معاينة الأحداث المختلفة فى الزمان)(١٠١)

فلا فرق إذاً بين سيرة سيف بن ذى يزن فى الجاهلية، والظاهر بيبرس فى المماليك، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة (فالزمن الأسطورى يمحو عن الأشياء صفتها التاريخية ليجعل منها موجودات طبيعية لا تاريخ وراءها، فيتقلص ما فيها من بعد إنسانى ويموت مفهومها السياسى، وتظهر الأحداث بكل بساطة خالية من الغموض وتقضى على كل الأنواع وتصوغ منها عالما لا تناقض فيه لأنه لا عمق له، وهو عالم لم يكتنفه اليقين)(١٠٢).

فظهرت كل السير الشعبية بشكل بسيط يختلف عن الواقع التاريخى للأبطال. حيث إن الزمن يشكل جانبا أساسيا في سردها، فكانت النبوءة أهم عناصر بنيتها، وقد صاحبت ميلاد البطل (فتدخله إلى عالم الخير والحق وبهذا يتحدد الاتجاه الذى يسير فيه مستقبل البطل لتدخله أيضا إلى عالم القداسة فى الوقت الذى كتب على البطل أن يسير فيه)، ونبوءة الميلاد لا تتوقف عند النبوءة بالبطل الخير، وإنما تتعداه لتتنبأ بالشخص المواجه للبطل، والبطل لا يواجه نوعاً واحداً من الرجال، وإنما يواجه نوعين من الرجال الأول وهو البطل المعادى، والثاني هو البطل المضاد، فالبطل المعادى ليس بالضرورة متناقضاً فى سلوكه مع البطل إذ ربما قد يكون بطلاً مثيراً للإعجاب يملك كل مقومات البطولة، وله من المعجبين من جمهور المستمعين عدد لا يقل عن عدد المعجبين بالبطل. أما البطل المضاد فيمكن أن ينقسم إلى نوع محارب، ونوع لا

(١٠٠) المرجع نفسه: ص ٥.

(١٠١) سعيد يقطين: قال الراوى البنيات الحكائية فى السيرة الشعبية.

(١٠٢) عبد الصمد زيدان: مفهوم الزمن ودلالته، تونس، ط ـ الدار العربية للكتاب ـ ص١٦.

يحارب وهو الذى يدخل دائرة شخصية المحتال، وهو هنا المحتال العدو، وليس المحتال الصديق)[١٠٣].

الحلم (النبوءة)

وقد صاحبت النبوءة ميلاد البطل فى جميع السير الشعبية. أما سيرة الظاهر بيبرس فقد كانت نبوءته لحظة مرضه بعد ما ظهر شاباً يافعاً مملوكاً، وكان جالساً عند محمود المسارع فى الشام فجاءت (النبوءة لتنقذه من عذاب أليم وتدخله مرحلة الاعتراف به بطلا فكانت بذلك ممثلة لميلاد جديد لابن الملك المريض)[١٠٤].

وقد مثل الحلم الذى رآه الملك الصالح مرحلة جديدة فى حياة الظاهر بيبرس، فقد رده إلى حياة الملوك والسلاطين التى فقدها عندما اختطف من أبيه حوارزم شاه، فقد رأى الصالح أيوب رؤية كانت سببا فى استقدام خمسة وسبعين مملوكا على رأسهم بيبرس بطل حلمه، فقد رأى الصالح أنه فى قفر متسع الجهات وقد امتلأ بالضباع من كل حدب وصوب، فوجد نفسه وحيدا مرتعدا من شدة الخوف، وبينما هو كذلك إذا بغبار قد ثار وانكشف وخرج منه خمسة وسبعون أسدا يتقدمهم أسد عالي الصدر والمحجر فدار على الضباع حتى افترسهم[١٠٥] .

فقص الملك الصالح على العلماء رؤياه. وقد فسروا الضباع بأنهم أهل الكفر، أما السباع هي جنود سينتصر بهم الإسلام والسبع الذى تقدمهم هو كبيرهم وبه تعلو دولة الإسلام.

وما كان للحلم أن يتحقق إلا من خلال زمن مقدس تم فيه ليأخذ مرحلته فى التحقيق لذا لم يفسر العلماء رؤيا الملك الصالح إلا عندما سألهم، وأن هذه

---

(١٠٣) أحمد شمس الدين الحجاجى: المرجع نفسه ص ٥٦.
(١٠٤) أحمد شمس الدين الحجاجى: النبوءة جـ٢٥.
(١٠٥) انظر ملحق السيرة : فقرة (٣٥).

الرؤية صادقة لأن تلك الليلة هى الليلة لأول الشهر العربى الذى يظهر فيها القمر جليا وضحا. وقد أشار العلماء على الصالح أيوب أن يسرع بشراء خمسة وسبعين مملوكا، وأن يبحث عن ذلك المملوك صاحب تلك الصفات التى وصفها الصالح أيوب لعلى بن الوراقة مجددا عن المملوك، وهو أن يكون فهيما فطينا يحفظ القرآن ويكون وجهه حسن وإذا غضب يكون فى وجهه جدريات تملكه من الطارقة اليمنى إلى الطارقة اليسرى، ويكون بين عينيه شعرة أسد، وبين حاجبيه سبع من اللحم، هذا عند الغضب، وإذا راق لم يكن لذلك أثر ولم يبق بعد كل هذه الصفات للمملوك سوى اسمه فلم ينسى أن يذكره فاسمه محمود[١٠٦].

كما وظف الحلم تجاه الأبطال الذين اتخذهم بيبرس إخوة له، فما كان لأيدمر المملوكى أن يصاحب بيبرس إلا بحلم رأى فيه الصالح أيوب يأمره بمصادقة بيبرس، ومساعدته فى محنته كذلك رأى بيبرس نفس الحلم فى زمن رؤية أيدمر[١٠٧]، وعندما استيقظا من نومهما تعاهدا على أن تجمعهما الطاعة وتفرقهما المعصية. أما العهد الثانى الذى لعب فيه الحلم دورا رئيسيا فى كسب أنصار أقوياء تعاهدوا عهد الإخاء أن يكونوا من أهم جنده، وعلامة من علامات بطولته ألا وهم الفداوية أولاد إسماعيل نسل علي بن أبى طالب، والتى تصفهم السيرة بأنهم الذرية الأطايب الذين أقاموا فى الجبال لأخذ الغفر من التجار، وعند مرور علي بن الوراقة طلبوا منه الجعالة القديمة التى كان يدفعها والجديدة ثمنا لمروره[١٠٨]، وعندما تنفس الصبح إذا بهم ينادون على علي بن الوراقة يؤمنوه على نفسه ومن معه[١٠٩]، فلما استيقظوا من نومهم أدركوا أنهم قد اشتركوا فى رؤية واحدة فذهبوا إلى علي بن الوراقة ليشاهدوا محمود فأمنوه على نفسه، وعاهده علي أن يكونوا له إخواناً. فقد أخذتهم سنة من النوم فرأوا جميعا الملك الصالح يكيل لهم التهديد والوعيد إذا لم يتركوا عليا، الذى حمل رسالته وأماناته ثم يخبرهم أيضاً بأن الغلام الذى فى حوزة على هو محمود

(١٠٦) انظر ملحق السيرة : فقرة (٣٦).
(١٠٧) انظر ملحق السيرة : فقرة (٣٧).
(١٠٨) أحمد شمس الدين الحجاجى، النبوءة – ص ٢٣.
(١٠٩) انظر ملحق السيرة : فقرة (٣٨).

الأعجمى الذي سيصير ملكاً على مصر، والشام، ويأمرهم بإكرامه، وحسن معاملته، وأن يعهدوا عهد الإخاء معه، وأن يكونوا له إخواناً.

ثم يتدرج الحلم من الصالح أيوب بنبوءة الظاهر بيبرس إلى عامة الناس مثل حلم (غزية الحبلى) أم عثمان السايس الذى اتخذه الظاهر بيبرس أخاً، وصديقاً، فعندما هرب عثمان من بيبرس ذهب الظاهر ليسأل عنه فتلقى نبوءة له من (غزية الحبلى)، فقد رأت فى منامها السيدة نفيسة تخبرها بسعادة ولدها إذا اقترن بمحمود العجمى (الظاهر بيبرس) الذى سيصير ملكاً على مصر، وقد أخبرت غزية الحبلى بيبرس بذلك أنها رأته فى يد السيدة نفيسة اليمنى، عثمان ابنها فى يدها اليسرى وقد نظرت السيدة نفيسة إلى عزبة الحبلى وأخبرتها بأن الرجل الذى فى يدها اليمنى هو بيبرس الذى سيكون ملكاً على مصر، والشام، وأن عثمان ابنها سيسعد معه ومن أجل ذلك إذا أتى إليها بيبرس يطلب عثمان، فلا ترده، بل تكرمه غاية الإكرام فإن لبيبرس كلمة تسمع، وحرمة ترفع، فهو صاحب العز والوقار والمجد والافتخار، وسينصر دين النبى المختار، ويهلك جيوش الكفار، ثم قالت لبيبرس: ما إن انتهيت من الحلم حتى وجدتك أمامى[١١٠].

وإذا كانت هذه رؤيا من سيدة عادية فقد تنامى الحلم، وارتبط بمكان مقدس ليأخذ معنى الحلم السابق، ويؤول إلى التأكيد عبر النصوص السردية، ويكتمل مع نسق الحلم الوظيفي ودور القوى الروحية في النبوءة لترسيخ عنصر التصديق بها.

ويلعب الحلم بالقوى الروحية المتمثل فى رؤية البطل، وما يعاونه كبطل مساعد للسيدة نفيسة، فعندما هم بيبرس بالبحث عن عثمان الذى لاذ بالفرار إلى مقام السيدة نفيسة، وتبعه فيدخل بيبرس إلى نفس المقام ليصلي دون أن يعلم بأن عثمان مختبئ فيه. وبعد أن انتهى من صلاته خلد إلى الراحة فى المسجد بعض الوقت لكنه نام برهة من الوقت كما نام أيضا عثمان ثم يرى الاثنان معا فى وقت واحد رؤيا واحدة وقد ظهرت فيه السيدة نفسية تحدث كل منهما أن يكون

---

[١١٠] انظر ملحق السيرة : فقرة (٣٩).

أخا للآخر، وأن يتحدا ثم أمرت عثمان أن يكون مطيعا وتابعا لبيبرس وقبل أن تنصرف أكدت لهما أنها تظل ناظرة إليهما طول حياتهما ومراقبة على أفعالهما. وتكون شاهدة على الباغى والخائن، والظالم. وعندما استيقظا من نومهما ظهر عثمان لبيبرس فى المسجد وبكى كلا منهما، ثم تحالفا وتعاهدا على الإخاء. ومن خلال نسق هذا الحلم للقوى الروحية التى لعبت دوراً كبيرا فى النبوءة وتأكيدها يظهر من نسق الحلم الذى لم يعتمد على الأخبار بالنبوءة فقط بل يدعم هذا باختيار الصاحب، أو العضد الذى يركن إليه البطل، فيكون عونه، ومساعده وكأن الدور الوظيفي الذي جسد البطل هو الحماية له بمعناها المطلق، فهو محفوف بالعناية الإلهية، والقوي الروحية، والجماعة الشعبية ذلك المثلث الذي يدور البطل في فلكه يتأكد له في الواقع، وفي الحلم.فمن خلال الجماعة الشعبية من أكد النبوءة من خلال القوي الروحية فعندما ذهب بيبرس ليسكن في بيت بن باديس جاء رجل خبير بأعمال الهندسة، وقد بنى البيت في حياته ليخبر بيبرس أنه رأى السيدة نفيسة في منامه تأمره أن يعلم بيبرس بكل ما في البيت من أسرار فبيبرس هو الذي سيحكم مصر في المستقبل القريب[١١١] .

وقد يجتمع قضبان من المثلث النفسي للحلم في رؤية واحدة، وهما القوى الروحية، بالجماعة الشعبية، فالقوى الروحية تمثلت في الأولياء وأقطاب التصوف، والجماعة الشعبية تمثلت في السيدة حسنة الدمشقية التي رأت النبوءة لبيبرس، وهي يقظة، وبيبرس عندئذ في المنام حيث اجتمع الأولياء عند رأسه وهو مريض ومنهم السيد البدوي، والرفاعي، وأبو الفرج، وصاحت الوقت، رغم تباعد أزمنة وجودهم إلا أنهم اجتمعوا في زمن واحد ليقوموا بدور وهدف واحد فالبدوي والرفاعي، وصاحب الوقت على اختلاف مناصبهم، ومداركهم الصوفية كان لهم مجلس واحد أما سلطانهم الذي كان ينادونه في المجلس فهو أبو الفرج[١١٢] .

(وما كان أبو الفرج هذا سوى الملك الصالح فهو السلطان الذى كانوا يسألون عنه ويبدو من الطريقة التى كان الأقطاب يكلمونه بها أنه كان قطب

---

[١١١] انظر ملحق السيرة : فقرة (٤٠).

[١١٢] انظر ملحق السيرة : فقرة (٤١).

الأقطاب فقد كان الملك الصالح سلطانا فى عالم الواقع كما كان سلطانا فى عالم الباطن سلطان الحقيقة والشريعة قد أمر الرجال بالكلام فتكلم الأقطاب بالنبوءة الخاصة ببيبرس)(١١٣).

وقال الأول: (يا سلطان الرجال، وبطل الأعيان هذا ملك الزمان، وفارس العصر والأوان، وهو الذى ينصر الإسلام، ويقيم الأحكام، ويذل جيوش اللئام. وقال الثانى: وقد تنبأ بأن بيبرس سيفتح السواحل والبلاد وتطبعه أهل السواد وينصره النبى الهادى أما الثالث فقد ذكر أنه ثبت فى علم الله أن كل شئ بقضاء الله وطلب من الجميع أن يدعوا له ولم ينفض المجلس فقد استمر الأقطاب يعبرون عن أحاسيسهم تجاه بيبرس – ثم قرأو الفاتحة- وطلب السلطان الكشك عند رأس الغلام فأخذوه وعده هدية عظيمة ثم دعا لكل من يأكل منه بالشفاء ثم دعا ربه أن يشفى كل من أكل منه ولعق لعقة من الكشك ثم طلب من النقيب أن يضع الطعام مكانه ثم نفض السلطان المنديل كما يصنع فى مجلس ملكه)(١١٤).

(أما مصير أداة الحلم، وهو الطعام فكان عطاء كونياً دعا له أقطاب التصوف، فعندما استيقظ محمود وجد الكشك فأكل منه ونام ولما كانت السيدة حسنة المشاهدة الوحيدة على هذا العطاء الكونى الذى أعطيه محمود فأخذت تقدم له الكشك بيديها وتطعم به الضعفاء ليمحى عنهم السقم والأنين وليبدأ الطريق لتحقيق النبوءة التى أبلغها فى رؤياه)(١١٥).

كما كان للحلم دور الربط بين السير بعضها البعض فقد امتد ليصل بسيره سيف بن زي يزن ليؤطر بشرعية السير فكلها امتداد للآخر وقد لعب الحلم هذا الدور دون سواه فيتعرض هذا النسق إلى مريم الزنارية مقاربة بينها وبين حسنة الدمشقية التي شاهدت نبوءة بيبرس، فقد تلقت مريم نبوءة لها بنفسها، وكان بيبرس بصفته بطلا حاملا للنبوءة أن يكون أحد محتوى الحدث السردي فمريم الزنارية ابنة ملك جنوا "الرين حنا" وقد تلقت نبوءة عن مستقبلها

---

(١١٣) أحمد شمس الدين الحجاجى، النبوءة ص٣١ – ٣٢.
(١١٤) السيرة – م١ – جـ١ – ص ١٠٣.
(١١٥) أحمد شمس الدين الحجاجى: النبوءة ص ٣٠ – ٣١.

ومستقبل ابنها عرنوس الذى تنجبه من معروف ابن حجر الذى كلفه السلطان بحمايتها عندما كتب إليه الرين حنا أن يغفر مريم إلى أن تذهب إلى الغمامة المقدسة، لذلك أوفد السلطان الصالح أيوب معروف بن حجر بن أسد، وأخذ بيبرس معه عثمان الحبلى ليصحبه فى رحلته إلى معروف وبعد أن التقى بيبرس بمعروف عاهده أن يكون أخاه فى عهد الله تعالى، وعلى ما يرضى الله، ورسوله، وأعطاه بيبرس خطاب الملك الصالح فوضعه على رأسه بعد أن قبله وأقسم أن يذهب بنفسه ليغفر الفتاة، وألا يأخذ أجرا على ذلك ـ ذهب معروف مع رجاله إلى يافا ليستقبل الفتاة، وأقام ينتظر وصولها خمسة أيام وفى اليوم السادس أقبلت مريم الزنارية بنت الرين حنا فى غليون، وفى صحبتها مائة بطريق ـ فذهب معروف إليها وعندما رآه البطارقة بهتوا فقد كان كالقمر الزاهر بين الكواكب.

وفى ضحى اليوم التالى أمر معروف بالارتحال وعندما وصلوا الغمامة دخلت مريم ووقف معروف على بابها ثم انصرف إلى المسجد يريد الصلاة حتى تنتهى مريم من زيارتها وفى المسجد وجد الشيخ النووى ليستمع إليه.

وكانت مريم وقتئذ تقص لأحد الرهبان حلما فلم يفسر لها إياه مما جعلها تهرب منه ودخلت المسجد لتقص على الشيخ النووى ما رأته حتى يفسره لها، فقد قالت: "وجدت نفسى فى واد أحقر أفقر ما فيه من الماء ولا قطرة فعطشت فضاقت نفسى من شدة العطش فسرت فرأيت بحراً أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل وأنا فى شدة الظمأ، وتيقنت أن روحى عادت، ثم بصقت من فمي بجانب ذلك النهر فخرجت من فمى ذبابة سوداء قدر النحلة، وسقطت إلى التراب، والتهبت بالنار، وأنا أنظر بعينى، ثم أقبلت نحوى ذبابة بيضاء، فدخلت فى فمى فابتلعتها، وقد استقرت فى جوفى، ولم تفزع نفسى منها، وازداد حبى فيها، ثم تأملت ذلك البحر فرأيت مركبا فنزلت فيها، وعبرت إلى الشاطئ الثانى، وطلعت من المركب فرأيت نفسى فى واد واسع ذى أطيار، وأنهار كثيرة، فأتيت تحت شجرة عالية ونمت تحتها، وإذا بالهوى قد هب على فارتفع ذيلى ونزل على طير من أعلى تلك الشجرة فنقرنى بمنقاره في فرجي، فكبرت بطني وخرج منها طير أبيض صغير ففرحت به، وأردت أن ألعب به، وإذا

بطير أسود قد انقض علي، وأخذه منى، وطار به فى الهواء حتى غاب عن عيني، وظللت أبكى وأنوح عليه حتى إني انتبهت من منامى، ولذيذ أحلامى"[١١٦].

وراح الشيخ النووي يفسر لها الرؤية فأخبرها بأنها سوف تسلم وتتزوج بطلا مسلما فأما الوادي المجدب فهو دين الكفر، وأما الوادي الأخضر هو دين الإسلام، وكذلك الحال للذبابة السوداء والبيضاء، أما الطير هو رجل عالي الشأن والقدر سوف يتزوجها تنجب منه ولدا سيتربى بعيدا عنها، فيقر عينها لتفسير الشيخ النووي، ويختار معروف بن حجر زوجا لها ويزوجها الشيخ النووي في الحال ثم يعيشان معا إلى ان تنجب "عرنوص" الذي يلعب دورا عظيما في سيرة الظاهر بيبرس والذي اختطف من أمه وتربى في ديار النصارى، وكان له سجل طويل مع الحروب مع الظاهر بيبرس[١١٧].

وقد تعدت الأدوار الوظيفية للحلم حتى شكلت نسقاً خاصاً للرؤية فلم تقتصر النبوءة بالحلم على الصالح أيوب، والسيدة حسنة الدمشقية أو النبوءة التى تلقاها بيبرس بنفسه وتميز بها عن باقى أبطال السيرة الشعبية الأخرى بل قام الحلم بأدوار أخرى مساعدة لتأكيد النبوءة ليحدث توازنا فى الأحداث ومن هذه الأدوار مساندة الصالح فى حياته وفى مماته لبيبرس عن طريق الأحلام ليصلح نظام الحكم ويؤهل بيبرس إلى البطولة الحقيقية. وتظهر أدوار أخرى للحلم لتأكيد البطولة فيكتشف بيبرس من خلالها مكائد الأعداء وحيلهم ضد الإسلام. إلا أن تقوم بدور وظيفى ضد من يقوم بصنعها فيحلمون بقوى كونية ترغمهم على الإسلام أو تحبيبهم فيه وربما تكون هذه شخصية من آل البيت متمثلة فى السيدة نفيسة والأولياء مثل عبد الله المغاورى الصالح أيوب، والخضر بل ويمتد الحلم أيضا إلى ما بعد بيبرس إلى عصر قلاوون الذى يعد آخر حلم فى السيرة بعد أن لعب الحلم دورا نهائيا ثنائيا هو الحلم بالموت وتلقى الأبطال نبوءتهم بنهاية أدوارهم وموتهم.

---

(١١٦) السيرة – م١ – جـ٢ – ص ٨١.

(١١٧) انظر ملحق السيرة : فقرة (٤٢).

أنساق الحلم :

يمكن لنا أن نعرض أنساق الحلم المختلفة بادئين بحلم المساندة من الصالح أيوب لبيبرس، ففى مبارزة مقصودة من الصالح أيوب لبيبرس ليعلمه بأمر كان عليه خفيا. وما كان هذا الأمر إلا ابتلاء لقدرة بيبرس على التحمل من ناحية، وعرض لقدرات الصالح أيوب ولى الله المجذوب من ناحية، حتى لا تسول لبيبرس نفسه أن يصعد إلى الحكم بسرعة ويستهين بقدرات الصالح أيوب، لذا أراد الصالح أيوب أن يبارزه، لكن بيبرس يرفض في أول الأمر حتى ألح عليه فنازله وما زالا في طعان حتى غاب بيبرس عن الوعي، ونام في سبات عميق ليري حلما، يراه الملك الصالح في اليقظة فقد قام الحلم بنسق التوجيه للفعل، فلم يكن يحمل نبوءة أو خبر وإنما حمل دلالة تعليمية للمؤهل للقيادة، فقد رأى بيبرس أنه في وادٍ مجدب ليس فيه قطرة ماء وقد أصابه العطش من شدة الحر، فكلما مشى زاد عليه التعب، وظل يستغيث فلا يغاث، وإذا طلع عيه أسد وهجم عليه، وأراد بيبرس أن يقتله فلم يجد معه سلاحا، وإذا بالوادي قد امتلأ بالماء وتضاربت فيه الأمواج، فصعد بيبرس إلى جبل يعصمه من الماء وإذا بنار قد اشتعلت في الجهة اليسرى من الجبل، وهجم عليه الأسد من الجهة اليمنى، فظل يضرب الأسد حتى أعيته المحاولة، فلم يجد بدا إلا الدعاء عندئذ استيقظ من نومه، فيجد الملك الصالح يقص عليه ما رآه[١١٨].

فطلب بيبرس السماح من الصالح أيوب، وتيقن بيبرس أن الصالح أيوب هو ولى الله المجذوب فله كرامات، وله دعوة مستجابة وله أمر يطاع في حياته ومماته فعندما توفى الملك الصالح لم تنقطع رؤيته في المنام سواء لبيبرس، أو لشجرة الدر التي كانت تعاني كثيرا من مضايقة أيبك لها فكان الملك الصالح يأتيها في المنام، ويأمرها بالزواج من أيبك، وعندما تزوجته أحست بأطماع أيبك المتزايدة، فجاءها الملك الصالح في رؤية يأمرها بقتل أيبك فكان سلطانا ووليا غائبا حاضرا وهو سلطة كونية غير منتهية[١١٩].

---

[١١٨] انظر ملحق السيرة : فقرة (٤٣).

[١١٩] انظر ملحق السيرة : فقرة (٤٤).

وعندما يتدرج بيبرس فى مقاليد الحكم، نرى الصالح لا يظهر في الحلم إلا لمناسبة عصيبة، وقد درب بيبرس من خلال الرؤية على مواجهة العدو الذي ظهر في شكل أسد في الحلم ولم يجد إلا الدعاء فماذا يفعل إذا رأى جمع من الأسود والخنازير؟ وأربعة سباع قد قتلوا في محاربتهم مع الأسود والخنازير ومن ثم قد ركز الحلم في نسقه على المساند أو المساعد أو الموجه للفعل فإذا غاب الصالح أيوب ربى الصالح أيوب على هدف الحلم وتأويله، فبعد وفاة الصالح لم يفقد بيبرس تلك القوى الكونية التي تعود عليها من خلال الرؤية وأصبحت سمة أساسية في مقاليد حكمه بما تحمل في بنيتها الأسطورية من دلائل، ومعان كثيرة فيجد من العلماء ما يفسر له الأحلام، ويلعب دور عظيما في توجيه بيبرس، كما لعب الشيخ النووي دورا مهما في تفسير حلم مريم الزنارية وتوجيه فعلها كما لعب شيخه أيضا في نفس الدور فهو الذي اطلع على كتاب اليونان وعرف منه بعضا من القدر، والمصير لبعض الشخصيات، فإذا قص بيبرس عليه رؤية أفاده ووجه فعله، ومن ثم راح بيبرس يحكي له رؤيته السابقة التي امتلأت بالخنازير، والسباع، والضباع، ففسرها له شيخه بأن الخنازير ما هي إلا جنود الكفار الذي ذهب لجنود المسلمين لمحاربتهم، وأما السباع الأربع فهم مسلمون قد قتلوا في المعارك وقد أشار شيخه على بيبرس بألا يرسل جنودا أخرى لتلك البلاد لمدة سبعة شهور، وسبعة أيام، وربما يستجير بيبرس بقوى روحية غائبة حاضرة مثل السيدة نفيسة، ليقص أمام مقامها حكما يؤرقه، ولم يجد له تأويلا فينام بالمقام حتى تأتيه في رؤياه وتوجه فعله ضد العدو الذي رآه في شكل ثعبان فتطلب من بيبرس أن يذهب إلى غلام يعمل خياطا اسمه بيبرس ثم يطلب منه ملابس جديدة فيقوم الغلام بارتدائها ليجربها على نفسه أولا قبل أن تأخذها فأجعله في مجلس الديوان حتى إذا ظهر ظن أنه السلطان[١٢٠].

وقد تخفى العدو بين الحاضرين في الديوان، فيقتل العدو ذلك الغلام، وكل شيء مقدر وما أن استيقظ بيبرس من نومه حتى ذهب لينفذ ما أمر به أن يفعل

(١٢٠) انظر ملحق السيرة : فقرة (٤٥).

حتى إذا طلب وجد الغلام، وألبسه، ودخل الديوان، وانقض عليه سيرون الراهب، وقتله لأنه ظن أن صاحب هذه الهيئة ما هو إلا السلطان بيبرس، فكل حلم أو رؤية يمثل نسقا خاصا في الدور والوظيفة فيشكل مثلثا أضلاعه القوى الروحية والبطل والحيلة أو العدو، فالقوى الروحية هي الموجه للفعل أما البطل فهو المنقذ للفعل ويتحدان معا ضد الضلع الثالث وهو العدو، وربما يظهر النسق الوظيفي للحلم بطريقة أخرى فقد يكون الحلم لرجل من العامة يرى الصالح منامه ويأمره بأن يحمي بيبرس فتكون القوى الروحية بذلك قد أثرت في توجيه أفعالها للعامة حتى يترسخ لديهم حماية بطلهم، فقد أتى الصالح أيوب لرجل يدعى محمد الجميل، وأهداه لوحاً مرصوداً لونه أصفر ليقتل به ذلك الكاهن الذي أتى ليقتل سلطان المسلمين بيبرس[١٢١] . وعندما أتى الكهين قبض عليه محمد جميل وسلمه إلى السلطان السعيد بن السلطان بيبرس الذى هم بقتله[١٢٢] .

وقد يكون الحلم نبوءة للموت مثلما كان نبوءة للبطولة فيكون نسقه عبارة عن المنبئ، والممهد له بالبطولة هو ذاته الذي يتنبأ له بالموت المتمثل في الصالح أيوب ويكون بيبرس في هذه الحالة المستقبل دون وساطة لهذه النبوءة، فقد جاءه الصالح أيوب في منامه، وليزيد أحلامه وأمره أن يبني بيبرس لنفسه بيتا في دار العقيق في الشام وهو نفس المكان الذي دفن فيه الصالح ايوب، ولما استيقظ بيبرس من نومه علم أن أجله قد اقترب فشرع في بناء قبر له، وقد تأتي الإشارة بموت البطل رمزية من خلال الرؤيا ويكون مرسلها قوى روحية متمثلة في ولى مثل السيد أحمد البدوي الذي جاء إلى بيبرس وقد أرشده إلى شجرة نبق ليأكل منها فإذا فرغ بيبرس من أكل الثمرات، ووصل إلى آخر ثمره عرف أن شجرة حياته المليئة بالصراعات قد حان قطفها وأن نجمه قد أفل، فإذا كانت القوى الخفية حاملة نبوءة الموت لبيبرس كبطل عام، فتتدرج المراتب والأدوار في وظيفة أخرى، فيحمل بيبرس نبوءة موت أتباعه، وأبطاله

---

(١٢١) انظر ملحق السيرة : فقرة (٤٦).

(١٢٢) انظر ملحق السيرة : فقرة (٤٧).

المساعدين مثل أبى البطراني، شيخه، وعرنوص بن معروف، أما إذا جاء أجل قوى روحية مثل عبد الله المغاوري حمل نبوءته بنفسه باعتباره سلطة كبيرة فمن يحمل للولي نبوءته؟ وهو ذاته الذي يحمل نبوءات الأبطال، فقد رأى بيبرس رؤية لأبي بكر البطراني أنه في الإسكندرية، وقد أشار الولي عبد الله المغاوري أن يذهب ليودعه فيقوم بيبرس من نومه ويدرك أن أبا بكر قد مات، كما رأي بيبرس نبوءة لموت شيخه حيث وجد الناس قد تجمعوا حول الميدان الاخضر، ومعهم شيخه ملقى على الأرض فلما استيقظ وجد شيخه كما راه، فطلب شيخه منه أن يدفنه في الميدان الاخضر ويكتب على قبره جمال الدين العجمي، أما عرنوص فقد رآه بيبرس في بستان وله أجنحة وقد حاول الطيران فلم يستطع، وقد هم بيبرس بوضعه في قفص حتى لا يطير ويحميه من الطيور الجارحة التي كانت تحوم حوله وبينما بيبرس يفعل ذلك إذا بالطيور قد هجمت على عرنوص، وقطعته وبعد أن فرغ بيبرس من منامه أدرك أن نهاية عرنوص قد اقتربت لذا منع عرنوص من النزول إلى الحروب حتى أنه حبسه إلا ان عرنوص أصر على الجهاد فينزل السلطان بيبرس، ويذهب ليلقى مصيره، أما نبوءة عثمان الحلبي فقد حملها خليل بن قلاوون لأن عثمان قد توفى بعد السلطان بيبرس، لذا حمل نبوءته سلطان متمثل في الخليل بن قلاوون فرأى أن عثمان يستغيث به ويأمره أن يبني له مسجدا بجوار نجم الدين البندقداري لكي يدفن فيه حتى يكون بجوار صاحبه في الدنيا والآخرة، أما الولي عبد الله المغاوري فقد اصطحب بيبرس وشيحه بعد موت أبي بكر البطراني إلى الجزيرة الخضراء، وأخبرهما أنه لا يستقدم ساعة ولا يستأخر فقد حانت ساعته ثم اضطجع، ونطق بالشهادتين ثم صعدت روحه إلى ربها[١٢٣] .

(فنبوءة الموت قد لعبت دوراً مهماً فى السيرة، كما لعبت دورا مهما فى حياة بعض الشخصيات التاريخية البارزة التى نسج حولها القصص الشعبى من تلك الشخصيات بشخصية ذى القرنين التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، وقد

[١٢٣] انظر ملحق السيرة : فقرة (٤٨).

استغل القاص الشعبى شخصية الخضر فى حكاياته عن الظاهر بيبرس إذ كان الخضر لا يظهر إلا لأولياء الله الصالحين فقد ظهر دوما للظاهر بيبرس فى الحقيقة)[١٢٤] .

فكان الخضر يظهر علانية يحدث الظاهر ويحدث أبطاله المساعدين ويوجه أفعالهم فإذا علم أن بيبرس قد أصابه سوء هم بنفسه أو وجه بطلا مساعدا لحمايته من خلال الجهر أو في الحلم، فقد أتى لإبراهيم الحوراني في حلمه وأمره أن يهب لإنقاذ بيبرس[١٢٥] .

وقد يرى بيبرس نبوءة لأوضاع حكمه فى مصر فقد رأى الحصار الذى سيصيب البلاد وخاصة مصر دون إخبار من الولي لكن نسق حلمه يتدخل فى تفسيره علم مثل العز بن عبد السلام الذي كان يعيش في تلك الفترة والذي يوافق بيبرس أفعاله ومشروعاته، وكان يناهض بيبرس في مواقف أخرى، ومن ثم كان بيبرس يجل له الاحترام ويخشى دعوته، فقد رأي بيبرس في نومه أنه كان يسير في مصر وقد علت الأمواج عليه من كل حدب وصوب حتى أغرقت الميادين ثم صار البرق ينزل على الماء حتى جف فاستيقظ من نومه وقص ذلك على العز بن عبد السلام ليفسر له مفردات الرؤية فارشده العز بن عبد السلام إلى أن مصر ستتعرض لحصار من الأعداء وأما البرق فهو غيث من عند الله يهلك العدو[١٢٦].

وتفرد السيرة أحلاماً لأفراد من الجماعة المناهضة للإسلام، تكون سبباً فى هدايته للإسلام، أو انصياعاً لأمر نظام الدولة، وهو دفع الجزية والدخول فى الطاعة. فكان الحلم ونسقه الوظيفى قد شكلا معياراً للتوازن داخل بنية السيرة لذا يلعب الحلم دورا فى تغيير أدوارهم الوظيفية، ويهدف إلى تحقيق الهدف من محاربة المسلمين للنصارى، أو المجوس على حد تعبير السيرة هو

---

(١٢٤) نبيلة إبراهيم : المقومات الجمالية للتعبير الشعبى، القاهرة ، ط١ مكتبة الدراسات الشعبية ص ١٩٦، ١٩٩٦.

(١٢٥) انظر ملحق السيرة : فقرة (٤٩).

(١٢٦) انظر ملحق السيرة : فقرة (٥٠).

أولا الهداية فالهداية للإسلام تأتى مرحلة أولى، ومن أبى فتعرض عليه الجزية. أوله عذاب أليم وهذا ما كان يقصده بيبرس فى معاملة الأعداء أن يعرض عليهم الإسلام أولا، وربما يأتون إليه سعيا للدخول فى الإسلام بسبب رؤية يرونها وتكون مصدر هداية لهم فقد رأى البب مرين الملك الصالح يهديه للإسلام، ويأمره بأن يخبر بيبرس أن يدخل الكنيسة بلا رفيق ليقبض على جوان والبرتقش، وأن ما رآه في حلمه من رجل يدعى الملك الصالح أمرها أن يسلم وأن يساعد البطل في مهمته فلما استيقظ أخبر بيبرس بإسلامه على يد الصالح أيوب في الحلم، وقد يستمر الحلم بالهداية للإسلام من خلال الرؤيا في نسق جديد موجه للأعداء فجاءت أحلام كثيرة تدل على هذا النسق منها(١٢٧).

وإسلام الملكة بدور بنت الملكة دواهى (الساحرة) التي أخبرت الملك عرنوص أنها أسلمت فى المنام بعد أن رأت أمها تعذب وتجر من شعرها فى النار(١٢٨).

وإذا كان بيبرس يهدى أعداءه للإسلام فى اليقظة فإنه يقوم بنفس الدور فى الحلم فقد جاء للملكة نفوس ابنة الملك رومان فى منامها وقد أسلمت على يديه فى الحلم(١٢٩)، وقد زوجها السلطان محمد السابق ابن شحية. كما أسلمت رومة بنت جوان البطل المضاد للظاهر بيبرس، والممثل الأكبر للشر، والتى كانت ترى أباها يدبر الحيل للمسلمين، وتشاركه فيها فقد أتاها هاتف، وهى نائمة يأمرها أن تدخل الإسلام، وما إن أسلمت حتى تزوجت من شيحة لتلعب دورا وظيفيا داخل بنية السيرة لتحدث توازنا، وتكافؤًا فى الأدوار، فيصبح شيحة البطل الذى يوازى جوان فى الحيل هو أيضاً الذى يتزوج ابنته كما زوج بيبرس شيحة أيضا تاج بخت الملكة التى ساعدته بسحرها، وكشفت النقاب عن الحيل التى تدبر له.

(١٢٧) انظر ملحق السيرة : فقرة (٥١).
(١٢٨) انظر ملحق السيرة : فقرة (٥٢).
(١٢٩) انظر ملحق السيرة : فقرة (٥٣).

ويبتدئ الحلم بالموت فى السيرة بموت أبى بكر البطرانى الذى حمى البلاد من جهة البحر بغليونه الغراب فرأى السلطان رؤيا[١٣٠].

وقد تحقق الحلم عندما دخل عرنوص فى حرب مع البب روم الأزرق الذى أبلى فيها بلاء حسنا وأطبقت الكفار على الملك عرنوص فصرخ فيهم فانقض عليه اللبب روم الأزرق وضربه بالسيف فحكم على زنده اليمين فانقطع وانثنى عليه الملعون بضربة ثانية ورمى بها شماله وثالثة فى وسط رأسه فانفلقت ودام كذلك حتى قطعه وكانت العساكر الذين معه قد هلكوا ولم ينقذ منهم أحد ونفذ فيهم القضاء والقدر[١٣١].

الدعوة الزمانية فى السيرة:

كانت الوظيفة المركزية فى السيرة هى دعاء بيبرس أن يريه الله ليلة القدر كى يصبح ملكاً وسلطاناً، وقد سانده فى هذا الدعاء قوى كونية وروحية متمثلة فى الولى إبراهيم الدسوقى الذى دعا لبيبرس أيضا أن يريه الله ليلة القدر، وعندما تحققت الدعوة دعا بيبرس ربه أن يريه ليلة القدر[١٣٢]. كما دعا له أحمد البدوى أيضا[١٣٣].

أـ دعوة نوح:

ولعل السير الشعبية بعامة تعتمد على دعوة زمانية كبرى مثل دعوة نوح، ودعوة فاطمة الزهراء (أما دعوة نوح فظهرت بجلاء فى سيرة "سيف بن ذى يزن" فقد دعا نوح على ولده، وقد أسود وجهه لما ضحك عليه لما كشف الهواء نيله، ولم يغطه بل ضحك عليه، وغطاه ولده الآخر، فدعى نوح على أبناء حام أن يصبحوا عبيدا لأبناء سام العرب)[١٣٤]، وكذلك كانت دعوة السيدة فاطمة الزهراء على بنى هلال بالتشتيت والنصر، وذلك عندما شرد بها الجمل إلى

---

[١٣٠] انظر ملحق السيرة : فقرة (٥٤).
[١٣١] انظر ملحق السيرة : فقرة (٥٥).
[١٣٢] انظر ملحق السيرة : فقرة (٥٦).
[١٣٣] انظر ملحق السيرة : فقرة (٥٧).
[١٣٤] سيرة سيف بن ذى يزن م٣ ــ ص ١٤٦.

البرارى كان بنو هلال يحاربون مع الرسول، ولما سمع النبى (ﷺ) تدعو عليهم قال ادع لهم بالنصر فحملت دعواها التشتيت والنصر فى آن واحد[١٣٥] .

ومن ثم كانت دعوة نوح فى سيرة الظاهر بيبرس تعليلا لشراء المماليك، فقد كان الملك الصالح معترضا على شراء العبيد وأوضح الوزير "الأغا شاهين" أن السبب في ذلك هو دعوة نوح على ولده ومن ثم بيع العبيد والجواري .

وارتبطت الدعوة أيضا بالأماكن المقدسة، الأزمنة المقدسة، فالدعوة إذا كانت فى زمان ومكان مقدسين تستجاب (فالزمان مثل المكان قد تكون له قداسته عند معظم شعوب العالم فى جميع المعتقدات البشرية فهناك زمان مقدس، وآخر دنيوي، والزمان لا يتساوى فى قداسته، فالزمان يعاد ميلاده، ويبدأ ثانية لأن العالم يخلق من جديد مع كل سنة جديدة، ومنذ أن كانت السنة هى إعادة تحقيق تكوين الكون فإن هذا يتضمن بدء الزمن مرة أخرى أي العودة إلى بدايته، بمعنى استعادة الزمن الأول الزمان النقى الذى وجد لحظة الخلق، ولهذا السبب كانت بداية السنة الجديدة مناسبة للتطهر، والتخلص من الخطايا، والشياطين، أو أنهما مجرد كبش فداء)[١٣٦]، والحديث عن بداية العام قد يكون تفسيرا أوليا للزمن، ففى فلسفة المعتقد السني لا يوجد لهذا المعتقد مكاناً، ولكن هذه الفكرة باقية فى المعتقد الشعبى وهى ليست مرتبطة ببداية العام سواء أكان التقويم الشمسى، أم فى التقويم القمرى، وإنما هى مرتبطة بيومين أحدهما متصل بالتقويم الشمسى، والآخر متصل بالتقويم القمرى، فاليوم المقدس المتصل بالتقويم الشمسى هو يوم شم النسيم، وفيه كان المصريون يعتقدون أن النيل يجدد مياهه، ومعها تجدد الحياة، واليوم القمرى هو يوم منتصف شعبان، وفى ليلته يعتقد كثير من المسلمين أن قدر الإنسان يكتب فى هذه الليلة إن كان سعيداً، أو شقياً، ومن هنا كان الدعاء فى ليلة النصف من شعبان فى كثير من

---

[١٣٥] السيرة – م١ – جـ١ – ص ٢.

[١٣٦] Eliade M., The record & profane. Translated from Frene will ord R. trosk New York – llarcourt & world nc ١٩٥٧ p. ٧١ – ٧٢.

مساجد مصر، ومن الأزمنة المباركة التى تستجاب فيها الدعاء ليلة القدر عيد الأضحى وعيد رمضان[١٣٧].

وتستجاب الدعوة أيضاً من شخص صالح رجلا كان أو امرأة أو دعوة مظلوم أو رجل فى سكرات الموت، وقد تلقى بيبرس دعوات من رجال صالحين (أولياء) ساعدته فى تحقيق النبوءة.

دعوة رجل صالح:

وقد طلب بيبرس من رجل صالح أن يدعو له فدعا له بالنصر على الأعداء، وأن يعمر به البلاد، وقد كان نسق الدعوة الوظيفي يمثل أداة لنيل مطلب يتحقق على المدى البعيد أو باستغاثة تتحقق سريعا، بذلك فانقسمت إلى قسمين قسم خاص بالسلطة والحكم وقد جاءت بالبطل من سلطة كونية، والقسم الآخر خاص جاء لوقف متمثل في استغاثة أو طلب العون. فكانت الدعوة أداة صد السحر والجان والإسلام يمنع العمل بهما[١٣٨]، كما تلقى بيبرس دعوة من الصالح أيوب وهو فى سكرات الموت يدعو له بتوليه الحكم بعده مباشرة[١٣٩]، وكثيراً ما يدعو بيبرس لنفسه حيث رفعته السيرة لمرتبة الأولياء فكان مستجاب الدعوة، وغالبا ما يكون دعاؤه شعرا.

دعوة بيبرس:

فعندما سخر الكاهن "قبطا" الجن ليقضى على بيبرس، وشيحة، دعا بيبرس ربه أن ينجه من هذا المأزق[١٤٠] . وعندما انتهى من دعائه حضر له الولي عبد الله المغاورى، وقبض على جوان والكاهن قبطا.

وكذلك عندما قبض على الظاهر من قبل الكاهن الأزرق، وكانت مكيدة من جوان طلب شيحة من بيبرس أن يدعو فإنه مستجاب الدعوة، فلما دعا اختفى بيبرس عن أعين الكهان، وهم بسيفه وقتل الكاهن ففرح الجان بذلك،

---

[١٣٧] أحمد شمس الدين الحجاجى، النبوءة ص ١٥.

[١٣٨] انظر ملحق السيرة : فقرة (٥٨).

[١٣٩] انظر ملحق السيرة : فقرة (٥٩).

[١٤٠] انظر ملحق السيرة : فقرة (٦٠).

وشكرت بيبرس لأنها كانت تكره الكاهن الأزرق الذي أتعبها من التسخير وأرهقها في دور الشر[١٤١].

كما دعا بيبرس على الكاهن "سمنود" الذى استجاب لإغراء جوان، وكان هذا الكاهن قوى الشكيمة، فدعا عليه بيبرس[١٤٢]. وكذلك دعا بيبرس على البيب ميخائيل حين هب إليه الولي عبد الله المغاوري وعلى جريدة نخل يمخر بها عباب البحر، قد هاج البحر وماج، ثم راح يقتل الجنود حتى أنقذ السلطان من الهلاك[١٤٣].

دعوة الأبطال المساعدين:

وهناك دعوة خاصة بأبطال السيرة مثل "شيحة"، و"عرنوص ابن معروف"، فكانت دعواتهم مستجابة على العدو بالهلاك، أو دعوتهم لأنفسهم أن ينجيهم الله من حيل الأعداء، أو الدعوة للعدو نفسه بالهداية إلى الإسلام.

مثل دعوة "عثمان بن الحبلى" على أيبك الذي كان دائم الكيد لبيبرس فدعا بالمصائب، والهلاك، ولكن مصائبه قليلة[١٤٤]. وقد تحققت دعوته فقد تشتت هو وجنوده، وجوان الذي أوعز إليه بخيانة بيبرس. إلى أن قال أيبك: لعن الله القاضى جوان ما أقبح حيلته، وما أضر ثورته، وعندما وقعوا جميعاً طلبوا الصفح من بيبرس، فصفح عنهم.

وكذلك دعا "معروف بن حجر" لنفسه أن ينقذه الله من الملك "الأنجبروت"[١٤٥]. وما أن نظرت ماريا إلى شيحة إلا وقد أعجبت به إعجاباً شديداً، فعرض عليها الإسلام، وقد فتح الله قلبها لذلك، فأسلمت، ثم تزوجها عرنوص بن معروف[١٤٦].

---

(١٤١) انظر ملحق السيرة : فقرة (٦١).

(١٤٢) انظر ملحق السيرة : فقرة (٦٢).

(١٤٣) انظر ملحق السيرة : فقرة (٦٣).

(١٤٤) انظر ملحق السيرة : فقرة (٦٤).

(١٤٥) انظر ملحق السيرة : فقرة (٦٥).

(١٤٦) انظر ملحق السيرة : فقرة (٦٦).

دعوة القوى الروحية:

وتمثلت فى دعوة الشيخ النووى على بيبرس عندما هم بجمع الأموال من الشام لتعينه على الجهاد، فقال الشيخ النووى: والله ما ينفعك، ولا تبلغ به غرضاً، وإن طاوعتنى لم تأخذ شيئاً من الناس فإنه من باب الظلم فنفر منه السلطان، وقال: لا تعارضنى فى بلادى، ولا أفعل شيئا إلا على مرادى، كيف اترك بلادى تملكها من الكفار، والأعادى، وهؤلاء المسلمون رضوا بألا يملكهم غيرى، فدعى عليه الشيخ النووى بالعمى، وقد تحققت دعوته، فقد كف بصر بيبرس لمدة سبعة أعوام[١٤٧]. كما دعا الشيخ النووى على بيبرس دعوة أخرى وهي دعوة بالموت[١٤٨].

وسافر بعدها السلطان مع قلاوون بقصد الحج، وقال السلطان لقلاوون: إذا رجعنا فسوف أرجع إلى الشام عندئذ أرسل قلاوون إلى الأمير "سنقر" بقتل بيبرس، فوضع سنقر السم حتى اشتد عليه المرض، فمات متأثراً بالسم، ولعل هذه الدار التى ورد ذكرها فى رؤية بيبرس بالصالح أيوب يأمره فيها بأن يبنى له داراً إذا رحل من الدنيا فى دار العقيق، فقد توافق حلم بيبرس بموته، ودعوة الشيخ النووى معاً، فإذا كان بيبرس قد ترسخ حكمه فى مصر بدعوة من إبراهيم الدسوقى، وأحمد البدوى، وصاحب الوقت، فقد جاءت نهايته بدعوة بعد قضاء الله من الشيخ النووى حيث لعب الأولياء والعلماء دورا فى تحقيق الدعوتين.

تخت الرمل:

لعب تخت الرمل دورا لا بأس به داخل بنية السيرة فيعد أداة من أدوات نسق النبوءة فى توجيه الأفعال، وكشف الأسرار، فهى تكاد تكون عمليه أولية مرتبطة بالأمية، أو بالحروف الأبجدية، فقارئ الرمل ليس فى حاجة إلى معرفة القراءة والكتابة. فهذا اللون مرتبط بالصحراء وظهر بين الأبطال

---

[١٤٧] انظر ملحق السيرة : فقرة (٦٧).

[١٤٨] انظر ملحق السيرة : فقرة (٦٨).

المرتبطين بالبداوة، فى حين أن قراءة النجوم ارتبطت بالمجتمعات الزراعية[١٤٩].

فكانت تخت الرمل ضربا من النبوءة داخل السيرة، وقراءة للزمان وقدر البطل فقد ساعد بيبرس كثيرًا على الإيمان بالقدر، فى الترحال، والسكن، والموت، ففى السكن كان هذا المكان أداة لضرب الرمل فقد ضرب فيه الرمل من قبل صاحبه أحمد بن باديس حيث عرف أن الذى يسكن هذا البيت من بعده ملك، وسيحكم مصر، والشام، واسمه بيبرس، وقد أخبر الأغا شاهين بيبرس بذلك.

كما ضرب الرمل للأغا شاهين فاستقرأ منه ترحاله وسفره واستقراره فى مصر – وعلو شأنه فى الحكم بجانب الصالح أيوب حيث يكون عضده وساعده، ولكى يتم له ذلك لأبد أن يكون له عمل يخطو به نحو قدره أما أن تكون تضحية أو عمل بطولى إلى غير ذلك فكان للأغا شاهين عمل على تحقيق ذلك كى يتحقق ضرب الرمل، وهو قتله لرجل يهودى كان يملك البستان الذى كان يقيم فيه قرابة ثلاثة أشهر فى مصر ليكون سببا لمجيئه إلى مصر، وليلعب دور البطولة المساعدة مع الصالح أيوب، فقد كان الأغا شاهين حاكماً على مدينة بورصة، وقاتل الأفرنج، ثم مرض مرضاً شديداً ليكون هذا المرض تمهيدا لتوظيف دوره الرئيسى داخل بنية السيرة[١٥٠].

وكان لتخت الرمل نسق فى الكشف عن الأبطال، واستقراء المواقع فيظهر الحبيب والعدو، والمصير، ومن ذلك ما ضربه الكاهن سطرين للكشف عن مصيره، فظهر له العدو المتمثل فى عرنوص الذى يمتلك البلاد، ويقتل على يديه، ومن ثم (أوصى ولده وأعطاه صفة عرنوص والحيلة التى يدخل بها على بلاده)[١٥١].

كما وظف تخت الرمل فى كشف الحيل، والمكائد، وفكها. فقد استطاع مرين الكاهن بعد إسلامه أن يضرب الرمل لكشف حيل سيرون الراهب

---

[١٤٩] أحمد شمس الدين الحجاجى: النبوءة ص٦٩.

[١٥٠] انظر ملحق السيرة، فقرة (٦٩).

[١٥١] السيرة – م٤ – جـ٤٣ – ص ٢٣٠٨.

ومكائده ضد المسلمين. فقد استطاع سيرون أن يضرب الرمل ليكشف عن مكان السلطان. فحدث سجلاً نثرياً بين ضرب الرمل، وبطلانه، فقد قام مرين بحماية السلطان بيبرس من غدر سيرون فأتى مرين بوعاء به خروف مذبوح ثم طلب من بيبرس أن يقف عليه ثم وضع فوق رأسه غربا أما سيرون عندما ضرب الرمل ليعرف مكان السلطان فرآه واقفا على جبل من النحاس، ومحاطاً بحائط من الخشب، وبذلك بطل ضرر رمله لأن مرين قد ضلله بعمله، ثم عاد مرين ليمنع محاولة سيرون لضرب الرمل، فقد ألبس السلطان رداء من جلد السمك، ثم لفه، وعلقه فى مقدمة السفينة فضرب سيرون رمله ورأى السلطان قد ابتلعته سمكة كبيرة فى البحر، لذا سخر جوان من سيرون ومن رمله لأنه غير مقنع، ثم راح مرين يضلل سيرون مرة ثالثة فقد جاء بجلد دب ثم وضعه على جسم السلطان ثم وضع على رأسه جلد نسر، وأفرد أجنحته ووضع وراءه جلد طائر ثم وضع على السفينة حرير وعلق فيها عنب وتوت ورمان فيرى سيرون كل هذا ولكن فقد رأى ملك المسلمين واقفا بين جبلين أحدهما رخام، والثانى مرمر فى أرض صفراء ونصف جسد السلطان قد ابتلعه ضبع، والنصف الآخر ابتلعه نسر، وهو طائر فى الهواء وقد أفرد أجنحته وحلق على حرير وأسفل منه بستان فيه أشجار فاكهة متعددة الألوان والأشكال(١٥٢).

وأما ضرب الرمل المضاد، فقد جاء من سيرون الذي رأى فساد إبطال رمله، (يا أبانا أنا عمرى ما رأيت مثل هذا الرمل أبدا فقال جوان ولأى شئ فقال سيرون إنى أرى ملك المسلمين واقفا على جبل من النحاس فى وسط بحر من الدماء وسور البحر نحاس وعلى رأسه سماء من الجلد له سور خشب)(١٥٣).

وجاء مرين للسلطان وأخبره ببطلان رمل سيرون (ثم أتى للسلطان بجلد سمكة ولفه وعلقه فى مقدم الغليون وكان هذا فى أول الليل)(١٥٤). أما سيرون فقد ضرب الرمل مرة أخرى(١٥٥)، وبذلك استطاع مرين أن يوظف ما أوتى له من قدرة فى ضرب الرمل، كما قام سيرون بذلك أيضاً، فظهر من خلالهما عدة

---

(١٥٢) انظر ملحق السيرة، فقرة (٧٠).
(١٥٣) السيرة – م٣ – جـ٢٥ – ص ١٧٩٥.
(١٥٤) السيرة – م٣ – جـ٢٥ – ص ١٧٩٥.
(١٥٥) انظر ملحق السيرة، فقرة (٧١).

أدوار وظيفية لتخت الرمل ساهمت فى تحقيق الحلم والنبوءة من خلال نسق الزمان .

فكان تخت الرمل بعامة أداة للحيلة استعان به الأعداء، وخاصة جوان، فكان إذا فشل فى مكائده وحيله لجأ إلى من له القدرة على معرفة ضرب الرمل ليوظفه ضد الظاهر بيبرس أو شيحة فقد طلب من (المارى جعلص) أن يضرب الرمل ليكشف عن شيحة (فضرب المارى جعلص الرمل فرأى أنه ما يبلغ عن المسلمين غرضا، ولا يشفى مرضا ما دام أن شيحة معهم فقال أنا سمعت شيحة سراق من المسلمين، ولا فى الدنيا واحد يعرف حيله، وأنا ما أرضى أن واحدا يحتال علي ويهلكنى كما هلك غيرى، وأما أنا وحق المسيح ما دام شيحة طيب على وجه الدنيا ما أركب على بلاد المسلمين وأعاديهم أبداً).

وقد قامت الملكة تاج ناس بدور مهم فى الكشف عن الأماكن التى قد يكون بها شيحة أسيرا من خلال ضرب الرمل كما ضربت لأبيها فعرفت أن أباها الملك قبطاويل سيقتل بيديها ثم تتزوج شيحة، وأخبرت شيحة بأنها سخرت سحابها الخاطف ليخطفه عندما هم أبوها مع جوان لتقطيعه[١٥٦] .

كما لعبت دور المدافع عن المسلمين فى شخصية شيحة مسخره للجان مرة، وضاربة للرمل مرة أخرى، فاستطاعت كشف حيل الكاهنة الزرقاء لذلك حذرت شيحة منها (ثم أحضرت قطعة جلد، وقصتها فى الدير وصورتها سيفا وقالت يا سلطان الحصون خذ هذا فى يدك اليمنى وخذ هذه الورقة فى يدك الشمال وسرفى هاهنا، وادخل على الكاهنة الزرقاء وأعطها الورقة فإذا فتحتها لتقرأها، فاضربها بهذا السيف على عنقها فتموت من وقتها ففعل شيحة ما أمرته به)[١٥٧] (ولم تكن الملكة تاج ناس وحدها من زوجات شيحة اللاتى عرضن هذا اللون بل كانت هناك الملكة جميلة، التى كانت تضرب الرمل لمعرفة مكان زوجها، عندما شرع الكاهن الهول الأكبر النيل من شيحة فصورت هذه الطيور، وأمرت أعوانها أن يندفعوا حول قبة الطبول، ومن داخليها الكاسات

(١٥٦) انظر ملحق السيرة، فقرة (٧٢).
(١٥٧) السيرة – م٣ – جـ٣٠ – ص ٢٠٧٢.

وانقضت لحيله ودخل شيحة فى القبة وتمت تلك النصبة وانهلك الكهين الهول الأكبر)[١٥٨].

كما يظهر نسب البطل المصاحب من خلال ضرب الرمل على يد عدو للإسلام كعبد المسيح الذى اختفى ابنه فأحضر العلماء، والحكماء ليضربوا الرمل، فلما قاموا بذلك اكتشفوا أنه داخل صندوق، فأراد الملك عبد المسيح أن يعرف ماهية هذا الصندوق. (واستنطقوه فظهر لهم في الحال وانكشف لهم رد السؤال فقالوا يا ملك اعلم أن هذا الصندوق ينفع لرجل مجاهد فى آخر الزمان يقال له إبراهيم بن حسن الحورانى، وذلك أنه يأتى فى آخر الزمان نبى يقال له محمد بن عبد الله قرشى النسب ويتناسل منه أشراف هذا الفتى من جملة الطلاب إلا أنه شجاع ويكون الحاكم عليه من الرجال فى ذلك الزمان رجل يقال له شيحة جمال الدين صاحب الحيل وخداع ويحفظ على ظهر قلبه تاريخ اليونان وحكمة أهل الزمان).

الكتب القديمة:

ومن ثم ورد ذكر نسب إبراهيم بن حسن الحورانى، وذكر شيحة، وعلاقته بتاريخ اليونان، ولعل المعرفة بتاريخ اليونان قد لعب دورا عظيما فى النبوءة فهذا كتاب اليونان هو الذى تنبأ بقدوم جوان الممثل الأكبر للشر والبطل المضاد له فى الحيل المسلم شيحة، وأطلع عليه الاثنان. فيعد هذا الكتاب (قراءة للزمان فهو أيضاً بين الكتب القديمة التى حوت كل المعارف، والعلوم ستبدأ العالم إلى نهايته، وكل من اطلع عليها لا يمكن إلا أن يكون واحد زمانه، وفى سيرة "سيف بن ذى يزن" نجد الحكماء، والكهان يتنافسون على أقدم هذه الكتب، وغالباً ما تكون لدى الكاهن لا نظير له، وفى سيرة ذات الهمة نجد البطل يسرق كتاب "ينبوع الحكمة" الذى كان يريده عقبة لنفسه، وكذلك قصة الحكيم يونان الذى عاش قبل ظهور الإسلام، وعرف كل ما سيجرى بواسطة الجن على القاضى جوان. فكتب له كتابا يساعده على إنجاز حيله، وأوصى

---

(١٥٨) السيرة ـ م٥ ـ جـ٤٥ ـ ص ٢٩٢٨.

الجن فى مختلف المناطق الذى سيضطر جوان إلى الهروب إليها ليمدوا له يد العون، وفعل ابنه الحكيم "إينان" الذى نقد ما فعله أبوه، فكتب مقابل كل الحيل ما يناقضها لفائدة شيحة جمال الدين)[١٥٩] . وعندما تعرف عليه، يعثر عليه جوان ويعرف من خلاله أن أعداءه (شيحة والظاهر) (يعرف أن شيحة طفل اسمه شعبان، فيسرقه، ويعود به إلى الدير لقتل هذا الطفل فيشفق عليه كرصمويل، والبرتقش صديق جوان، ويطلبان من جوان أن يتركه حتى يشتد عوده وعندما يشتد عوده يقرأه شيحة خلسة ويعرف ما فيه)[١٦٠]، (كما يفرد الكتاب مولد جوان إلى انتهاء مدته. وكل ما يحصل له من المهالك فى حياته عمل لها مسالك، فلما أن انتهى إلى اخر عمر جوان ختم الكتاب إلى أن مات أيضا الكهين وظهر ولده "إينان" فلما نشأ، وجلس مكان أبيه، وحكم على الجان، وعلم ما يكون، وما كان فأحضر الجان، فقال لهم: أخبروني عن فعال أبى، فأخبروه بما فعل أبوه، فقال: قد هداه الله إلى الإسلام وذلك أنه ضرب الرمل مراراً، فوجد أن هذا النبي الذي يظهر في آخر الزمان على الحق من نسل إبراهيم الخليل، وإسماعيل الذبيح عليه الصلاة والسلام، فتبين له أن الاختلاف معهم، وفى أديانهم، فلما عرف المرام وهداه رب الأنام إلى دين الإسلام، فأسلم – ثم جعل يرسل الجان إلى السماء يسترق السمع ومنها يأتون بما يسمعون وهو يكتب المال إلى الإسلام وما من مهلكة عملها أبوه إلا وعمل لها مسلك ثم أرسل الجان إلى المهالك الذى عملها أبوه، وجعل فيها مسالك النجاة والإسلام، وجعل ذلك فى صحائف من الفضة، وقرنها ببعضها فى ذلك الكتاب ومازال يفعل ذلك التغيير إلى أن انتهى ظهور شيحة)[١٦١].

تسخير الجان والكهان:

ولا شك إذا كانت دعوة جوان العدو قد قامت على تسخير الجان من قبل الكاهن الكهان الذى يغريهم بمحاربة المسلمين، فإن هذا الفعل يقابل فى

---

(١٥٩) سعيد يقطين: قال الراوى – ص ١٨٨.

(١٦٠) فاروق خورشيد: أضواء على السير الشعبية – ص ١٠٨.

(١٦١) السيرة – م٢ – جـ١٣ – ص ٩٤٦ – ٩٤٧.

المسلمين فعل مضاد له من قبل ملوك استطاعوا أن يسخروا الجان لمساعدة الأبطال أمثال الملكة تاج ناس، والملكة تيجان، فتسخير الجان يعد اختصارا للزمن ويعطى مساحة أكبر للقفز عبر مساحات زمنية تخيلية.

وقد لعب الكهان دورا فى الفعل المضاد فى تسخير الجان مثل الكاهنة السودة، والزرقاء، والكاهنة دواهى، والملك شواهى، فهؤلاء الكهان مثلوا نسقا عاما للشر ليتحد مع الأنساق الأخرى للشر لتساهم فى تفعيل الأدوار داخل بنية السيرة كفعل مضاد لبطل مضاد حتى يظهر كيفية التغلب على هذا الفعل من البطل أو الأبطال المصاحبين، وبذلك تعطى مساحة رحبة لظهور أدوارهم وأنساقهم الوظيفية فلولا أدوار الكهان والسحرة لفقدت السيرة جزء مهما فى التفاعل والصراعات وظهور الخيال الذى أثرى بنية السيرة الأسطورية.

فكان جوان الذى يمثل الفاعل المركزى الأول للشر هو الذى يحرك الكهان لممارسة أدوارهم. وقد تبلورت أنساقهم الوظيفية على مراحل عدة أولها الانصياع الكامل لعالم الملة جوان خوفًا منه لأنه كان يدعى أنه رسول المسيح، ثم تنفيذ أوامره بتسخير الجان لخطف ملك،أو نقل من المسلمين، ثم تأتى مرحلة أخرى وهى أن يتغلب بطل من المسلمين على تسخير مثل شيحة عن طريق حيله واستدعاء ولى من أولياء الله الصالحين يدعوه من بيبرس الكاهنة ببطل المسلمين، فتسلم على يديه، أو يتم تسخير عون من لجان من قبل زوجة شيحة الملكة تاج ناس التى لها خبرة بتسخير الجان فيظهر من خلال ذلك الفعل وضده فيحدث توازنا فى الأدوار والأنساق ويؤثر ذلك على النمط السردى، ومن ثم استطاع جوان أن يحرك كل هذه الأدوار، فقد أمر الكاهنة السوداء أن تسلط الجان على عرنوص، ومساعديه أمثال نصر، والنمر، وإسماعيل أبو السباع، فعندما أحضرت عرنوصاً، واشتهته لنفسها ولكن عرنوصاً رفض ما أزمعت فعله (وطلع جوان يكشف الخبر فى البر فرأى إسماعيل ونصير النمر قادمين

فزاغ بصره ودخل على الكاهنة وأعلمها فقامت إلى بيت رصدها وأمرت رهطا من أرهاط الجان خطفهم وأتى بهم إلى بين يديها)[١٦٢].

كما قامت الكاهنة الزرقاء بالقبض على بيبرس وابنه السعيد وأرسلت رهطا من الجان ليحضر السلطان، وأرادت قتلهما معا لذا (أحضرت عونا من الجان وكتبت ورقة وقالت له خذ هذه الورقة روح إلى الملك بيبرس ملك مصر وأعطها له فى يده وعندما يأخذها منك اخطفه من على كرسيه وهاته إلى عندى، فطلع العون وعاد إلى قدام السلطان، وقدم له الورقة وهى فى صفة بنى أدم، فأخذها الملك بيده فخطفه العون من وسط الديوان وعلا به فى الجو)[١٦٣]. كما كان للملك شواهى وأخته الكاهنة دواهى أنساق مختلفة فى خطف أبطال السيرة، وخاصة الملك عرنوص بواسطة الجان، فبينما جوان يكيد لعرنوص، ويدبر لحيل مع الملك شواهى إذ يحضر الملك شواهى الجيوش لمحاربة عرنوص إلا أنه لم يكتف بذلك بل أوعز جوان للملك أن يرسل إلى أخته لتسخر الجان لإحضار الملك عرنوص، فلما حضرت (حكى لها الملك شواهى ما جرى فدخلت بين رصدها وأحضرت ماردا من الجن وأمرته بخطف عرنوص فخطفه ووضعه بين يديها)[١٦٤]، (ثم شرعت فى اختطاف الأمراء المسلمين فأمرت أعوان الجان أن يقتلوهم ويأسروا منهم عدد كبيرا. فقتلوا وأسروا فى يوم واحد اثنى عشر وثانى يوم أسرت النداوية خمسة وبعد اليومين قال لها جوان اقطعى رءوسهم وارميهم إلى المسلمين)[١٦٥].

كما تعرض عرنوص لاعتداء الكاهن سطرين الذى سخر الجان لقتله لأنه عرف من خلال ضرب الرمل أنه سيقتل على يد عرنوص، وكان له أخ يسمى الكاهن سطرين، وكان يحكم على الأربع قلاع، وكان استحكم بالرصد كنزاً وجعل البحر فوق ذلك الكنز، وضرب تخت الرمل فرأى أن بعد موته

---

[١٦٢] السيرة – م٣ – جـ٢٨ – ص ١٩٦٢.
[١٦٣] السيرة – م٣ – جـ٣٠ – ص ٢٠٧٠.
[١٦٤] السيرة – م٤ – جـ٤٣ – ص ٢٢٤
[١٦٥] السيرة – م٤ – جـ٤٣ – ص ٢٢٤٢.

سيظهر له رجل يملك الكرك لكن يقتل على يد عرنوص، لذا أوصى ابنه أن يقتل عرنوص بحيله التى يدخل بها على بلاده، فلما شرع ابن تسطيرين فى ذلك نجم فى القبض على عرنوص وما إن هم بقتله حتى هبت ابنة الملك التى تدعى نجفة الدم لإنقاذ عرنوص بإرسالها لنواب القلاع الأربع من خلال جان وأن يخطفوا عرنوص ففعلوا ما أمروا به ثم أسلمت وصارت زوجة لعرنوص[١٦٦] .

كما كان للكاهنة بحرونة دورها فى تسخير الجان لخطف أولاد السلطان (فأرسلت أعوان الجان ليخطف السعيد من مصر من على الكرسى كما أرسلت الأعوان لتبحث عن أولاد السلطان الباقين)[١٦٧]، وقد تنوعت قدرات الكهان، ومراتبهم فإذا كان منهم قد سخر الجان للخطف فإن منهم من سخرهم للحرق، والتلف فى التو، واللحظة مثل الكاهن "أرماليه" الذي استطاع حرق صيوان بيبرس بمجرد النظر إليه (وقال له وحق الشمس وسمائها والأفلاك وطلوعها والنار الحمية وما فيها من الدخان والأسرار الخفية إن فى غدات غديم يفرع النهار إلا وجميع ما تراه عينك فى عرض قان العرب زايل، ولم يبق منه أثر ولا دليل فقام الكاهن ودخل بيت رصده واجتهد فى تلك الليلة حتى صنع بالحكمة أربع شمعات، ثم أحضر أربعة من أرهاط الجان، وأعطى كل واحد منهم شمعة، وقال لهم ادخلوا إلى الملك، واذهبوا إلى وسطه، وألهموا طرف الشموع إلى قان العرب، فإذا قادت فيه النار، فخذوا كل واحد منكم جهة اليمين، وجهة اليسار، والخلف والأمام، وكلما رأيتموه أحرقوه ولا تطلعوا حتى يبقى كله نار الصيوان، وعودوا إلى عندى بعد ذلك فذهبوا وحرقوا صيوان السلطان)[١٦٨].

ولا شك أن عنصر التوازن فى الأدوار الفاعلة داخل بنية الزمان فى السيرة بالغ الأهمية فإذا كان الكهان يستطيعون أن يسخروا الجان ففى الجانب الآخر، وهو المسلم من هو يستطيع ذلك لتوازن القوى، ومن أمثال ذلك الملكة

---

(١٦٦) انظر ملحق السيرة، فقرة (٧٣).
(١٦٧) السيرة – م٤ – جـ٤٠ – ص ٢٦٩٤.
(١٦٨) السيرة – م٥ – جـ٤١ – ص ٢٧٧٤.

تاج ناس، والملكة نفوس، فما من حيلة يحتال بها كاهن إلا وهبت الملكة تاج ناس لإنقاذ شيحة، أو السلطان، أو الأبطال المساعدين له، ففى محاربة المسلمين للعجم أمرت الجان أن يقذفوا العجم بالحجارة، وكان السلطان، وقتئذ قد كف بصره، وأراد الكاهن "أرماليه" أن يهلك المسلمين بالبرق الخاطف الذي يطير ضاربا برقاب المسلمين فلما علمت الملكة ناس بذلك أرسلت رهطا من الجن فقدموا العجم بالأحجار كما أرسلت برقها الخاطف ليتصدى لأعوان الملك آرمالية من الجن(١٦٩).

كما كانت الملكة جميلة بنت ملك الحبش زوجه شيحة تضرب الرمل لتعرف مكان ابنها طود البحر وزوجها شيحة فيتبين لها أنهما غائبان فى سجن العدو، فترسل رهطاً من الجن ليأتوا بهما قبل أن تقوم من مكانها، وما لبث أسفوط بن جوان أن يثأر لأبيه بالاستعانة بالكهان، وتأليبهم ضد المسلمين، وتسخير الجان للنيل من أبطال المسلمين بعامة، لذا راح يسعى إلى مكيدة ليخطف بها شيحة، وابنه طود البحر، وساعده فى ذلك كاهن يدعى (مرموت فذكر أسفوط أسماء أبطال المسلمين واحدا بعد واحد حتى قبضهم كلما يقول اسم يرسل عون جان يخطفه ويضعه بين يديه فيوضع الحديد فى رقبته حتى أخذ أربعين من أبطال المسلمين أولهم الملك الظاهر وأخرهم شيحة وأراد أن يضرب رقابهم وإذا بالدنيا أظلمت، وطلع شرار، ونار وصراخ، وهدير وقايل يقول: ارجع يا عدو الله وكانت هذه جميلة الملكة بنت ملك الحبش وسبب مجيئها إلى ذلك المكان وهى أنها ضربت الرمل لتنظر ولدها طود البحر فى أى مكان، وكذلك زوجها فرأت شيحة مقبوض عليه مع ذلك الكهين الجبار، فركبت على سريرها وحاربت الملك الجبار لتنقذ الزوج والابن)(١٧٠).

وتعرضت السيرة إلى ذكر التآخى بين الجان والبشر من خلال غلام قابله الظاهر بيبرس فى حرب، وقد أبلى معه بلاء حسناً فى حربه مع ملك العجم، فكان الغلام يحارب وراء حجاب، (وقد قص على السلطان قصته مع الجان

---

(١٦٩) انظر ملحق السيرة، فقرة (٧٤).
(١٧٠) السيرة ــ م٥ ــ جـ٤٨ ــ ص ٣٠٦١.

فذات مرة هرب الغلام من أبيه، وجلس تحت شجرة، ونام تحتها ولما استيقظ لم يجد أحدا أمامه، فبكى، وإذا بفتاة تظهر له تبكى كما يبكى، وتشكو كما يشكو من فقدها لأبيها، ثم اصطحبته إلى بيتها، ثم أشارت إليه أن يتآخيا معًا، وجاء أبوها ورحب به، ثم مكث الغلام بدارها عشرة أعوام حتى طلب من أن يظهر فى الأرض، وأن يعاشر الإنس فوافقت على طلبه، وقد ألبسته رداء سحريًا لا يراه أحد وزودته بسلاح قوى ثم أخذت عهدًا عليه بأن لا يقطع زيارتها وأهدت له ساعتين مرصودتين إذا علقهما فى رقبة عدوه يهلك فى الحال[١٧١] .

السحر:

كما يعد السحر نسقا فى بؤرة الزمن، والنبوءة فيلعب أدوارا تساعد فى اكتمال الحدث داخل السيرة، فإذا عجز البطل فى تحقيق هدفه لجأ إلى القوى الغيبية مثل الأولياء أو السحرة (فالسحر، والأولياء يمثلان السلطة العليا فى الزمن)[١٧٢] . وإذا قامت فئة مسلحة داخل السير بعمل السحر فلا يكون إلا مجرد وسيلة سرعان ما ينتهى أثرها بعد إنقاذ البطل أما السحرة، والكهان، فيمثل لهم اعتقاد وقداسة ودين لذا وجدت العامة فيهم القداسة فهم مقدسين تخشى الناس غضبهم (فالسحر ظهر قبل أن يظهر الدين كمعتقد من ناحية الزمن)[١٧٣]، والسحرة غالبا (ما يكونوا جماعة منعزلة عن رجال الدين، كما أن نظرة المجتمع إليهم تختلف اختلافا كبيرا عن نظرته إلى رجال الدين إذ يعتبرهم أقل منهم مكانة، وأدنى مرتبة حتى، وإن كان بعضهم يسخر سحره لصالح الجماعة كلها)[١٧٤]، ومن أمثلة الكهان الذين تفانوا فى السحر، وكان السحر يمثل لهم نسقاً عاماً مثل الكاهنة "الفلفلة الزرقاء"، والكاهنة "دواهى"، فالكاهنة الفلفلة استطاعت أن تسخط فتى رفض مواقعتها إلى نصف حجر، ونصف بشر حتى تقابل مع السلطان، وحكى له كيف كذلك، فكان السحر أداة

---

[١٧١] انظر ملحق السيرة، فقرة (٧٥).
[١٧٢] سعيد يقطين: قال الراوى ص١٦٦ .
[١٧٣] جيمس فريزر، الغصن الذهبى ص ٢٥ : ٣٧.
[١٧٤] المرجع نفسه ص ٣٧.

وظيفية، ونسقا للكاهن يسخر به الجان، إما ليسترق السمع، أو أن يأتى له بكل ما يريد قبل أن يرتد إليه طرفه، وكان السحر لديه عبارة عن مزج روح بأخرى وقد يختلف عن الظلم الذى يأتى تعانق روح بجسد، ويفسر لسحره ذلك بأن هناك علاقة بين امتزاج الطبائع العلوية السماوية المتمثلة فى الكواكب، بالطبائع السفلية[١٧٥].

وقد حظى الكاهن بمكانة كبيرة بين العامة بماله من قدره على صنع السحر وتحكمهم فى مخلوقات غيبية فهم لا يؤثرن بذواتهم طبقا لطقوس السحر فحسب وإنما يؤثرون أيضا بحكم تحكمهم فى مخلوقات ذوات قوى فائقة التحول تحول إرادتهم وتتلبى أوامرهم[١٧٦] من الجان أداة أخرى تصل بين الفعل، والفاعل، المتمثلان فى الهدف الذى يرمى إليه، والكاهن الذى سخره لذلك الفعل ولا شك أنه يقوم بطقوس سحرية وسائطيه ايضاً متمثلة فى استخدام كلمات وحروف وأعداد كى يستحضر الجان (وهذه الفكرة قديمة ترجع إلى محاولة الإنسان البدائى السيطرة على قوى الطبيعة مثل السيطرة على الرياح والحيوانات والطيور)[١٧٧].

فالإنسان البدائى لا يحس نفسه منفصلا عن العالم، بل يحس أن لهذا العالم حياة تنتظم كل ما فيه من أشياء وهو من بين هذا الأشياء فعندما يقوم بطقوس ليسقط المطر لا يفعل ذلك بناء على ربط خاطىء بين القعقعة وسقوط المطر على أنها علة ومعلول، بل على اعتقاد بأن رغبته فى سقوط المطر التى يعبر عنها بالقعقعة، توافق رغبة المطر نفسه فى السقوط[١٧٨].

ومن ثم كان للكاهن او الساحر كون خاص به تتعدد فيه الرؤى الوظيفية لتشكل نسقاً عاماً متمثل فى حماية الجماعة المتمثلة فى البطل وكان الأدوار الـوظيفية تنـاسب فـى سهولة تجـاه الجماعة والبطل، أو البطل

---

[١٧٥] ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار العودة، سنة ١٩٨١، ص ٣٩٣.

[١٧٦] فاروق خورشيد: عالم الأدب الشعبى العجيب، ص٥٦،٥٧.

[١٧٧] Malinowski, Bronislaw: Magic, Science and Religion, New York, ١, ٥٤. p.١٩.

[١٧٨] شكرى عياد، البطل فى الأدب والأساطير، ص ٨٠.

والجماعة حتى تنصهر فى قالب واحد وهو الحماية عن الذات، والمعتقد لذا حلت العامة الاحترام للكهان والسحرة باعتبارهم رجال دين كما انضم لهذه الفئة ايضا ملوك لهم علم بالسحر كان السحر يمثل دورًا آخر لسيطرتهم بجانب السلطة، ومن ثم استطاع الرواة للسير العربية أن يملكوا الملوك وظيفة أخرى لوظائفهم حتى يجمعوا بين السلطة والمعتقد، وقد تعانقت كل هذه الأدوار فى سيرة الظاهر بيبرس إذ استطاع الراوى أن يجعل السحر سمة مشتركة فى الجانبين المتصارعين المسلم، والمسيحى على حد تعبير السيرة، إلا أن السحر يظهر بجلاء فى الجانب الثانى، ولذا خلق الراوى دفاعًا يدفع السحر توافق الجانب المسلم وهى كرامات الأولياء، والدعوة المستجابة والمتحال بملوك نصارى أسلموا وهم على السحر مثل الملكة تاج ناس، وابنها طود البحر، فحدث التوازن بين القوى وإظهار الأدوار الوظيفية التى اجتمعت لتشكل نسقا وظيفيًا لمرحلة من مراحل الصراع بين القوى[١٧٩].

كما وظف السحر فى خطف عرنوص من قبل الكاهن حكيم الذى ضرب الرمل فعرف أن عرنوصاً سيتزوج ابنته الوحيدة، لذلك صنع لها رصداً لحمايتها، فقد صنع لها ثياباً إذا ارتدتها لم يصبها سوء، ولم يقطع فيها سلاح بتار، ولم يغلبها أحد فى حرب، لكنها كانت تميل حباً لعرنوص[١٨٠].

أما الكاهنة "ميمونة" فقد أرهقت المسلمين بتسخيرها للجان الذين قتلوا عدداً كبيراً من جنود المسلمين[١٨١]. كما تعرض السلطان، وأولاده للخطف من قبل الساحرة العجوز "بحرونة" والتي صنعت رصدها وسلطت الجان لخطف السلطان وابنه، وجنوده حتى نجح رصدها تلك المهمة وهناك من الكاهن من له القدرة على تصوير الجاد فى صورة بشر حتى يخدع فيه شيحة نفسه ثم يقبض عليه وكان الكاهن الأزرق له علم بصنع ذلك[١٨٢]، الذى جاء نسقه الوظيفى بطلا وعاشقا للنساء وخاصة اللائى بيدهن الأمر والنهى فى ممالك آبائهن،

---

(١٧٩) انظر ملحق السيرة، فقرة رقم (٧٦).

(١٨٠) انظر ملحق السيرة، فقرة (٧٧).

(١٨١) انظر ملحق السيرة، فقرة (٧٨).

(١٨٢) انظر ملحق السيرة، فقرة (٧٩).

فهؤلاء قمن بوظائف تمهيدية للحدث حتى إذا ظهر عرنوص فى حياتهن كان إكتمال الحدث كأن يكون فتح بلدان، أو دخول عدو فى الإسلام، وإنقاذ البطل أو الفاعل المركزى الأول من بيبرس من المهالك والسحر والأرصاد ومن ثم كانت "نصرة" ابنة الكاهن حكيم التى باتت تتحين الفرصة لموت أبيها كى تنقذ عرنوص من الرصد الذى صنع له حتى إذا فارق الكاهن الحياة أخذت الرصد والتمثل فى الشياب، وقتلت الكاهن صافور، وأهدت ثيابها بعد ذلك عرنوص الذى تزوجها[١٨٣].

وتصدت الملكة تاج ناس زوجة شيحة لسحر الكاهن "برهوت" حتى قتلت بسحر هذا الكاهن، فعندما علم "علي الطويرد" أن أباه فى خطر من الكاهن برهوت فغضب علي الطويرد لذلك، وأثار ثورة بالتراخى فى إنقاذ أبيه وأخذ شعره من لحيته، وصورها حربة لتنفذ فى صدر أمه، ولكن لا يطل السحر غلا السحر فلما رأت الملكة تاج ناس ذلك أمرتها أن ترتد لأصلها شعرة، فأصرت كما كانت واستخدمت تاج ناس قدرتها فى التصدى لسحر الكاهن برهوت الذى رسم صورة لتاج ناس على ورق وجعلها فى صورة إنسان تم أمرها أن تأتى لها بجثة الملكة تاج ناس .

إلا أنها لما رأت المقضى يحاول قطع الراس أمرته أن يكف عن القطع فبطل سحر الكاهن برهوت لكنه لم يكف عن المحاولة لقتل شيحة، وزوجته، وابنه حتى تتدخل قوى غيبية متمثلة فى الولى عدب الله المغاورى الذى ينهى الصراع، والذى يؤول بقتل الكاهن برهوت، وقد تعاون سحر الملكة تاج ناس مع القوى الغيبية لهدف واحد هو درء السوء عن البطل بصفة خاصة،وعن المسلمين بصفة عامة[١٨٤].

ومن ثم فالسحر لا يقاوم إلا بسحر أو يقوى غيبية متمثلة فى الأولياء الذين مثلوا نسقا مهماً، فكانت لهم وظائفهم حتى أن بعضا منهم عبر من سيرة إلى سيرة بنفس الوظيفة ليكون حلقة وصل بين السير بعامة.

---

(١٨٣) انظر ملحق السيرة، فقرة (٨٠).
(١٨٤) انظر ملحق السيرة، فقرة (٨١).

ومثل الشيخ "جياد" الذي عبر حقبة زمنية كبيرة من سيرة سيف بن ذى يزن إلى سيرة الظاهر بيبرس (فهو الذى أخبر الملك سيف باسمه)[١٨٥] كما قابل سعد بن حسن الحورانى فى سيرة الظاهر بيبرس، وأعطاه زورقا لينقذ بيبرس فيه من الحيلة التى أعدتها له الكاهنة الفلفلة، وقد دعا السلطان أن يكشف عنه الغمة فانفرجت الأرض ماء، وامتلأت، وإذا بالشيخ جياد يقابل سعد وإبراهيم وقال: (أنت ولدى بمقام عهد الله انزل قدم له زورقاً خشب، وميزاناً وقال له اقعد فى هذا الزورق وامسك هذا الميزان بيدك. وقال له: يا زورق وديه إلى باب النصر، فعندها شاهده السلطان، قال إبراهيم: لا تعترض فإن الله تعالى يعطى من يشاء، فقال سعد: يا مولانا أنا قابلت شيخاً اسمه الشيخ جياد، وقد أعطانى زورقاً، وميزاناً، فخذ يا ملك الدولة هذا)[١٨٦].

---

(١٨٥) سيرة سيف بن ذى يزن م١ – جـ ٧٠.

(١٨٦) السيرة – م٣ – جـ٢٨ – ص ١٩٠٠.

الفصل الثالث

الأسطورة والمكان

- المغارات
- الأديرة
- القلاع
- البرية وعناصرها الأسطورية:

السيوف المرصودة وأنواعها، الحيوانات (الغول، دابة البحر)، الثعابين الناطقة، البراق الخاطف، الخواتم المرصودة، المرايا، الملابس السحرية.

إذا كان كل شيء يجرى فى الزمان، فهو أيضا يجرى فى المكان فالفاعل الذى يقوم بفعل ما لابد أن يقع فى المكان، فيوظف الفاعل نسقه الوظيفى عبر فعل مؤطر فى الزمان ليدخل فى مرحلة زمانية، كذلك عندما يؤطر فعله بمكان، فيدخل أيضا مرحلة مكانية يقوم المكان بدوره فى تشكيل الحدث، أو تشكيل البطل، أو يكون هو ذاته بطلا، لذا فقد ارتبط الفاعل، أو الإنسان بعامة بوجوده المكانى الذى يأويه ويعيش، ويتعبد فيه فيصير مقدساً له، وتكون شخصيته مرتبطة بالحيز المكانى، فيرسخ نسقه الوظيفى ليلعب دوره فى الحياة بعد أن تنشأ علاقة روحية بينه، وبين المكان، فهو لا يستطيع إلا أن يجلس فى مكان قد اعتاد الجلوس فيه ليضع بذلك تجانساً ثابتاً يهيئ وجدانه، وحسه داخل الهوة المكانية، ويشعر بحقيقة، وجوده الفعلى فيأنس به. وإذا حاول الإنسان الهروب من هذا المكان باحثاً عن مكان يأويه خوفاً من صعوبات الحياة، أو مشكلة ما غالبا ما يحلم بوجوده فى مكان أسطورى يحكمه الجان، والعفاريت، أو السحر، أو الصناديق المسحورة، أو القلاع العاتية ليساعده على تحقيق رغباته السريعة عبر أزمنة فقيرة يتخطى بها الصراع، أو أنه يحرص على الإقامة فى أماكن مقدسة يسكنها (وليكن ضريح ولى الذى قيل أنها صورة مصغرة للعالم السماوى المقدس)، ولعل هذا ما يفسر لنا بناء الإنسان القديم الأماكن المقدسة مثل الكعبة، والقدس، وبابل فهى تمثل مع غيرها من الأماكن المقدسة صورة مكبرة للنظام السماوى المقدس، ومن ثم كانت بعض هذه الأماكن، ولا يزال بعضها الآخر يمثل وجوداً حقيقياً لا تتميز به الأماكن الدنيوية الأخرى فالإنسان الشعبى لا يسكن مكاناً جديداً، أو يعمر مكاناً غير مأهول إلا إذا أجرى بعض الطقوس مثل إشعال البخور، وقراءة التعاويذ، أو الآيات المقدسة، قد تذبح أضحية عند عتبة المسكن الجديد، وقد تدفن فيه تميمة أو حجاب تحت أساس البيت الجديد، ومن البديهى أن الإنسان الشعبي يفعل هذا

وهذا لكي يكون المكان قابلا للسكن، أما قبل ذلك يكون منتمياً إلى عالم الفوضى حيث تجد الأشباح، والعفاريت مأوى لها أي أن الإنسان الشعبى يستطيع أن يحول الفوضى إلى نظام عن طريق إجراء الطقوس، وبهذا يصبح المكان مقدساً، ومن ثم تنشأ العلاقة بينه وبين المكان(١٨٧)، وربما يختلف المكان فى قداسته وتنوعه بحسب درجة القداسة ذاتها، وبحسب إيمان المجتمع بها، ومن ثم هناك أماكن مقدسة، وأخرى دنيوية، فالأماكن المقدسة لا تتساوى فى قداستها حيث يحكمها درجات من القداسة (فالرجل المتدين لا يرى المكان متجانس التكوين فيكون هذا الاختلاف بحسب درجة قداسة المكان حتى تصل إلى قمتها، فالمكان الدينى له قيمة للإنسان المتدين يجد فيه ذاته متمثلة بوجود العالم)(١٨٨).

ومن الأماكن المقدسة فى المعتقد الشعبى (البرية وموطن الماء والغابة والمقابر) وفي ذلك أصول فى المعتقد الدينى عند الإنسان الأول، وفى الأديان السماوية، ولذلك تعيش هذه الأماكن قدسية خاصة فى المعتقد الشعبى يستجاب فيها الدعاء، وقد لعبت البرية بما فيها من جبل أو غار أو قفر دورا مهما فى تجربة الإنسان الدينية، ففى البرية بنى إبراهيم عليه السلام بيتاً يسمى "بيت الله الحرام"، وفى البرية عرف موسى الله وبعثه الله وكلمه تكليماً، وفى البرية تلقى محمدﷺ الوحي أول ما تلقاه فى غار حراء، فقد حبب الله إليه الخلوة فلم يكن شئ أحب إليه من أن يخلو وحده، (وهناك أماكن مقدسة اهتم بها المعتقد الإسلامى مثل "مزارات الأولياء، والأئمة، كقبور الحسن والحسين، والسيدة زينب، والسيدة نفيسة، والسيدة سكينة"، كما تم اعتبار مواطن الماء أيضاً من الأماكن المقدسة التى يستجاب فيها الدعاء، وأجمعت الأديان كافة على طهارة الماء وقداسته، فالديانة المصرية ترى أن أول موجود فى الكون إنما هو الماء فهو الإله الأول نون والد جميع الآلة(١٨٩) .

---

(١٨٧) نبيلة إبراهيم: المقومات الجمالية للتعبير الشعبى. ص ١٦٨.

(١٨٨) Eliade. M. The Socrad & Prafane. PP. ٢٠-٢١.

(١٨٩) أحمد شمس الدين الحجاجى – النبوءة ص١٠.

كما أن هناك أماكن أخرى تخيلية أسطورية أثرت النصوص بشكل واسع وأظهرت جانبا من الشخصيات التى تتعامل معها بصفتهم أسطوريين، فظهر من ذلك جانبا من الاحتكاك بين الفاعل، وبين هذه الأماكن فكشف عن قيمة الأدوار الفاعلة ومراحلها المختلفة لنسق التعامل الوظيفى، ويتجلى هذا بصورة واضحة فى السيرة الشعبية المليئة بالعناصر الأسطورية، والأماكن الأسطورية المختلفة التى تكون بعيدة عن الواقع التاريخى للبطل، لأن التاريخ يرصد ما كان عليه البطل أما الأسطورة تنشد ما يجب أن يكون عليه، فتعطى مساحات خيالية ذات مغزى اجتماعى فى المقام الأول كاشفة عن العلاقة بين الخير، والشر فتسخير الجان من قبل كاهن لا يوجد إلا فى قلاع مسحورة، أو برية، أو عين ماء، أو جبل إلى غير ذلك ليواجه البطل الذى يمثل الخير، فيخطفه من مكانه، أو فضائه لتحقيق الفعل داخل نسق السيرة، فبدون هذه الأماكن، والأفعال تفقد السيرة قيمتها وذلك ما ينشده الإنسان الشعبى السارد، والمستمع للسيرة، فالكل يتلاحم فى خلق بنية السيرة وعادة ما تتميز الأماكن لبطل لكنه يحن دائما إلى موطنه الأصلى لأن بطولته تمت، وترعرعت، وارتبطت بالمكان، فالأمير "حمزة البهلوان" عندما يحمله الجني الراعد إلى جبل قاف ويتزوج هناك من الجنية (أسما برى)، وتحمل منه، وتلد قريشة، وتظل تصنع له مختلف العوائق من سرقة بعض الذخائر، والهجوم على الفرس. يستمر فى جبل قاف ملكاً عظيماً لكنه يظل دائم الرغبة فى الرجوع إلى بلاده (مكة)؛ يخاصمها، ويخرج وحيداً منعزلاً، لا أمل له فى الوصول، ويحتمل المغامرات على أن يقيم خارج فضائه، وإن كل شخصيات السيرة الشعبية تمثل هذا الارتباط الوثيق بالفضاء الذى ينتمون إليه وحدهم، فبنو هلال تحملوا مشقة التغرب عن بلادهم بعد الجدب الطويل الذى أصابهم، وأحال الحياة فيها إلى موت محقق ولكنهم حين استوطنوا أفريقية صارت لهم وطنا يعز عليهم الافتراق عنه، أو مغادرته، ومعنى ذلك أن الفضاء ليس فقط ذلك المحيط الطبيعي الذي تألفه الشخصية، ولكنه أيضاً المحيط الحيوي الذي تتحقق فيه كل مطالبها، ورغباتها وهى تتفاعل مع شخصيات أخرى[١٩٠]، أو عناصر أسطورية تصنع مجالاً مختلفاً فى سير

---

[١٩٠] سعيد يقطين. قال الراوى ص ٢٤٢.

الأحداث كالأماكن المرصودة وفى سيرة الظاهر بيبرس كان حنين البطل إلى منبت وجوده، ونبوءته الشام، فربما يصارع قوى الشر فى مصر، وسرعان ما يحن إلى دمشق، وإلى أمه حسنة الدمشقية، ويظهر حنينه أيضاً إلى خوارزم العجم كموطن النشأة الأولى، وقد ظهر فى السيرة بجلاء أماكن لعبت دوراً مهما فى حياة الشخصيات.

(ومن ثم فهناك فضاءات كلية تتسع فى السير لبلاد العرب والفرس، والروم والفرنجة، والحبشة، والسودان، وبلاد الغرب، والأندلس، والهند، والصين، ونتعرف فى نطاق هذه الجغرافيا على أهم الوديان، والجزر، والجبال، والمحيطات أي على العمران، والخراب، ومعنى ذلك أن حدود العالم كما كانت متصورة فى العصور الوسطى نجدها مقدمة إلينا من خلال أهم الأسماء، والعلامات، فالفاعل المركزى يصل غرباً حتى المحيط الأطلسى، وشرقاً يوغل حتى جزر الواق واق، بل أنه يقف على جبل قاف (آخر الدنيا) كما أنه يتوغل شمالا إلى أقصى بلاد الروم والفرنجة، وجنوباً إلى آخر العمران فى بلاد الحبشة والسودان، بل أنه قد يصل إلى العديد من الفضاءات الخراب التى لم تصلها قط أقدام الإنس)[١٩١]. (كما امتدت أحداث سيرة الظاهر بيبرس من البحر المتوسط وجزره إلى طنجة غرباً وبلاد البرتغال، وبلاد العجم والهند والصين شرقاً، وبلاد العرب والحبشة والسودان جنوباً، وقد طُبعت هذه الأماكن بالأسطورة فأصبحت داخل السيرة لا وجود لها، وإنما هى بقاع مسحورة وطلاسم، وأرصاد، ووديان، ومدف، وجبال خارج حدود الزمن مثل "المدينة" التى دخلها بيبرس هو وأصحابه، وعاشوا فيها ثلاث سنوات، وتزوجوا وانجبوا، فلما رجعوا، وجدوا أنهم لم يمضوا فيها إلا ربع ساعة)[١٩٢].

أما الفضاءات الجزئية فهى تبدو من خلال ما تتضمنه الفضاءات الكلية من فضاءات تبرز على شكل ممالك، أو مدن تابعة لها مثل خراسان، الحيرة، بغداد، سرنديب، يثرب، طنجة، مصر، القسطنطينية، ملطية، دمشق، العريش ...إلخ، إن ذكر أسماء المدن، والقرى، والأديرة، ومختلف الفضاءات الجزئية

---

(١٩١) سعيد يقطين المرجع نفسه ٢٤٤.
(١٩٢) السيرة. م٢ – جـ١٢ – ص ٧، ١١.

الموجودة ضمن حدود الفضاءات الكلية لا تخلو من سيرة من السير، بل إننا داخل هذه الفضاءات الجزئية نجد ذكراً لفضاءات أخص كالقصور والأزقة والحارات ... الخ، لا سيما فى سيرة الظاهر بيبرس حيث تتعرف على بعض الفضاءات الخاصة التى ما تزال موجودة إلى الآن مثل القرافة، والأزهر، وقلعة الجبل، والحسينية، وبولاق، ومزارات بعض الأولياء والصالحين. وهناك صفات لفضاءات تقدم إلينا بصفاتها الدالة عليها وتشير بنسبة شئ دال على خصوصيتها، فتنسب إلى آدميين مثل جزيرة النساء، ومدينة الرجال، وأخريات إلى حيوانات مثل مدينة البق، ومدينة النعام، ومدينة الدجاج، أو إلى مخلوقات مركبة مثل وادي الغيلان، وجزيرة الكلبين، ومدينة العمالقة[١٩٣].

كل هذه الفضاءات بعامة تشكل نسقاً وظيفياً يكشف عن ماهية أحداث السيرة بعامة، فالمغارات والبرية والماء لعبوا دوراً بارز الأهمية فى سيرة الظاهر بيبرس كما لعبت العناصر الأسطورية الأخرى أيضاً أدواراً هامة داخل السيرة مثل الخواتم والعلب، والسيوف المرصودة، والمرايا السحرية، والطير الناطق إلى غير ذلك..، فالمكان في السيرة لم يكن مكاناً خالياً طلقاً، بل كان مليئاً بالأسرار، وهي بذلك تعتبر من الأشياء المادية التي كانت جزءاً من بنية السيرة الأسطورية، وقد ساهمت بشكل كبير في مساندة البطل وتشكيله.

المغارات:

تعددت المغارات داخل السيرة، وتنوعت وظائفها فمثلت المجهول الذى يحمل مفاجأة خارقة فى شكل سيف مرصود، أو قوس، أو خاتم سحرى يعطي من الحكيم القابع فى المغار، والذي ينتظر الموعود أن يدخل المغار منذ سنوات، فهو يعرفه هيئة واسماً، أو أن يتلو الفاعل اسمه، وحسبه، ونسبه حتى يُفتح له الكنز، وتكشف له الطلاسم عن مكنونات ثمينة.

فعندما ذهب الظاهر بيبرس إلى بيت لحم يبحث عن الراهب "سيرؤن" الذى قتل بعضاً من المسلمين، فتقابل مع بترك بيت لحم، فأمره البترك أن يتبعه

---

[١٩٣] سعيد يقطين. قال الراوى ص ٢٥٤ إلى ٢٥٥.

ليأخذ شيئا خاصاً به مدفون فى مغارة منذ زمن بعيد، سيساعده على تخطى الصعاب فلما تبعه السلطان إلى مغارة فوجد بها سرًا وعالمًا عجيباً بها حكيم يدعى كاترين كان ينتظر قدومه وليهديه خاتما مرصودًا من الفضة سيكون له وظيفة داخل انساق البطل الوظيفية السيرة، فقد يهلك عدواً بتحوله إلى حربة أو سيف خفيف[١٩٤] .

وربما يكون مرور البطل، أو الفاعل بالمغارة سبباً فى تأكيد بطولاته، وتحقيق هدفه وذاته، سواء كان مسلماً، أو مسيحياً مثل استعادة أحد الشخصيات المسيحية لملك معقود منها، مثل الملك "ضابح" الذي فقد ملك أبيه، ومملكته إذ يدخل فى إحدى المغارات التى يجد بها ضالته، وترد إليه ضيعته، ويتحول من اللاشيء إلى بطل، بدخوله المكان الذى صنعه بطلاً وملكاً، فقد رأى ما لا عين رأت من كنوز وحيوانات، وسيوف، وأعمدة حديدية مرصودة، وكانت درعاً لأساس ملكة، وقدوه ومن ثم ساهم المكان بعامة فى نسق القدر للبطل لأن يكون بطلاً أسطورياً، فقد تجانس مع المكان الأسطورة ليواجه العالم الخارجي[١٩٥] .

وقد تحمل المغارة قدراً لبداية تكوين بطل، ونهاية للحكيم، أو الشيخ الحارس المنتظر على تلك المغارة، ومن ذلك ما سمعه "أحمد العزيز بن تقمطر" أخو بيبرس وأمه مريم الحمقة منادياً بأن يدخل المغار، فوجد شيخاً يناديه باسمه، ويعطيه حصاناً، وعدته كأول طريق لتأكيد الفروسية، والبطولة، فقد كان هذا الحصان أسطورياً، ونسله من البر والبحر، وقد رصد من زمن بعيد إلى أحمد العزيز، حتى إذا أخذه التفت الحارس، وأمره أن يدفنه فى المغار، وقد انتهى عمله بأدائه للأمانة المرصودة، وما بقى له إلا أن يبقى جسدا فى هذا المكان[١٩٦] .

وقد يكون ما بالمغار ما هو شفاء للناس، فعندما كف بصر بيبرس دخل مغارة هرباً من الكاهن "أرمالية" الذى توعده بالقتل لكن بيبرس يجد بالمكان

---

(١٩٤) انظر ملحق السيرة : فقرة (٨٢).
(١٩٥) انظر ملحق السيرة : فقرة (٨٣).
(١٩٦) انظر ملحق السيرة : فقرة (٨٤).

سلاحًا يحمل وظيفتين أولها المساندة للبطل فى قتل الغريم، وثانيهما شفاء بيبرس من مرضه، فقد كان قدر بيبرس أن يجد فى نفس المكان عدوه، ليحمل المكان البطل، والعدو، والصراع الذى يدور بينهما، فقد تحول الصراع من القضاء الخارجى إلى فضاء المغار ويتبلور ذلك فى فضاء النص السردى، فتبين من ذلك قوة التأثر من بداية الصراع للعدو المبصر، البطل الكفيف ويكون للمكان دوره كبطل مساعد وفى إحداث التوازن النسقى بين الأدوار فالفاعل المركزى الأول يحتاج إلى عون ومساعدة كى يتغلب على غريمه، فيتزود بسلاح أسطورى فى التو واللحظة، ويتبدل حال من حال فإذا كان الفضاء الخارجى قوى خارجية متمثلة فى الأولياء، فالفضاء الداخلى المتمثل فى المغارات قوى أسطورية، وأسلحة مرصودة وعناصر أسطورية مطلسمة، فيكون هناك تعاون بين القوى بكل أشكالها لصالح البطل فالكون كله مسخر لخدمته، فإذا كان المجتمع قد حمله مسئولية حمايته، فإن الطبيعية قد تعهدت بحمايته كبطل مخلص يزود عن مجتمعه بعامة، وزودته بأسلحة أسطورية، وجعلت له كوناً أسطورياً فاستحق أن يكون بطلاً أسطورياً حلق فى بينية أسطورية داخل السيرة[١٩٧] .

الأديرة:

لعبت الأديرة دوراً مهما فى توظيف فعل الأبطال، وإرشادهم إلى الأعداء، أو إلى عناصر أسطورية تعينهم على قتل العدو، ففى الدير وجد شيحة ضالته (العربة والصندوق) الذي يقطع عليهما جوان كما وجد من قبل كتاب اليونان، وفى الدير أيضاً يتزوج أحمد العزيز بنذرة المسيح بنت الملك "سرادينة"، ثم تسلم على يديه، ويقابل الحكيم، ويأخذ السيف، والحصان المرصودين. وفى الدير أيضاً تبحث الكاهنة "بحرونة" عن سيف مرصود لقتل المسلمين أما بالنسبة لتجانس الزمان، والمكان كنسق وظيفى مع نسق وظيفى

[١٩٧] انظر ملحق السيرة : فقرة (٨٥).

آخر لتحقق الفعل المؤجل، فقد تمثل هذا فى كتاب اليونان الذى ذكر مكان تقطيع جوان، وذكر الفاعل بهذا المكان "شيحة" الذى شرع فى قتل جوان، فلما علم جوان أن أجله قد حان دخل ديراً فتوجه شيحة للسلطان قائلا (يا ملك الإسلام صدق كتاب اليونان، وهذه آخر هروبته وهو راح إلى دير الشفيق ومنه يأتينا جوان، والعربة، وآلة التقطيع، وها أنا طالع فى طلبه. فذهب ورأى رجل اختيار، وفتح الدير، وسمع قائلاً يقول: حوّد عن الصناديق، وخُذ عن يمينك، فتقدم إلى جهة اليمين، وارفع الستاير تجد عربة من الحديد الصينى، ولها سلسلتين وكلاليب أربعة من البولاذ، وفى العربة صندوق برجلين، وعن يمينها كانون من حديد، وعليه مقلة من الحديد الناعم، وكرار نحاس مليان زيت، ومحل، ومقعد، وسكاكين، ومحل آخر فيه صندوق مغطى، فدخل المكان الثالث فسمع القائل يقول: خُذ العربة، والصندوقين، وخُذ جوان فهو فى صدر الديون)[١٩٨].

وفى المكان أو الدير يتزود الفاعل، أو البطل بسلاح يحميه فى غزواته أو ينال مالا أو ربما يكون سببا فى هداية امرأة للإسلام داخل هذا المكان، مثلما كان "لأحمد العزيز بن مريم الحمقة" وذلك عندما هرب من السلطان ودخل دير البنات تزوج بنذرة المسيح، وقد أسلمت على يديه وقالت: له: (اعلم أن خدعة المجنون ملك جبار فاصح لروحك منه لأنه إن علم أن خلصتك قتلنى، وقتلك، وسمع أحمد العزيز فى الدير قائلاً إن كنت أنت أحمد العزيز بن مريم الحمقة، وأبوك تقطمر فاقصد قدامك تجد لوح من الرخام، فارفعه من مكانه تجد باب كنز تحته حسبك، ونسبك، ولا تطمع نفسك فى شئ تأخذه مما تراه فى صدر المكان، وتجد الحكيم قطعتين نائماً، وعلى رأسه سيف معلق واسمه "الصمصام" خذه فإنه لك وأنا راصده فإن أخذته امض إلى حال سبيلك)[١٩٩].

كما حمل المكان أيضا سرا للعدو يعينه على المسلمين ليكون بذلك تعادلا فى الفعل والفعل المضاد فلم تقتصر الأمكنة، أو الأديرة على حمل أسرار

---

(١٩٨) السيرة. م٥ ـ جـ٤٠ ـ ص ٢٩٤٢.

(١٩٩) السيرة. م٤ ـ جـ٤٠ ـ ص ٢٦٧٠ إلى ١٦٧١.

للمسلمين بل كانت سرا للكهان، وظهر ذلك فى مكيدة من جوان ساعدته فيها الساحرة العجوز بحرونة فقالت: (يا أبانا آيش الذى فكرك حتى أتيت لبلادنا مع أننا نسمع بذكرك، ولم نرك قال يا بنتى لما رضى عليك المسيح أتيتك لأجل أن تكسبى لك غزوة فى دين المسيح قالت: ما هى؟ قال: المسلمين، قالت: وهل لهم ملك؟ قال: نعم اسمه بيبرس. فقالت: يا جوان أنا كنت أعلم فى هذه الجزيرة دير التماثيل وفيه سيف الأخفى موضوع فى بير فذهبت إلى الدير، وتلت اسمها، وفكت الرصد، واطلعت السيف، وقالت لجوان: أنا كنت أظن أن المسلمين يغلبونى، ولما ملكت ذلك السيف لم أبال بالمسلمين، ولو اجتمعوا أجمعين)[٢٠٠].

القلاع:

القلاع يكمن دورها الوظيفى فى تهيئة الإثارة، والدهشة داخل السيرة، ولم يكن هذا فحسب، بل إننا أمام مساحات رحبة تتحرك بحرية قد ساهم الراوى في بنائها بقسط وفير لتجسيد الأحداث، فتصبح جزءاً حيوياً داخل نسيج السيرة، وخاصة أنها تحمل بطلا بداخلها قد يكون محبوساً يصعب خروجه منها، أو ربما يتيه داخلها لما تملكه من عناصر أسطورية، وأرصاد سحرية كما أنها تمثل عنصر المفاجأة وغالبا ما يحتاج البطل إلى دعوة ولى أو تسخير جان لينقذه من هول المفاجأة أو المأزق الذي وقع فيه، وقد أطلقت أسماء على تلك القلاع دالة على ما بها من خوف وهلع، مثل قلعة "الموت"، وقلعة "البرابخ" التى تحتوى سجن يسمى "سجن الحسرات"، وقلعة "الفشن" ذات الجبال الثلاثة. وقد اختُطف السلطان بيبرس وسُجن فى سجن الحسرات بقلعة البرابخ، وقد لاقى عذاباً شديدًا فى القلعة، فهى تقع على جبل من جهة الغرب، وبها نحاس أصفر ملتهب، أما البحر فيجرى بين دروبها وأزقتها، وكل من سُجن بها مات بتيار هذا البحر الشديد، أو محروقاً من شدة حرارة النحاس[٢٠١].

إذا كانت القلاع مجهولة تماماً للفاعل المركزى الأول للخير المتمثل فى بيبرس فهى أيضا كذلك للفاعل المركزى الأول للشر جوان من خلال نص

---

[٢٠٠] السيرة. م – جـ٤٠ – ص ٢٦٩٢.

[٢٠١] انظر ملحق السيرة : فقرة (٨٦).

يحمل فانتازيا حكائية، فقد تاه جوان، وضل الطريق مع قبطان كان برفقته (فبكى القبطان فقال جوان: يا قبطان أخبرني عن هذه القلعة، وايش خوفك منها فقال القبطان يا أبانا هذه قلعة الفشن، وهى بين ثلاث جبال من الثلاث جهات التى حولها والبحر من الجهة الرابعة وأرضها ملونة طولها وعرضها سبعة أيام مسير طول، وعرض من البر وليس لها أبواب لأن أسوارها جبال، ولها باب واحد على البحر ولم يأت إليها أحد ولا يعرفها ولا يدخل مكانها إلا المراكب الضالة، وملكها اسمه "اليبب بايرين"، ووزيره اسمه "صطرين"، واسم الأرض عروق الذهب، ومرج الديبلج لأن فيها زرع مثل العنكبوت كل صبح يجمعونه البنات يأخذونه إلى أهاليهم يسبكون الرصاص فى النار ويضيفوا عليه من هذا الزرع يخرج لهبا وأما إذا حميت الشمس فيصير شوكا ويسد عروق الذهب وتجد الأرض ناعمة كأنها الديباج ولم يعمها غبار بل هى أنعم من الحرير وملكها البب بابرين جبار وله مراكب تقرض فى البحار)[٢٠٢].

البرية:

لا شك ان الفضاء أعم من المكان، لأنه يشير إلى ما هو أبعد وأعمق من التحديد الجغرافى، وإن كان أساسيا (لأنه يسمح لنا بالبحث فى فضاءات تتعدى المحدد والمجسد، والمعانقة التخيلي والذهني، ومختلف الصور التى تتسع لها مقولة الفضاء)[٢٠٣].

وللبرية نسق فى تشكيل الفرد بكل ماله من أحاسيس ووجدان ومن ثم يكون أكثر إلتحاما بالفضاء فالإنسان يرتبط بوطنه رغم صعوبة العيش فيه، فيصل حبه إلى درجة القداسة لهذا الفضاء وخاصة أن كل أحداثه ارتبطت بالمكان وتعلقت به فتفشت فى الذاكرة والوجدان وقد وجد الجاحظ ذلك فى "رسالة الحنين إلى الأوطان" حيث الإنسان وارتباطه بوطنه رغم قسوة عيشه،

---

(٢٠٢) السيرة. م٤ – جـ٣٨ – ص ٢٥٧٨.

(٢٠٣) حميد الحمدانى، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبى، المركز الثقافى، بيروت، الدار البيضاءن سنة ١٩٩١، ص٥٣.

وسوء معاشه، فقد سئل أعرابى كيف تتحمل الحياة فى هذه الصحراء إذا اشتد القيظ، وانتعل كل شيء ظله؟ قال: وهل العيش إلا ذاك .. يمشى أحدنا ميلاً، فيرفض عرقاً ثم ينضب عصاه، ويلقى عليها كساءه، ويجلس فى فيئه يكتال الريح، فكأنه فى إيوان كسرى[٢٠٤].

فالفضاءات المترامية فى حقيقتها محتوى لوجدان الإنسان، فالبرية تحمل خيال واسعًا وجدان المتعلقين بها، فهى تحتوى على إمكان ذات قداسة تجد احترامًا وتقديرًا للإنسان المتدين وغير المتدين، ومن ثم أثرت البرية فى وجدان الشعراء والمفكرين، ورواة السير فقد أضفوا موروثهم الثقافى فى داخل النصوص.

ففي البرية تجلى الله على موسى وكلمه تكليماً، كما تجلى على عيسى عليه السلام، وتلقىٰ محمد (ﷺ) الوحي أول ما تلقاه فى غار جبل حراء، فقد حبب الله إليه الخلوة فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده ومن ثم جال الراوى فى السير الشعبية بخياله لكي يصنع موقفا أو نسقا للبرية، بما لها من استبقا فى موروثة الثقافى والدينى ففى سيرة أبى زيد الهلالى استجيبت دعوه أم أبى زيد الهلالى أن يمنحها الله طفلاً، وفى سيرة الظاهر بيبرس، استجبت دعوة الظاهر بيبرس لأن يكون سلطانا على البلاد كما تلقى لقبه الظاهر من الصالح أيوب الذى يعد وليا صوفيا داخل السيرة ومن ثم جاء إطلاقه للقب الظاهر على بيبرس نتيجة نبوءته أنه سيظهر ويحتل مكانة كبيرة بين أتباعه، وسيكون له شأن فى الجهاد الإسلامى ضد الغزو الصليبى المتمثل فى شرجوان الذى كان يكيد له كيداً [٢٠٥].

القصور المهلكة:

هى فضاءات مغلقة مليئة بالعناصر الأسطورية التى تشكل إطارا يتحرك فيه البطل وغالبا ما تكون ضده، فقد يحبس فيها، وقد يكون وسيلة

---

[٢٠٤] الجاحظ: رسالة الحنين إلى الأوطان، ضمن رسائل الجاحظ، تحقيق عبد مهنا، ١١،دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٨،٢٤٨.

[٢٠٥] انظر ملحق السيرة : فقرة (٨٧).

لتأديب من البطل لأحد أبطاله لمساعدين من العياق، والعيارين المنشقين عن الجماعة فالقصور والجزر تشكل نسقا لشكل الصراع الداخلى بين البطل، وأتباعه مثل جزيرة الشقيق التى بناها الكاهن الأسود، وقد أراد بيبرس أن يؤدب المقدم نجم الدين الغيور، لما دبره من حيل ضده شيحه واتحاده مع جوان ضد المسلمين وقد أشار أن يحبس نجم الدين العبور فى هذه الجزيرة إلا أن بيبرس أشفق عليه من هولها، وشدة بأسها فهى التى تتكون من قصور مهلكة يصل عددها إلى سبعة قصور وقلاع وكل قصر به ملىء بالذهب والفضة، وبه سبعة ملوك وآلاف الجنود، لم يعرف لمداها نهاية، ومن داخل بها ضل، وهلك(٢٠٦) .

الوديان:

الوديان أمكنة للفقد، والضياع لاتساعها، وتعرج مسالكها فقد يضل قاطن الصحراء نفسه فى دروبها، مثل "عرنوص بن معروف" عند دخوله فى وادي الجنيات أثناء مطاردته لغزال، فوجد نفسه فى هذا الوادي الذي يتكون من عدة أودية، قد يجد الراوى سرد الأحداث فرصة للفانتازيا وعرض الغرائب، والعجائب التى يلاقيها البطل الذى يجد أشخاصًا، ووحوشًا من الذهب، والفضة أشجارًا من المعادن، وقصوراً قابعة فى بحار، وأنهارًا من عسل مصفى، وطرق ليس لها بداية ولا نهاية حتى إذا لعب الخيار فى الحدث حال فيه شرقًا وغربا ووجد البطل من يخرجه من هذا الوادى فقد يكون شخصا ممسوخًا أو عفريته من الجن تسلم على يديه، وما كانت هذه الفانتازيا إلا عرضا يتبعه هدف رئيسى يحمل وظيفة عامة فى سرد السيرة هو الهداية للإسلام سواء للبشر، أو للجان(٢٠٧) .

عين الماء (البرك):

الماء كان له دوره الوظيفى فى المعتقد المسيحى داخل السيرة فقد مثل القداسة والطهر، وشهدت أماكن الماء صراعاً بين المسيحيين والمسلمين، وتأثر

(٢٠٦) انظر ملحق السيرة : فقرة (٨٨).
(٢٠٧) انظر ملحق السيرة : فقرة (٨٩).

الراوى بالموروث الدينى لفكرة السماء والاعتقادية، فأماكن الماء مقدسة، وأجمعت الأديان على طهارة الماء (فالديانة المصرية القديمة ترى أن أول موجود إنما هو الماء فهو الآله الأول "نون"، والد جميع الآلهة "أن مكاناً عالياً من الأرض كان أول ما ظهر على سطح ذلك الخضم القديم الذى سموه نون، وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم، فهو التل الموغل فى القدم، وبوقوف هذا التل القديم ظهرت المعالم الأولى للحياة)[٢٠٨] .

وفى سفر التكوين من العهد القديم، يبدأ بذكر الماء مقترنا بروح الله به، يرى على وجه المياه "فى البدء خلق الله السماوات الأرض وكانت الأرض خربة خالية، وعلى وجه الغمر ظلمه وروح الله يرق على وجه الماء[٢٠٩]. ويذكر القرآن الكريم أن الماء أصل الحياة فى قوله تعالى: (أوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أفَلا يُؤْمِنُونَ) (سورة الأنبياء، آية٣٠)، وكما جعلت اليهودية من الماء وسيلة للطهر، كما بنيت شعيرة التعميد فى المسيحية على الماء، قامت عليه فى الإسلام شعيرتان من شعائر العبادة الأساسية الاغتسال والوضوء، فالصلاة لا تتم إلا بالوضوء، وطهارة الجنب لا تتم إلا بالاغتسال والوضوء، والغسل لا يتمان إلا بالماء فى حالة وجوده، والموتى لا يدفنون فريضة على الأحياء من المسلمين إلا بعد الغسل ولما كانت المياه تمثل الحياة للإنسان عبدها الإنسان أولاً، وتصورها قوة كونية عليا، فعبد المصريون النيل وعدوه أوزيريس وكانت لعيون الماء فى مناطق الصحراء قداسة لا تقل عن قداسة النيل عند المصريين فقد كانت عين عذارى هى العين المقدسة عند أهل أوال البحرين القديمة كما كانت بئر زمزم مقدسة عند العرب فى الجاهلية وما زالت مقدسة عند المسلمين، واحتفت بها المعتقدات الشعبية.

وفى سيرة الظاهر بيبرس كانت عيون الماء والبرك أداة أماكن مقدسة للمسيحيين مما جعل شيحة يشتغل هذه الأماكن للاحتيال على العدو، معتمدًا

---

[٢٠٨] أرمان، أدولف، ديانة مصر القديمة، ت عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، القاهرة – ص ٧٣/٧٢.
[٢٠٩] العهد القديم ، الاصحاح الأول .

على ثقافته وقراءته للإنجيل فقد تمثل فى صورة راهب وأخذ عددًا لا بأس به من النصارى وأرشدهم إلى بركة الهوام حيث التعميد والطهر وأن ماءها يحميهم من سيوف المسلمين ففرح المسيحيون بذلك كثيرًا لكن البركة لم يكن بها إلا مياه هالكة تقتل وتهلك من بداخلها، فلما خلعوا ثيابهم ونزلوا فيها وهلكوا جميعًا، كما خدعهم أيضا فى بركة الحوت فقد كانت أماكن الماء أداة مهيئة لنسق الحيلة والتى تعد سلاحًا آخر يضاف للقوى العسكرية وتسخير الجان[٢١٠].

كما حملت الأمكنة الكهان أدوارهم الوظيفية فى تسخير العناصر الأسطورية المتمثلة في الأرصاد، والصناديق المسحورة، والعلب، والسيوف المرصودة، والشهب القاتلة، والبراق الخاطف، والحيوانات الممسوخة، والخواتم المرصودة، والطيور الخاطفة ... ألخ، التى ساعدت البطل، أو الفاعل المركزى الأول فى إنجاز مهمته فقد تضافرت القوى الحقيقية المتمثلة فى الجنود، والأبطال المساعدين مع القوى الخفية، أو الأسطورية لمساعدة البطل، وكانت الوسيلة لتسخير هذه العناصر الكهان فى تسخيرهم للجان ضد البطل المسلم فيقلب الفعل إلى فعل مضاد، ويساعد البطل ويهاجم العدو لعل هذه العناصر لا تخلو منها سيرة شعبية لتلخص دور البطل المسلم، ودور القوى الغيبية المتمثلة فى الأولياء التى تحبط ما صنعه الكهان فهذا اللون ضارب فى القدم فقد نشأت الكهانة (فى العرب فى الأكثر وفى غيرهم على وجه الندرة لأنه شئ يتولد على صفاء المزاج الطبيعى، وقوة مادة نور النفس)[٢١١].

كما ساهم اليونانيون والروم فى التكهن (وكانوا يدعون العلوم من الغيوب فادعى صنف منهم أن نفوسهم قد حنت فهى مطلة على أسرار الطبيعة، وعلى ما نريد أن يكون منها لأن صور الأشياء عندهم فى النفس الكلية، وصنف من ادعى أن الأرواح المنفردة المتمثلة فى الجن التى تخبرهم بالأشياء قبل كونها وأن الأرواح كانت قد صنفت حتى صارت تلك الأرواح من الجن متفقة)[٢١٢]،

---

(٢١٠) انظر ملحق السيرة : فقرة (٩٠).
(٢١١) المسعودى. مروج الذهب جـ١ – ص ١٩٨.
(٢١٢) المسعودى. مروج الذهب جـ٢ – ص ٢٥٢.

(فالكهانة إذن صنفان صنف ينجم عن صفاء الروح وصنف ينجم عن الاتصال بالأرواح ولكن الذى لا شك فيه أن الصنفين معا يرتبطان بالديانة القديمة ويخدمه الهيكل الطقسى داخل المعبد فالكاهن فى كل الأحوال هو رجل الدين العارف بأسرار الديانة، والقادر على الاتصال بالروح عن طريق الشفافية المطلقة، أو عن طريق أعوانه من الجن والشياطين)[٢١٣]، ومن ثم فإن (الكهنة لا يؤثرون بذاوتهم طبقا لطقوس السحر فحسب وإنما أيضا بحكم تحكمهم فى مخلوقات ذوات قوى فائقة تحول إدارتهم وتلبى أوامرهم)[٢١٤] (وتستعبدهم بارتكاب المعاصى والمحظورات مما لله جل اسمه فى تركها رضا)[٢١٥].

وقد تجمع الوظائف الكهنونية والسلطة فهناك كهان ملوك مثل الملكة بحرونة ودواهى وشواهى ...الخ داخل السيرة (وكان هذا أمرا مألوفا فى كثير من المناطق مثل أسيا الصغرى التي كانت مركز العدو وفيها العواصم الدينية الكبرى التى يسكنها آلاف من العبيد المقدسين ويحكمها رؤساء دينيون كانوا يجمعون بين السلطتين الزمنية والروحية مثل بابوات روما فى القرون الوسطى ومن هذه المدن التى كانت تخضع لحكم الكهنة زلة Zela وبيسيون Pessinws كذلك يبدو أن الملوك التيوتون فى العصور الوثنية القديمة كانوا يشغلون منصب كبار الكهنة ويمارسون سلطاتهم)[٢١٦]، لذا أضفوا سلطتهم على الأمكنة وعلى ما بها من عناصر أسطورية كأدوات مطلسمة قديمة (غالبا ما تكون من الموروثات القديمة للأمم، والملوك البائدة كأن تكون "كوشى بن كنعنان" أو كنز "سام بن نوح"، أو من كنز "أصف بن برخيار" وزير نبي الله سليمان عليه السلام، أو من كنوز سليمان نفسه مرصودة باسم البطل نفسه، وغالبا ما يستطيع البطل الحصول على ذخيرته، أو الأداة المرصودة له بمساعدة شيخ، أو حكيم، أو كاهن يدله على مكان الكنز، وعلى الطريقة التى يستطيع أن يستخرج بها الكنز، والأداة بعد أن يدله على كيفية قتل الرصد، وعلى البطل أن يتتبع تلك

---

[٢١٣] فاروق خورشيد: الموروث الشعبى ص ٧٦.

[٢١٤] فاروق خورشيد: الأدب الشعبى العجيب ص ٧٥.

[٢١٥] فاروق خورشيد: الموروث الشعبى ص ٨٨.

[٢١٦] جيمس فريزر: الغصن الذهبى – ص ٧٦.

التعليمات بدقة وإلا كان من الهالكين)[٢١٧]، ومن ثم لم تكن هذه الأماكن فارغة تؤثر فى البطل بكونها مكانا فقط، وإنما بما تحمل من عناصر أسطورية كانت أداة عون، ومساعدة للبطل، وبها أصبح البطل أسطوريا، فعندما يحمل سيفا خفيفا، يقطع فى رقاب العدو دون أن يراه أحد، أو يحمل خاتما يخفيه عن عيون البشر، أو يركب على جردية نخل تنقله من الشام إلى مصر فى طرفه عين، أو يتحدث مع هوام البحر الا يكون بطلا أسطوريا؟ لذا سنعرض هذا العناصر، ونبين مدى تأثيرها فى حياة البطل وأنساقها الوظيفية التى امتزجت مع نسق البطولة العامة.

السيوف المرصودة:

١ـ سيوف مرصودة لقتل البشر:

كثرت هذه الأمكنة وما بها من الأرصاد فى المجلدين الرابع والخامس فى السيرة حيث احتدم الصراع، وكثرت المكائد، والحروب، وقامت هذه العناصر الأسطورية بوظائف عدة مثيرة.

فالسيوف المرصودة والمطلسمة قد تساعد البطل فى تحقيق هدفه، وقد تكون نقمة عليه، إذا امتلكها العدو مثل الكاهنة السوداء التى حصلت على سيف مرصود، وأمرت ابنها أن يقتل ملك المسلمين به، ثم خلعت عليه ثياب عرنوص المرصودة حتى إذا دخل الفتى ديوان السلطان ظن بيبرس أنه البطل عرنوص ولما توجه الفتى إلى السلطان عرفه أحد العيارين، الذى لم يستطع قتله إلا بعد أن استولى على السيف المرصود.

٢ـ سيوف مرصودة (تخفى البشر):

وهناك سيوف تخفى الأبطال وتكون ضربا من الفانتازيا التى تثير الدهشة والعجب فهذه السيوف إذا امتلكها إنسان لم يره بشر فيستطيع أن يصل، او يسرق أو يحدث فتنة فى البلاد، ويسبب الذعر والهلع والخوف فلا يمكن

---

(٢١٧) خطرى عرابى: البنية الأسطورية لسيرة سيف بن ذى يزن – ص ٧٦.

السيطرة عليه إلا برصد أو قوى غيبية ترى ما وراء الأشياء، وتكشف الغيب، متمثلة فى الأولياء، مثل ما حدث للملك البب (لهب النار) الذى طلع يوما للصيد والقنص فدخل مغارة فرأى كنزا (فنزل فيه وأخذ سيفا من الكنز وطلع حتى صار خارج الكنز أغلق باب الكنز وأخذ سيف الإخفاء المشهور الذى كان بيديه والتفت فلم ير المغارة ولا الكنز فلم يروه أصحابه فقال لهم أنتم لم تنتظروا صورتى فقالوا له: وأين أنت؟ وتعجبوا من هذا الحال، فراح يقتل المسلمين. فقال أبو علي البراج: يا سلطان المسلمين طلع كتاباً، من باشة إسكندرية يقول ظهر فى بلدنا سيف اسمه سيف الإخفاء يكون الرجل ماشيا ما يشعر إلا ورأسه طائر من على جثته)[٢١٨].

٣- سيوف تقتل الأنس والجان:

وهناك سيوف تقتل الإنس، والجن أصحابها من الجن قد أهدوها لبطل كان سبباً في فك أسرهم من عالم الجن، مثل الجنية "مرجانة بنت الملك البرهجان" التى قابلت الأمير "بكتمر السعدي"، وكانت فى صورة أفعى مختطفة من قبل عفريت اسمه شيشير، وعندما هم بكتمر بضربها تمثلت آدمية، ثم أثنت عليه صنعه، وقالت له: (أرحتنى من ذلك فشكر الله فضلك كما أرحتنى فخذ يا سيدى سيف العفريت فتقلد به فإنه ذخيرة لا تطير لها، فإذا حاربت به فى الميدان فإنه يقطع فى الانس والجان، وسوف أعطيك كحل الجلالات، فإذا إكتحلت به فلا ينظرك إنس ولا جان)[٢١٩].

وكان من بين أبطال المسلمين من يملك سيفا مرصودا عندما يضرب به يشعر العدو الذى أمامه بأن جانا أو ثعبانا أو حية قد لدغته، وهو سيف عرف (بذى الحيات) وهو في حوزة إبراهيم بن حسن الخورانى وله القدرة أيضاً على فتح الكنوز، وفك الطلاسم لأمكنة مرصودة، وقد ساعده كثيرا فى القبض على جوان[٢٢٠]. كما أن الكاهنات وأرصادها منازل فقد يحاربن بعضهن بنفس

---

[٢١٨] السيرة ــ م٢ ــ جـ٣١ ــ ص ٢١٣٦ ــ ٢١٣٨.
[٢١٩] السيرة ــ م٤ ــ جـ٣٦ ــ ص ٢٤٠٨ ــ ٢٤٠٩.
[٢٢٠] انظر ملحق السيرة : فقرة (٩٠).

السلاح لكن الغلبة لمن كان سحرها، ورصدها أقوى مثل الملكة جميلة بين ملك الحبش زوجة شيحة التي نازلت الكاهن برهوت (وصاحت على الكهين فعلم المقصود، وقام إليها، وحاربها بأبواب السحر، ودام بينهما السحر مرصودة، وقعت فى صدرها، فماتت من وقتها، ونظر "طود البحر" ابنها ما جرى لأمه، وأراد أن يحاربه فضربه بحسام مرصود فقسمه نصفين)[٢٢١].

الحيوانات الأسطورية (الغول):

الحيوانات الأسطورية فى السيرة تمثلت فى الغول، والحصان، والثعابين. فالغول قد ساد معظم السير بعامة، ويعد من الشخصيات العجائبية، حتى عرفه اللغويون بأنه (جنس من الشياطين والجن، وكانت العرب تزعم أن الغول فى الفلاة تترءاى للناس فتتغول تغولا أي تتلون تلونا فى صور شتى أو تغولهم أي تضلهم عن الطريق، وتهلكهم)[٢٢٢]، وقد نفى النبى (ﷺ) ما زعمه العرب فقال: (لا عدوى، ولا هامة، ولا صفر، ولا غول)[٢٢٣] (وقد قيل قوله لا غول ليس نفيا لعين القول، ووجوده، وإنما فيه إبطال زعم العرب فى تلونه بالصور المختلفة واغتياله فيكون المعنى بقوله لا غول أنها لا تستطيع أن تضل أحد)[٢٢٤] (ويبدو أن بعض اللغويين قد فهم هذا اللفظ على نفى عين الغول فالغول عندهم حيوان لا وجود له)[٢٢٥] (أنه حيوان شاذ من جنس الحيوان مشوه، ولم تحكمه الطبيعة، وأنه لما خرج منفرداً فى نفسه وهيئته توحش من مسكنه فطلب القفار، وهو يناسب الإنسان، والحيوان البهيمى فى الشكل)[٢٢٦] أما دابة البحر فهى حيوان أسطورى بحرى ضخم الجثة. وقد عرف الغول في مجتمعنا العربى بالشر، فتخشى الناس ذكر اسمه لكثرة ما هو خرافى، وليس له

---

(٢٢١) السيرة – م٥ – جـ٤٣ – ص ٣٠٦١.
(٢٢٢) ابن منظور: لسان العرب ١١/ ٥٠٨.
(٢٢٣) المرجع نفسه: ١١ / ٥٠٨.
(٢٢٤) المرجع نفسه ١١ / ٥٠٨.
(٢٢٥) المنجد فى اللغة – دار المشرق – بيروت – ص ٥٦٢.
(٢٢٦) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر ١٥٦/٢.

شكل محدد. فيكون ذلك أكثر تخيلا، وخوفا لكل فرد. فأطلقوا أمثلة للشر بذلك الكائن (عامل زى الغول) كما تخيلت المجتمعات أن (الغولة) أنثى الغول، فأضفوا ذلك على المرأة الشريرة التى تنحت عن صفاتها الأنثوية (عاملة زى الغولة)، (كما كان لفظ الغول مصدر دعاء بالشر على الإنسان (غول ياكلك) ولكن الغولة فى الحكايات الشعبية وردت مقترنة بجانب الخير وجانب الشر)[٢٢٧].

وقد أورد المسعودى حكاية على لسان بعض المتفلسفين (أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان مشوه لم تحكمه الطبيعة، وأنه لما خرج منفرداً فى نفسه، وهيئته توحش من مسكنه فطلب القفار، وهو يناسب الإنسان، والحيوان البهيمى فى الشكل[٢٢٨] ولكن هناك من نفى وجود هذا الكائن نهائيا (فرأى أنه حيوان لا وجود له)[٢٢٩]، و(استطاع راوى السيرة أن يكون حول هذا أسطورة لتفسير وجود الغيلان بهذه الهيئة الإنسانية الحيوانية).

(وفى سيرة الظاهر بيبرس قد زاوج الراوى بين جنس الغول ودابة البحر ذلك الحيوان الأسطورى البحرى الذى قال عنه المسعودى ساردا قصة "عمران بن جابر" الذى عبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها وهى دابة ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها تفادى قرن الشمس من مبدأ طلوعها إلى حال غروبها. فاغرة فاها نحوها لتبتلع عند لفها الشمس فعبر على ظهرها، ودار بدورانها لعين الشمس حتى صار البحر فرأى النيل منحدرا من قصور الذهب من الجنة)[٢٣٠].

ومن ثم أراد الراوى أن يضخم من هذا الحيوان فعرفه بالمغول المهول الذى خرج لإبراهيم بن حسن الحورانى، وهو في حديقة الملك "رومان"[٢٣١]،

---

[٢٢٧] نبيلة إبراهيم، الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق. ص ٢١٧ .

[٢٢٨] المنجد فى اللغة والإعلام – دار المشرق – بيروت – ص ٥٦٢.

[٢٢٩] خطرى عرابى: البنية الأسطورية فى سيرة سيف بن ذى يزن – ص ٥٨.

[٢٣٠] المسعودى مروج الذهب ومعادن الجوهر ١/ ١٢٣.

[٢٣١] السيرة: م ٣، ج ٢٦، ص ١٩٥٨ .

المليئة بالفاكهة، وقد سكنها الغول المهول حيث كان على هيئة إنسان له عين واحدة يعلوها عرف كعرف الديك ينزل على عينه إذا نام، وله أظافر كالخناجر إذا مشى، وله جلد سميك كأنه من نحاس، وأبوه وحش من وحوش البرية، وأمه دابة من دواب البحر، فلما رأى إبراهيم الحوراني ذلك المخلوق الغريب خاف وارتعد، لكن لا مناص من محاربته، وقد رأى الغول يقترب منه، فجرد سيفه، وضربه على عنقه أربعا، لكن الغول لم يتأثر بل راح يهجم على إبراهيم، يريد قتله، وما زالا في صراع حتى رأى إبراهيم نقطة سوداء في جسمه، فظن أن الغول لن يموت إلا بضربها، فجرد حسامه وطعنها فسقط الغول على الأرض قتيلا، وقد صور الراوي البيئة التي تفرض على الأبطال فلم يكن نسقهم الوظيفي هو الحرب وخوض المعارك فقط بل لهم دور في التعامل مع العناصر الاسطورية، فهذه العناصر كانت سببا في إظهار قوة البطل بالسيطرة عليها وجلده في ردعها[٢٣٢] .

الحصان الأسطوري:

وهو ضرب من ضروب الفنتازيا التي زخرت بها السير الشعبية العربية كأداة تساعد البطل في أداء مهمته بسرعة فائقة، وهو في الحقيقة نسق يناسب نسق البطل، أو يعضده، وما كان لحصان أن يقتنيه البطل علا لكونه بطلا، واستحق البطولة، فهذا لون من العناصر الأسطورية (موتيف ظهر في الحكايات الخرافية في أنحاء العالم) وعرفه الرواة، وأصبح وسيلة لإثراء الحكايات، وتعلق القارئ به حتى ترسخ في ذهنه لكثرة ما سمعه عنه، وظهر هذا الحصان في سيرة الظاهر بيبرس باسم الرعد وهو ذو شكل كوني يستمد قوته من السماء والأرض والبحر، فهو رعد السماء، وأمه من البر، وأبوه من البحر فأي قوة تضاهي هذا المخلوق الغريب، وأي بطل يستطيع ركوبه إلا بطل قد رصد هذا الحصان باسمه منذ آلاف السنيين، فكان أحمد العزيز هو ذلك البطل الذي حصل عليه من شيخ طاعن في السن ينتظره في صومعة لكي يهديه

---

[٢٣٢] انظر ملحق السيرة : فقرة (٩٣).

تلك الأمانة التي رصدت له وكأن الطبيعة سخرت كل ما ظهر فيها وما بطن لخدمة الأبطال الكونيين(٢٣٣).

الثعابين:

الثعابين ظهرت في السيرة كعناصر مساعدة للبطل فإما أن تكون رهطا من الجن في شكل ثعابين يظهرون للبطل بأثر دعوة منه واستجارة الله أن تنجيه من حبس أو ضرر، وأما أن تكون بشراً قد رصد في شكل ثعابين من كاهن، ولما حان قدرها لمقابلة البطل، ويهم البطل بقتلها، تفصح عن نفسها معلنة أنها قوى تسانده لأنه خلصها من حبسها، ومن ثم وجب عليهم تخليص السلطان من حبسه(٢٣٤).

الصناديق والعلب المسحورة:

كانت الصناديق بهيكلها المغلق حاملة لسر أو لقدر خاص بالبطل، فإذا كان البطل يتحرك في الفضاء، ويدخل المغارات، والكهوف، ويلاقي الأهوال، ويتعرض للعذاب، فإن ذلك يحدث وفق قدر كتب له وحملته الصناديق، فكانت دليلاً لتآخي بيبرس وشيحه، فقد تبادلا الصناديق التي تحمل حسب ونسب كل منهما، كما كان الصندوق الذي يسمى (بدولاب الهواء) قدر لعذاب البطل، فإذا وضعه العدو فيه، وطار به الصندوق في الهواء أفقد البطل توازنه، وألبسه ثياب من الريش، حتى إذا تراشق الريش في جسده، علم أنه هالك لا محالة، وقد مثلت الصناديق وظائف فى السيرة تحمل أسراراً، أو تحمل عذابا للبطل، وقدراً.

وفى السيرة نجد الملك الفرطوس أبا الرؤوس أراد أن يعذب بيبرس فاتفق الملك غرطال الوحشى مع أبى الرؤوس أن يكتف السلطان ويضعه فى صندوق يسمى بدولاب الهواء، وهو صندوق يتحرك فى الهواء بسرعة عالية

(٢٣٣) انظر ملحق السيرة : فقرة (٩٤).

(٢٣٤) انظر ملحق السيرة : فقرة (٩٥).

يفقد توازن من بداخله فهم الملك الفرطوس بوضع السلطان فيه كي يفقده توازنه ويهلك[٢٣٥].

كما حصل شيحة على صندوق عبارة عن علبة تحمل سرا لفتح الكنوز فقد احتال على حنا الرين وأخذ يبحث عنه (حتى عرف مكان العلبة فرأها علبة من الفضة، وفيها ساقية مرصودة، فنقل ما فى الكنز من أموال وذخائر ثم أخذ الساقية، وطلع ونزل فى الغراب، وسافر ليلاً، وطار في الهواء)[٢٣٦]، وهناك صندوق يحمل نبوءة لأحداث مقبلة يمر بها للبطل. مثل الصندوق الذى قدمه شيحة للسلطان بيبرس وبه فص الجوهر فاتجه به السلطان إلى الحج وعندما انتهى من الحج (وطلب الزيارة إلى قبر الرسول وسافر من مكة إلى جبال الصفرة، وإذا بشرر ونار، ورجم بالأحجار، فأقبل عون فى صفة أسود وهجم على الصندوق الذى فيه القدرة، والفص، والجوهر، فكسره، وأخذ القدرة والفص، وطار بها فى الهواء فاغتاظ السلطان من ذلك وكان المقدم جمال الدين بصحبته فقال يا ملك الإسلام أنا أعرف من كتاب اليونان هذا الكوكب يأخذه واحد كهين اسمه مجرم أبو العجائب، ويبنى مدينة على سن جبل عال يوضع هذا الكوكب فيها تسمى مدينة السن والكوكب ولكن الذى تأتى به ثانيا)[٢٣٧].

الخواتم المرصودة:

وهناك خواتم مرصودة من قبل خدام تلبى حاجات من يقتنيها مثل الخاتم الذى حصل عليه المقدم جمر، وأخذ سلطنه القلاع من شيحة بفضل هذا الخاتم، وبدأ يحكى لجاريته عن ذلك الخاتم المرصود وهو أحد عناصر الفنتازيا التي امتلأت بها الحكايات الخرافية والتي عرفت بحكايات (بخاتم السلطان) الذي يسكنه عفريت من الجان فيلبي الحاجات إذا لامسه إنسان، وعليه السمع والطاعة وسرعة الاستجابة، وقد حصل عليه المقدم جمر الذي رفض الدخول

---

(٢٣٥) انظر ملحق السيرة : فقرة (٩٦).

(٢٣٦) السيرة – م٣ – جـ٢٧ – ص ١٨٨٤.

(٢٣٧) السيرة – م٣ – جـ٢٧ – ص ١٨٥٨ – ١٨٥٩.

في طاعة شيحه، فاستطاع بالخاتم أن يكون سلطانا للقلاع، وآلت إليه الغلبة على العيارين، والعياق، وهناك من الخواتم المرصودة التي يفتح بها الكنوز، فكانت أداة صراع بين المسلمين والمسيحيين على حد تعبير السيرة، فقد اهتم الكاهن كشوير بالبحث عن هذه الخواتم، فلما علم أن واحدا منها تملكه الملكة مريم الحمقاء بنت الملك عرنوص، دبر حيلة لاختطافها، فدام الصراع بين عرنوص والكاهن، فكانت تلك الخواتم سببا في زخم السيرة بالكر والفر، وتشابك الأنساق الوظيفية(٢٣٨).

البراق الخاطف:

ما لبثت السيرة أن ذكرت البراق الخاطف الذى يحمل الأبطال إلى أمكنة آمنة أو يساعدهم فى القضاء على الأعداء، فهو سلاح عبارة عن بساط سحرى سخر من قبل زوجات شيحة لخدمة السلطان، وأبطاله المساعدين مثل براق الملكة تاج ناس زوجة شيحة، والذى حمل شيحة إلى الكنز الذى دلته عليه (وأمرته أن يقعد على السرير وأمرت خدامها أن يحملوه إلى أهرام الجيزة، ونزلوا فطلبت الخدام واعلمتهم أنها تريد أخذ قبة سليمان الذى صنعها للست بلقيس، وتهديها لشيحة، فعندما وصلت قرأت العزائم حتى فتح لها باب، فقالت: يا مقدم شيحة انزل، واتل حسبك، ونسبك، وها أنا ماشية خلفك، فنزل شيحة قدامهم فى قلب الكنز والملكة تاج ناس تؤنسه فقال شيحة كيف يكون العمل فى عبورنا هذا البحر قالت اعلم أن هذا البحر من السم والأصل فى ذلك أن بلقيس تمنت على سيدنا سليمان أن يكون قصرها لم يعبر عليه جنس مخلوق فصنع لها ذلك البحر من السم وجعل له معدية من النحاس الأصفر)(٢٣٩).

كما أن هناك براقاً مصاحباً للبطل يتجه معه أينما يولى وجهه شطراً لقضاء حاجة مثل البراق الأبيض الذى طار إلى السلطان ليكون عونا له، ويذكره بعهده القديم معه (فقال أنا ابنك البرق الخاطف أنا الأبيض الذى قرتنى

---

(٢٣٨) انظر ملحق السيرة : فقرة (٩٧).

(٢٣٩) السيرة – م٤ – جـ٣١ – ص ٢٠٩٦ – ٢٠٩٧.

أنا وأخواتى مدة ما تغربت أقمت عندنا أيام فبطاويل حين ملك بلادك فحمل البرق الخاطف إلى السلطان، وأدخله المغار، وإذا بباب المغار انسد، والكهين مقبل وهو يهدر وكأنه الأسد فعارضه البرق الخاطف، فصار الكاهن يتلو عليه أسماء ليحرقه بها، فمنعه البراق الخاطف، وانصرفت الغمة من عيون السلطان، فنظر فى صدر المغار، وقال له: أنا محمود بيبرس بن القاه شاه جمك فانكشف له عن باب المغار)[٢٤٠].

المرايا:

إذا كانت الحروب تدور رحاها في مساحات واسعة أو رحبة أو مغلقة معقدة كالأديرة والمغارات والقلاع فلا بد من استعداء أشكال تكشف ما وراء هذه المساحات والأمكنة السرية، فكانت المرايا المرصودة التي اختصت بذلك، فإذا حمل البطل سيفه وجرد سلاحه، وحصل على خاتم يفك به أسرار الكنوز لزمه مرايا تكشف عن مكنونات هذه الكنوز، أو استطاع راكب البراق أن يرى مسافات بعيدة لزمه أيضا هذه المرايا، وقد حصل عليها طود البحر من جزيرة الحوت، وتمكن من رؤية السلطان في مكه، وعساكر الإسلام في الحرب، كما كان للعقارب المسحورة دورها في كشف الأسرار وفك الطلاسم، وكان واحد منها في حوزة شيحة، وبه استطاع أن ينقذ السلطان من الأسر ويقبض على جوان[٢٤١] .

الساعات المرصودة:

بدت الساعات المرصودة في السيرة مهلكة لمن يعلقها فى يديه، أو فى صدره، وعقارب تكشف أسراراً، وأمكنة سرية مثل الساعتين المرصودتين اللتين حصل عليهما السلطان من الغلام الذى تزوج من الجان، وأعطاه الجان

---

(٢٤٠) السيرة – م٥ – جـ٤٢ – ص ٢٧٨٠.

(٢٤١) انظر ملحق السيرة : فقرة (٩٨).

هاتين الساعتين اللتين رصدتا لحماية السلطان من عدوه هلاوون حتى إذا حصل عليها هلاوون طمعاً، وعلقهما في ثيابه هلك وقتل من معه[٢٤٢].

الأشخاص المرصودة:

الأشخاص المرصودة غالبا ما تكون وظيفة عبارة عن حماية الكنوز، والأماكن المسحورة فيقوم بوظيفة الدليل، أو المرشد إذا كان على بركة ماء، استطاع إرشاد الناس إلى الغرق في هذه المياه، فعندما يظهر وفي فمه بوق يصرخ به صرخة الموت ثم يظهر الغريق بين كفيه[٢٤٣].

وقد يكون لهذا العنصر الأسطورى شبيها فى العصر الجاهلى، وخاصة الاعتقاد فى (النبوءة التى من شأنها أن تحدد لهم مصير شئ مجهول، فقد روى أنهم إذا غم عليهم أمر الغائب، ولم يعرفوا له خبراً جاءوا إلى بئر عادية، أو جاءوا إلى حفر قديم ونادوا فيه يا فلان، أو يا أبا فلان ثلاث مرات يزعمون أنه إذا كان ميتا لم يسمعوا صوتاً، وإن كان حياً سمعوا صوتاً، وربما توهموه، أو سمعوه عن الصدى، وفى ذلك يقول الشاعر:

دعوت أبا المغوار فى الحفر دعوة ... فما آب صوتى بالذى كنت داعيا

أظن أبا المغوار فى قعر مظلم ... تجر عليه الذرايات السواقيا)[٢٤٤]

الملابس السحرية: (بدلة الحكيم يونان):

الملابس السحرية ساهمت في نسق المساعدة للبطل، وتخطى العقبات التى قد تكون حائلاً بينه وبين أهدافه، فتلعب هذه الملابس أدواراً مهمة مثل بدله الحكيم يونان، وبدله سيدنا الخضر، اللتين أهديتا إلى شيحة. وبهما احتال على الرهبان، وطار بهما، وظنوا أنه راهب ورسول من عند المسيح، ففى مدينة القيقيول بحث شيحة عن جوان فوجده فى كنيسة هذا المكان (فلما جن الليل وقد أخرج البدلة التى عملها له الحكيم اليونان فى كل مكان لأجل إتمام مناصفة

---

[٢٤٢] انظر ملحق السيرة : فقرة (٩٩).

[٢٤٣] انظر ملحق السيرة : فقرة (١٠٠).

[٢٤٤] الألوسى: بلوغ الأرب جـ٣ ــ ص ٢.

فلبسها، وزررها فكل ما شك الزرار فى العروة يعلو عن الأرض قامة، وإذا أخرج الزرار من العروة ينزل إلى الأرض قامة، فما أن ارتفع ذلك العلو دخل البلد مثل الطاير، وعبر إلى سراية الملك القيقيول)[٢٤٥].

سترة (بدلة) الخضر:

أما بدلة الخضر عليه السلام فهى تستطيع الطيران مسافة أكبر من مسافة بدلة الحكيم يونان، فبينما شيحة يخاطب الرهبان، وملك الحصون قسطون إذا ارتدى تلك البدلة مدعيا أن المسيح أمره بالطيران، وقال لهم: (يا رب اعلم أن المسيح أمرنى بالسياحة والمشى على البحر المالح والطيران بين الأرض والسماوات وأول الطيران عندى هذه الليلة فتعجب الراهب القرقيط وقال: يا حكيم إن فعلت ذلك لا يبقى قبلك، ولا بعدك فقال شيحة سوف ترى وغاب وعاد لابس البدلة التي أعطاها له الخضر عليه السلام ودخل بها على القرقيط ونفخ فى القرن فخرج منه شرار، ونار، ولعب فى أول الأزرة فارتفع عن الأرض مقدار ذراع، وكذلك ثانى زرار ثم الثالث، والرابع حتى وصل إلى سماء السراية، وقال: يا قرقيط هيا أنت ودولتك سيروا خلفى حتى تتفرجوا على كراماتى فنظروا إليه يمشى على وجه البحار يطير، وصار يتنقل من مركب إلى مركب، ويركب على القلوع شمال، ويمين، والناس إليه شاخصون، وإذا بباب المدينة ظهر به ناس مطرودين، وإلى الخلا هاربين، وخلفهم صرخات كأنها الرعود، وشواكر قاطعات، فالتفت الملك القرقيط فرأى رءوس طائرة، وخيول بأصحابها غائرة، ودخل الملك الظاهر بجواده)[٢٤٦].

ولا شك أن الحكماء والأولياء لعبوا دوراً عظيم الأثر فى الأنساق الوظيفية داخل السيرة، فلم يقتصر الأمر عند بدلة الحكيم يونان، أو بدلة الخضر عليه السلام، بل تمتد هذه العناصر الأسطورية إلى سيدى عبد الله المغاورى الذى كان يظهر للأبطال فى مهامهم الوظيفية، وخاصة للظاهر بيبرس، فكان قد أهداه قحف جريد استطاع به أن يسير فى البحر، فعندما استطاع السلطان أن

---

[٢٤٥] السيرة – م٢ – جـ١٦ – ص ١٢٠٣.

[٢٤٦] السيرة – م٥ – جـ٤٣ – ص ٢٨٣٦ – ٢٨٣٧.

يتخلص من البترك لفلفون إذا قابله عبد الله المغاورى وقال له: (يا ظاهر انزل هنا فجذبه وانزله فى مركب من الحديد، ونزل بصحبته وفى يده قحف جريد فقذف به فى البحر، وقال: بسم الله مجريها ومرساها على سنية بولاق ملقاها فما شعر السلطان إلا وهو فى بولاق فقال له اطلع هات حصانك)[٢٤٧].

[٢٤٧]) السيرة – م٣ – جـ٢٦ – ص ١٨٠٨.

الفصل الرابع

الشخصيات الأسطورية

- العياق
- الشطار
- العيارون
- الفداوية

إذا كان أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس قد أشار إلى شخصيات سيرة الظاهر بيبرس فى رسالة الدكتوراه (الظاهر بيبرس) فلسنا مغامرين لإعادة ما تناوله أستاذنا الجليل، ولكن سوف تهتم الدراسة بالشخصيات من حيث أنساقها الوظيفية، وأثرها فى مجتمعها الذى كانت تعيش فيه ورد فعل المجتمع أو من تحيط به هذه الشخصيات. فإذا كانت تتحرك فى مناخ تحيط به الأساطير من كل جانب حيث المكان، والزمان الأسطوريين فلا شك أن هذه الشخصيات قد طبعت بهذا الجو الأسطورى، فأصبحت بذلك شخصيات أسطورية لها دورها الفاعل الذى يتجلى واضحا من خلال النصوص.

لذلك ندرس بنيتها الأسطورية متعرفين على طبائعها وصفاتها وأثرها فى محيطها المادى والبشرى، ومن ثم فإن دراسة الشخصيات فى هذه السيرة التى نحن بصددها لا يمكن لأى باحث أن يغفل الجانب الأسطورى حيث أصبحت أحداثها حقيقية من جانب القاص الشعبى فسردها، وكتبها، وصدقتها العامة، فاكتسبت حياة على حياتها فقد ألبس التاريخ بالخيال، واستمد منه ما يناسبه وألبس الشخصيات التى من صنع خياله لباس الأسطورة فى وقت وزمن اعتقد أن الناس كانت أحوج فيه إلى الخيال وقتئذ تمثل لهم التاريخ يحلقون به نحو خيالهم الفضفاض، فأصبحت أحداث السيرة واقعا أسطوريا.

كما لم تغفل أهم شخصيات فاعلة لها أثرها فى الشعب المصرى بعامة، وهى القوى الروحية (الأولياء) التى يعتقد فيها حتى الآن أن لها السيطرة على الأشياء. لذلك استطاع القاص الشعبى أن يجعل البطل، أو الشخصية المساعدة تستعين بهذه القوى الروحية حتى تمر أحداثها على سماعى السيرة، وقارئها بصدق حتى وإن تخللتها الأسطورة، فتكون الأسطورة لديه واقعا لأنه البطل يؤمن هو ويعتقد كما يعتقد، ولكن بكونه بطلا فقد يزيد على الإنسان العادى

فيكون خارقا للعادة مثلاً، وقد ظهر له الولى جلياً، ولعل هذه السيرة الوحيدة التى يظهر فيها الخضر عليه السلام واضحا بصفته، يحدث البطل فى أمور قد تحدث له فى المستقبل أو يحميه من عذاب أليم، أو يساعده فى تخطى العقبات.

وكان للعيارين دور مهم فى سيرة الظاهر بيبرس وخاصة فى بنية الأحداث والصراعات بين المسلمين والبيزنطيين، والمتمثلين فى شخصية جوان فكان العيار أداة حربية يستغلها البطل المسلم، كما يستغلها البطل العدو (جوان) فى خطف السلطان بالإضافة إلى أنهم شكلوا أنساقا متفردة لها وظائفها فهم جنس متمرد على الأوضاع، لذلك كانوا يشكلون أحيانا خطرا أساسيا يتوقى مواجهته يفتخرون ببطولاتهم، وقوتهم الجسمية، والعضلية حيث إنها مصدر رزقهم لذا كانوا يفتخرون بذلك على مر التاريخ مثلا قول أحدهم (أنا الموج الكرر أنا القفل العسر أنا النار أنا العيار أنا الرحى إذا استدار أنا الذى أسست الشطارة وبوّبت العيارة أنا فرعون أنا هامان أنا النمرود وأنا الشيطان)[٢٤٨]، حيث إنهم امتداد لطائفة الصعاليك التى ظهرت فى العصر الجاهلى لما بينهم من وشائج عميقة فى البواعث، والدوافع، والوسائل، والغايات، وعلى مر التاريخ العربى، فإن لهم حركاتهم التى أعجبت بها العامة، والمؤرخون، والكتاب، وقد وجدوا فى ثوراتهم درساً سياسياً للقائمين على السلطة، وفى تدوين أخبارهم شكلا غير مباشر من أشكال إحتجاجهم على ما يمر به عصرهم من فتن، واضطرابات، وبخاصة فى العصور المتأخرة، (وعلى الرغم من أنهم سايروا التعبير الشائع عن هؤلاء المتمردين فسموهم باللصوص، والشطار، والعيارين، والدعار، والزعار، والطرار، وغير ذلك مما تمتلئ به كتب التاريخ)[٢٤٩]. فالعيار فى اللغة (هو الرجل الذى يتبع هوى نفسه)[٢٥٠] وهو صنف مماثل للعايق الذى يعوق الناس عن قضاء حوائجهم بغية المال، وما يرتضيه من مصلحة أو نفع يعود عليه.

---

[٢٤٨] أبو حيان التوحيدى: حكايات أبى قاسم البغدادى، تحقيق عبود الشالجى – ص٣٧٥.

[٢٤٩] رجب النجار: حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى ط١ الكويت، عالم المعرفة – ص ٩٢.

[٢٥٠] المعجم الوجيز – ص ٢٤٢.

فتعد سيرة الظاهر بيبرس أكثر السير الشعبية احتفاء بقصص اللصوص، والعياق، والعيارين (وقد ارتقت بهم منذ البداية إلى مرحلة البطولة القومية والتحرير القومى داخليا ضد الأرستقراطية العسكرية الإقطاعية المملوكية الحاكمة، وخارجياً ضد قوى الصليبيين، والتتار فجاء فيها لأول مرة ثلاثة أنماط بطولية مساعدة. عثمان بن الحلبى رمزا لشطار مصر، وعياقها، وجمال الدين شيحة رمزا لطائفة "الفداوية" فى بر الشام، وأميراً لهم فى السيرة، وأبو بكر البطرانى "قرصان البحر" من المغرب العربى، وقد لقب فى السيرة بـ "سلطان البحر"، وقد تم التآخي بينهم جميعاً فى السيرة، والظاهر بيبرس "البطل الملحمي"، وقد تدخل هذا فى التآخي كبار أقطاب الصوفية وأولياء الله الصالحين باركوة كما شاركت فيه قوى غيبية أخرى رامزة للواقع الروحى والنفسى الذى قامت عليه المنطقة فى عصور المماليك)[٢٥١].

وبما أننا إزاء دراسة الشخصيات فى السيرة سوف نولى اهتمامنا لكل شخصية مساعدة ودورها من العيارين، والعياق، فسوف ندرس الأفراد المتمردين الذين شكلوا حالة من العصيان المستمر داخل السيرة أما شيحة وعثمان وأبو بكر فقد استقرت أمورهم بجمع بيبرس لهم. لذا تمت مساعدتهم له أما الذى ساهم منهم فى تحريك أحداث السيرة فهم الأفراد المتمردون الذين ساهموا أيضا فى بناء السيرة الفني، والموضوعي. فقد بنوا موقفا جماعيا لا من حيث عدالة قضيتهم فهى عادلة منذ البداية، وإنما من حيث تحقيق القيم المثلى داخل نطاق هذا المجتمع، فمن مبادئ العيارين، والعياق (العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم)، مهما كلفهم الأمر فهم يتميزون بالشجاعة، والجسارة، فالعايق لايبالى بأي مكان إذا دخله كي يحقق مرامه، وسنضرب مثلا لعايق يفتخر بنفسه أمام الملكة عين المسيح واضعا صفات العايق العامة (كانت الملكة عين المسيح قد استيقظت من نومها وكانت بنت عاقلة على قدر جمالها فنظرت إلى هذا الغلام الجميل الأمر، فتعجبت كيف وصل إلى هذا المكان، وقالت فى بالها لولا أنه من أهل المقدرة، والجسارة لما قدر أن يصل إلى هذا المكان، فقالت له: أنت إنسى أم جنى؟ قال لها: أنا إنسى. قالت له: ومن أين أتيت حتى

---

(٢٥١) محمد رجب النجار: المرجع السابق – ص ٣٠٤.

وصلت إلى هنا؟ قال لها: أما وصولي إلى هذا فما هو عجيب لأن العايق منا يدخل فى أي مكان ولا يبالي بإنسان، وأما سبب دخولي فأنا قاصد ملك هذه البلاد أقطع رأسه جزاء ما فعله بالمقدم "زاهر" فى العام الماضي، ولن أطلع من عندكم إلا وبدنه مشرمط بالنبال، وأوصاني أنا لا أنام حتى أخذ ثأره، وأقتل ملك هذه القلعة، وأخرب دياره)[٢٥٢].

وبالرغم من أن العايق يعرف مصيره من القتل، والهلاك إلا أنه يتبنى موقفا يلتزم به حتى ولو كان هذا الموقف ضد طبيعة المجتمع. وقد عانى بيبرس من هؤلاء كثيرا فكان إذا قبض عليهم عرض عليهم التوبة عن فعل الشر فقلما يرتضون بها لأنهم يرفضون الأمر، والانصياع له، ولاسيما من أمير، أو سلطان فيرون أنفسهم سلاطين، وملوكاً على الأرض، ويفتخرون بأنهم عصاه على الأمراء والملوك فهؤلاء أنساق اجتماعية (وذات مرة شكى رجل إلى بيبرس من منصور أبو سيفين وقطاع الطرق. الذين اختطفوا ابنته فلما سمع بيبرس هذا الكلام صار الضياء بين عينيه، فذهب بيبرس فوجد أبو سيفين جالسا كأنه نمر، فلما رأه بيبرس عرف أنه متكبر، فقال له: السلام عليكم يا أبي. فقال له (من غير أن يقوم): من تكون يا رجل؟ فقال: بيبرس يا شيخ العرب أنا كاشف الحيرة الجديد، فقال له: أنا أعلم أن الكاشف الذى فى هذا الإقليم القريب، والبعيد، فإنه يكون معي يحكم مثلما أريد، وإن لم تعمل بكلامي، ولا يدخل أذنيك فلابد من شرى أن يصل إليه، فقال بيبرس بعد أن أظهر له الخوف منه: كم عمرك؟ فقال: مائة وأربعون أعوام. فقال له: هذه المدة قضيتها فى المعاصي اتق الله تعالى، وتبْ إليه، ولو عشرة أعوام، فقال أبو سيفين: أنت جيت تتوبنى، ثم أنه جرد حسامه، وكاد يقتل بيبرس، فضربه بيبرس على دماغه باللت الدمشقى فألقاه على الأرض)[٢٥٣].

وقد استغل جوان العياق فأغرقهم بالمال لسرقة شخص، أو مال من مصر، كي يثير فتناً داخل قاعدة الحكم، لذا أولى بيبرس اهتماما بتتبع هؤلاء

---

(٢٥٢) السيرة: م٤ – جـ٣٨ – ص ٣٦٠٣.

(٢٥٣) السيرة: م٢ – جـ١٣ – ص ٩٢٧، ٩٢٨.

العياق فكان يتخفى ليلا ليعرف تجركاتهم[٢٥٤]، وربما يستغل جوان العايق فى سرقة فتاة من المسلمين مثل بنت أبى بكر البطرانى[٢٥٥].

وقد يستخدم العيار فى سرقة السلطان بيبرس نفسه، فقد أوعز جوان لعيار يدعى إبراهيم بأن يخطف السلطان، وذلك بعد قتل الملك هلاوون ليأخذ ثأر هذا الملك. الذى كان يتبعه، وبذلك يثير ضجة كبرى فى صفوف المسلمين واستطاع العيار أن يأسر بيبرس، وجنوده[٢٥٦].

(كما أشارت السيرة بأن هناك عياقاً من الأعداء اتصفوا بالدهاء، والقوة مثل (رمتح، وشروين، وجن ابن يخشب) فكان رمتح وشروين تابعين للملك هلاوون الذي أمرهما أن يصحبا الجارية قمرستان، ويحتالا على العرب فى خطفت شباب المسلمين (أولاد. الناس)، فأعطاهما المال، وأمرهم أن يكونا مطيعين فسارا فى صفة تاجرين حتى إذا دخلا الشام أدارا القنص فى أولاد الناس)[٢٥٧].

أما العايق جن بن يخشب الأرملى قد كلفه الملك حنة الرين أن يأتى له بالساقية المسحورة من شيحة[٢٥٨].

عثمان بن الحبلى:

كان عثمان بن الحبلى شخصية أسطورية، وكانت هذه الشخصية تمثل لبنة أساسية في البناء الأسطوري للسيرة، فهو أحد العياق المتمردين بل يعد أكبر رؤوس الفساد فى مصر على حد تعبير السيرة، يخاف منه شعب مصر، والحكومة معاً، ويعجز الجميع عن مقاومته، أو الوقوف فى طريقه، وكانت الوصية الأثيرة التى أجمع سلاطين مصر على تقديمها لبيبرس حين بدأ نجمه

---

[٢٥٤] انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١٠١).
[٢٥٥] انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١٠٢).
[٢٥٦] انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١٠٣).
[٢٥٧] السيرة: م٣ – جـ٣٢ – ص ٣٦٣٧.
[٢٥٨] انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١٠٤).

السياسى فى الصعود ـ أن يحذر الاصطدام مع عثمان بن الحبلى "وإلا انحرفت هيبته فى مصر كلها، وهيبة السلطنة معه" الأمر الذى يثير حفيظة بيبرس المتمرد، لذا كان يبحث عنه دون غيره، إلا وتعاطف العامة مع عثمان - (بيبرس الذى كاد يدفع حياته مرارا ثمنا للوصول إلى عثمان والقضاء عليه ولولا أن "قوى روحية" متعددة تدخلت فى هذا الصراع نظرا لاستشرافها الغيب وتيقنها بأن سعادة عثمان بن الحبلى مقرونة بسعادة بيبرس على حد تعبير السيرة (الشعبى + الحاكم) لما جمعت بينهما بالصلح وقامت بالمؤاخاة "فى عهد الله" بين الطرفين كحلم بيبرس بالسيدة نفيسة الذى رآه وهو بمسجدها، ورآه عثمان أيضا وهو يختبئ بنفس المسجد)[٢٥٩]، وتعاهد الطرفان على الإخاء، والمساندة لبعضهما، وجعلت توبة عثمان بن الحبلى أكبر عياق عصره تتم على يد بيبرس حتى إذا استيقظا من حلمهما صارا لتحقيق ذلك، ووافق عثمان على أن يستخدم عند بيبرس سائسا للخيل، ويمسك عثمان بلجام فرس بيبرس، وفى يده الأخرى زمام الأمور راشدًا بيبرس إلى مواطن الفساد التى يعرفها جيداً، فكان كاشفاً للحقائق. وهذا ما كان ينشده بيبرس فى تحقيق العدل والأمان فى مصر.

(ولهذا لا غرور أن ترجئ السيرة بلوغ بيبرس عرش مصر ـ سبع مرات، إلا بعد أن يقف بنفسه ـ بفضل عثمان ـ على مظاهر الفساد الداخلى فى مصر أولا ثم الشام ثانيا حيث يفلحان فى القيام بأكبر حركة تطهير داخلية يركز عليها أثر فنى شعبى عربى، بغير استثناء لينطلق سائر الأبطال بعد ذلك لمواجهة العدو الخارجى وقد غدا بيبرس القائد مهيئا لأن يلعب دوره التاريخى فى مواجهة الغزو القادم من الغرب الصليبى والشرق التترى المجوسى بعد أن أرسى بالتعاون مع عثمان ـ دعائم المجتمع الجديد من الداخل) [٢٦٠]. وقد لاقى عثمان تأييدا من الصالح أيوب (الحكومة الكونية) والشيخ العز بن عبد السلام (الموقف الدينى إلا أن الأغا شاهين وزير الصالح أيوب كان دائم الحذر من

---

(٢٥٩) محمد رجب النجار: م١ ـ جـ٣ ـ ص ٣١٢.

(٢٦٠) محمد رجب النجار: المرجع السابق ـ ص ٣٠٦.

عثمان، ويحذر بيبرس منه فيقول عنه (أنه من جبابرة الزمان الذى عجزت عن النيل منه كل سلاطين مصر، وولاتها من قبل بعد أن قتل لهم "سبعة ولاة" وصدرت ضده سبعة فرمانات بالإعدام دون جدوى بأنه رأس البلاء رأس الفساد .

إلا أن الموقفين الشرعي والديني باعتبارهما سلطتان فى مصر كانتا تساندان عثمان بن الحبلى، فكان الصالح أيوب يوصى بيبرس أن يتخذ عثمان أخا، وإذا شاء بيبرس أن ينجح فى السلطة أن يستمع لنصائح بن الحبلى ويعمل بمشورته، بل عليه ألا يخالف أمره . أما الوزير "أغا" فهو يحذر بيبرس من عثمان قائلاً: (إياك ثم إياك أوصيك كل الوصية فاحفظ وصيتي ولا تنساها وإعمل بها ولا تأباها أصحى لا تخدم رجلا يقال له عثمان بن الحبلى لأنه رجل جبار لا يصطلى له نار فى أرض مصر وقد أذل أهلها، وقد بلاهم بالقهر، وما دأبه إلا خطف العمايم ولا يبالى من الأكابر، ولا من الأصاغر، وقد جاءتنى منه شكايات، وقد قطعت عليه سبع فرمانات ـ كأنه عفريت من عفاريت السيد سليمان)[٢٦١].

(وكان لعثمان مجلس يجتمع فيه مع عياق مصر وهو ملعب بن طولون وقد وصل خوفه إلى القضاة (فجعلوا الحق باطلا والباطل حقا من أجله) حتى لصوص مصر، وشطارها، وعياقها لا يخافون من الله مثلما يخافون منه)[٢٦٢].

وقد أظهرت السيرة عثمان بن الحبلى نموذجا للبطل الشعبى ابن البلد وجعلت منه حياة اللصوصية التى يعتليها، ويمسك بلجامها جيدا وسيلة بتمرده الاجتماعى، والسياسى، فكان يمثل نسقاً اجتماعياً فريداً إلا أن بيبرس أصر على أن يبحث عن عثمان لينقض عليه لأنه سبب ذعراً، وقتل الولاة، ويلعب القدر فى الحصول على عثمان، وذلك عندما احتاج بيبرس إلى سايس بدلا من عقريت، فيبحث عن شيخ (سواسي الخليل) حتى إذا وصل إليه بعد عناء، وعرف انه يدعى "عثمان بن الحبلى"، اخفت العامة مكانة لخشيتهم من ابن

---

(٢٦١) السيرة: م١ – جـ٤ – ص ٢٩٨.

(٢٦٢) محمد رجب النجار: المرجع السابق – ص٧.

الحبلي، لكنه لم يأل جهدا في البحث عنه، وعندما أدرك عثمان أن بيبرس يبحث عنه، ساورته الشكوك، فلاذ بالفرار من كل مكان يصل اليه بيبرس، وما زالا حتى اجتمعا القضيبان فجابت نفسها بالشر هكذا فكل منهما يخفي شيئا، فلما عرض بيبرس على عثمان مهنة سائس لخيله، وافق عثمان عليها لما كان يضمره من غدر لبيبرس، وما أن وصل الإثنان إلى "عقريب" ليعرف عثمان على حصان بيبرس، وإذا بالسائسين جميعا قد خافوا من قدوم عثمان، فقال عقريب مندهشاً لعثمان: (يا كبير أنت خدمت عند الشلبى، قال عثمان: يا ولد أنا أضحك عليه)[٢٦٣]. وعندما هم عثمان بسرقة متعلقات الحصان، وأراد الخروج بها من باب الاصطبل إلا وكانت هناك أول معاقبة لعثمان بما نسميه "تحدى القوى"، فأيهما ينصاع لأمر الآخر، فهجم بيبرس عليه، وضربه (باللت الدمشقى)[٢٦٤] على رأسه، وكتفه (ولم يزل يضربه حتى كاد أن يقضى عليه – وعندما أفاق عثمان – سأل عقريب عن بيبرس هذا هو الذى قتل العرند قال عقريب هو بذاته، وصفاته فقال عثمان: هذا جندى جبار، وأنا ما أقدر عليه)[٢٦٥].

ويتدرج الفعل الاجتماعى النسقى بأن القوى هو الذى سيسود حيث لا منطق فى هذه الحالة إلا منطق القوة. وبما أن العايق لا يحمل معروفا لأحد فإن عقريب ما إن هم بفك عثمان إلا ويقوم عثمان بربط عقريب نفسه مكانه، وعندما استيقظ بيبرس، وجد عقريب مربوطاً، فقام بفك الرباط، وأرشد عقريب بيبرس إلى بيت عثمان الذى هرب منه، لتبدأ رحلة البحث مرة أخرى عن أكبر رؤوس العياق – فى القبر الطويل يكون بيت عثمان فى حارة الغزية، وهى أم عثمان – يرفض كل الرجال إرشاد بيبرس خوفا من القبض على عثمان، ويدرك بيبرس أن الأمر ليس باليسير لكن طموح بيبرس فى القبض على عثمان ما هو إلا ميزان بطولة بطل شرعى (الأمير بيبرس) أما بطل شعبى بين أولاد البلد (عثمان) وفى مخيلة بيبرس أنه بالسيطرة على عثمان قد تتم السيطرة على

(٢٦٣) السيرة: م١ – جـ٤ – ص ٣١٣.
(٢٦٤) اللت الدمشقى: آلة حديدية.
(٢٦٥) السيرة: م١ – جـ٤ – ص ٣١٤ – ٣١٥.

الشعب المصرى، ورؤوس الفساد فيه لذلك كان بيبرس دائم البحث عن عثمان مهما كلفه الأمر حتى كاد يفقد حياته(٢٦٦).

ونلاحظ فنية الراوى داخل السيرة كيف أن بيبرس المملوك الذى يعرفه الناس من لغته ذلك الأمير يدخل إلى دروب، وحوارى، وأزقة، ومقابر، وينخرط فى هذا المجتمع يستمع إليهم، ويستمعون له حيث إن البطولة الحقيقية تنبثق من هذا المجتمع ـ فيحدث إلى أم عثمان ـ فتعطيه كل ما سرقه عثمان منه ـ تقدم له الطعام ـ تشكو إليه من عثمان ـ ترشده إلى ملاعب أحمد بن طولون حيث (عياق مصر)، ويدخل مغارتهم، ويستمع إلى حديث عثمان الذى طلب فيه من العياق الأخذ بالثأر من ذلك المملوك، وما إن يقوم السايس ليقتل بيبرس، فيدخل بيبرس وسط هؤلاء الرجال الذين كادوا أن يفتكوا به، لكن بيبرس خاطب كبيرهم، لذا أدرك عثمان أن قوته قد انحدرت تحت قوة بيبرس، وأن بيبرس قام بفعل لم يفعله أحد، بل لم يجرؤ على التفكير فيه أحد أن يقوم بهذا الفعل، وكان عثمان فى هذا الموقف ما بين قاب قوسين، أو أدنى إما أن يستجيب له وتضيع هيبته أمام العياق، وإما أن يقتل بيبرس آخذا بثأره، وفى نفس الوقت لم يستطع محاربة بيبرس فيوازن عثمان بين تلك القوتين المتصارعتين السلطة، والشعب فإذا كان هو يمثل الشعب فبيبرس يمثل السلطة، وإذا كان الوزراء هم أفراد السلطة، فإن العياق هم أفراد الشعب الذين يعلنون العصيان للسلطة، فماذا يفعل كبير العياق أمام الحاكم وكل منهما يري نفسه سلطانا وحاكما وهو النسق الوظيفي للبطولة، فإذا كانت هناك سلطة رسمية متمثلة في بيبرس، فإن هناك سلطة شعبية رأسها ابن الحبلي، فلا بد من تصارع القوى حتى تؤول الغلبة في النهاية للسلطة الحاكمة، وتدخل قوى الشعب في زمرة الحكم السياسي، وتتحد الانساق الوظيفية تحت هدف واحد هو حماية الاسلام، والتصدي للعدو بأشكاله هم بيبرس بضرب عثمان أمام العياق، حتى إذا ضرب كبيرهم لم يجرؤ أحد على منازلته(٢٦٧).

(٢٦٦) انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١٠٥).

(٢٦٧) انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١٠٥).

لذا طلب عثمان من بيبرس أن يفك أسره فظن بيبرس أنه صادق وما إن فك وثاقه حتى هرب عثمان داخل مسجد السيدة نفيسة، وهنا تلعب القوى الروحية دورها فى المصالحة بين الطرفين السلطة، والشعب كنسق وظيفى ثالث فى فض الاشتباك وليتعاونا معا ضد القوى الخارجية المتمثلة فى الصليبيين فعندما جرى عثمان مد يده داخل المقام يحتمي بحماها،طالبا منها ان تخلصه من بيبرس الذي يطارده في كل مكان، وتأخذه سنه من النوم في مسجدها، ثم يدخل بيبرس وقد أتعبته المطاردة لينال قسطا من الراحة، ويدعو السيدة نفيسة أن تتدخل بكرامتها للقبض على عثمان، ودخوله في طاعتها، فينام بيبرس أيضا ويرى الإثنان (حلما الإخاء) من السيدة نفيسة، حتى إذا استيقظا من نومهما تعاهدا، واتفقا، وصارا معا يظلهما هدف واحد[٢٦٨] .

وتبين السيرة أن عثمان ما كان له أن ينصاع لأمر بيبرس كرمز لعياق مصر إلا بقوى ثالثة روحية، لا يمكن لأحد منهما أن يخضعها فقد تخللت هذه القوى معظم فصول السيرة لترسخ دعائم القوى الداخلية، كما كانت قوى روحية أخرى تصدت للعدو الخارجي متمثلة في الولي عبد الله المغاورى، ومن ثم ترك عثمان آثامه، ورذائله على أعتاب هذا المكان الطاهر، وخرج طاهراً بعد أن علمه بيبرس الوضوء ...... وتمت توبته، وما زال بيبرس يوصيه بين الحين، والآخر بشئ من القرآن حيث إن عثمان لم يستطع أن يترك جاهليته الأولى فجأة، فالعياقة أصبحت له صنعة، ومهنة فكان نمط شخصية عثمان يختلف عن شخصية بيبرس فى توبة العياق فلا يعرف العياق إلا عثمان، فالبطل أعرف بدروب منطقته، وأعرف بناسها وطبائعهم، لذلك سخر عثمان من بيبرس عندما طلب منه بيبرس أن يجعل التوبة سريعة لهؤلاء المشاديد العياق (قال لعثمان توبهم عن الأذية ولا تدعهم يؤذوا أحدا من البرية فقال له عثمان بعد أن ضحك عليه أتوبهم لأجل أن يموتوا من الجوع ويصير أشجع ما فيهم مفجوع وهذه الصناعة يأكلون منها ولا لهم سواها)[٢٦٩]. لذلك فكر بيبرس فى فكرة أخرى،

---

[٢٦٨] انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١٠٦).
[٢٦٩] السيرة: م١ ـ جـ٤ ـ ص ٣٣٠.

وهى أن يوفر لهم المال بأن يخدموه، فيوافق عثمان على ذلك، ويذهب إلى العياق، ويعرض عليهم التوبة، وبما أن كبيرهم قد تاب، وأناب لذا كانت توبتهم سريعة بعدما عرض عليهم المال (فقالوا له أنت سيدنا وأميرنا ونحن فى طوعك وأنت كبيرنا فلو أمرتنا أن تخوض البحار لخضناها ولو وقدت لنا النار لدخلناها)[٢٧٠]، وهنا تظهر أنساق العياق الوظيفية فى الفعل ورده، وهو سماع كلمة قائدهم بما فيه المصلحة العامة التى تكفل لهم الحماية المطلقة، فإذا تحدث منهم فرد يتحدث بصيغة الجمع مما يدل على أن الكلمة والمواقف متوحدان فلو نجوا، نجوا جميعا ولو هلكوا هلكوا جميعاً. فهم على قلب رجل واحد، ولم تتم توبتهم فى ملاعب أحمد بن طولون (مجمع العياق) ولكن تتم فى مكان مقدس تقبل فيه التوبة[٢٧١].

كما قبلت توبة زعيمهم عثمان فسار بهم إلى مقام السيدة نفيسة لتكون تلك القوى الروحية شاهدة عليهم، وتشد من أزرهم من المجاهدة فى التوبة، وتحقيقها، وخلاص النية، وخاصة بعد خروجهم من المقام جماعة لا يدرون ماذا يفعلون فقد ضاع فعلهم، وصنيعهم، الأول حيث وظيفتهم التي تركوها ولم يبغوا منها إلا المال وحب السيطرة على العامة، إلى نسق وظيفي آخر له قيمة، وهدف نبيل وهو الجهاد في سبيل الله، والدفاع عن الوطن، ومن ثم لا بد لهم أن يتطهروا من آثامهم حتى يكونوا مؤهلين لنسقهم الجديد فيأخذهم عثمان، ويعلمهم الاغتسال، والوضوء، والصلاة في مسجد السيدة نفيسة وهناك يعلمهم بيبرس أول درس عن حرمة الماء التي تتفق مع حرمة المال، فيجب عليهم ألا يسرفوا في استخدام الماء حتى ولو في الوضوء[٢٧٢].

وما لبث بيبرس وعثمان أن تعاهدا على مجابهة الظلم فى شكل رئيس، ومرؤوس، أو حاكم ومحكوم فى مصر لتطهيرها من الفساد، وبعد ذلك للعالم بأسره (من رؤوس الشر الحقيقيين، من المماليك أنفسهم أصحاب السلطة ولصوصها الآثمين ويدرك بيبرس أن ابن الحبلى لم يكن يوما لصا بالمعنى

---

(٢٧٠) السيرة: م١ – جـ٥ – ص ٣٤٠.

(٢٧١) انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١٠٧).

(٢٧٢) انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١٠٨).

التقليدى، فيقدر بواعث تمرده (السياسية والاجتماعية) ضد السلطة ويوافق على شروطه فى التعاون معه. وهى شروط تبذو فى ظاهر الأمر غريبة لا معنى لها إلا من قبيل التندر، والدعابة، ولكنها ما لبثت أن كشفت عن مغزى سياسى، واجتماعى عميق، ويقوم خلالها عثمان بن الحبلى من بيبرس مقام اليد، والعقل يشترط ابن الحبلى لخدمة بيبرس (تعاونه معه) أن يستغل وظيفة تماثل أية وظيفة يشغلها بيبرس، وهى حيلة فنية بارعة الدلالة فى الكشف عن مواضع الفساد الداخلى الذى تمر به مصر، والعالم العربى فى العصر المملوكى، ويقبل بيبرس هذا الشرط، ويباركه الملك الصالح وكلاهما يدرك نبل نوايا ابن الحبلى فكان بيبرس، كلما تولى منصبا رسميا، قلد ابن الحبلى منصبا شعبيا مماثلا فإذا ما أصبح بيبرس ولى مصر، أو كشافها، أو مسلتزمها، أو محتسبها... الخ، أصبح ابن الحبلى بناء على هذا الشرط والى مصر، أو كشافها، أو ملتزمها أو محتسبها الصغير الشعبى، فتقلد ابن الحبلى منصبا مماثلا فأصبح سلحداراً صغيراً وعندئذ يقود بيبرس إلى لصوص (السلحدارية) القائمين عليها، وإذا تولى بيبرس (أمير قصص) أي رفع مظالم الشعب للسلطان الملك الصالح أصبح ابن الحبلى أميراً صغيراً للقصص، وعندئذ يوقف بيبرس عن جور المماليك وحيفهم فى نقل مظالم الناس إلى السلطان فهم مرتشون لا ضمير لهم يكيفون هذه المظالم ويحرفون ويزورون فيها لصالح من يرتشيهم)[٢٧٣].

ولم ييأس الملك الصالح مما يريده عثمان، بل كان يوصى بيبرس دائما أن يعي جيداً لكلام عثمان فكل ما يقوله، أو يأمر به (طاوع عثمان يا بيبرس يقول بيبرس سمعا وطاعة يا ملك)، ويأخذ عثمان مكانة عالية عند الملك الصالح فما يلبث أن يحدثه بدون تكليف بل يطلق عليه لقب (أبو قوطة) ويطلق على الأغا شاهين (أبو فرمة) لأنه أصدر ضده سبعة فرمانات لقتله سبعة ولاة، ويطلق على أبيك (عين القط اللقيط)، وعلى القاضى صلاح الدين (جوان) المنقوش، وعندما يسأل الملك الصالح عن كلمة منقوش يفسرها له القاضى (أعلمك أنه قدر أنى، وأنا ولد صغير مريض بالجدرى

(٢٧٣) محمد رجب النجار: حكايات الشطار العيارين – ص ٣١٩، ٣١١.

فمن مدة ذلك يقال لى يا منقوش)، ولم يستطع عثمان تفسير ذلك لأن هناك لغة رمزية تميز بها عثمان مع الصالح أيوب ولى الله المجذوب، فقد أصبح عثمان وليا صوفيا يتكلم بلغة رمزية مع قضبه الأكبر الصالح أيوب بل أصبحت لعثمان كرامات .

وعندما تولى عثمان منصب والى مصر الشعبى مساعداً لبيبرس ظهرت له كرامات منها أنه كان يعطى درهما لمن يقول له صباح الخير ياولى مصر، وبهذا الدرهم يغنيه الله غناءً لا حد له ومن قال له صباح الخير يا أسطى عثمان (ضربه ولا بد أن يكون فيه عاهة أو داء فلا ينطلق من أمام عثمان حتى تذهب عنه تلك العاهة، أو الداء الذى به، ويرجع سليم البدن)[٢٧٤]. وقد اعتمد بيبرس نفسه على كرامات عثمان فى مكاشفة ما لا يعرفه من أمور، فعندما أراد بيبرس أن يعرف مكان "صقر الهجان"، و"صقر اللوالى"، اللذين هربا منه، وقد أراد الملك الصالح معاقبتهما فأرشده عثمان بمكانهما[٢٧٥].

وكان بيبرس يدرك أن عثمان له باع فى معرفة الأماكن ما خفى منها وما بطن لذلك كان يركز اهتمامه على مصاحبة عثمان فى كل مكان بماله من علم بكل منطقة، وصفاتها، وما تحمله من أساطير، وحكايات، كما كان يعتمد على قوته، وشجاعته، وقدرته على صنع الحيلة. كما تظهر شفافية عثمان جلية عندما التقى بمعروف بن حجر سلطان الفداويين، وكان معروف فى قمة سلطته، وقد تربع على عرشه بين رجاله، ووقف عثمان وصديقه بيبرس موقف المتخاذل الضعيف أمام صاحب السلطة القوى ينظر إليه ثم بكى، فنزلت دموعه على خدوده، فقد تنبأ بموت معروف، وتغريب عرنوص، وقد تعجب معروف من فعله هذا وقال عثمان ياخال معروف الله يفرج ذاتك، ويلطف بك فى القضاء والقدر، ويساعدك الله على ما كتبته على جبينك، وسطر القلم[٢٧٦] .

ويقول أستاذنا الدكتور عبد الحميد يونس إن شخصية عثمان هى الشخصية المقابلة لجوان، فجعله القصاص فى السيرة كفاءة فى التحايل مع

---

[٢٧٤] السيرة: م١ – جـ٥ – ص ٣٧٩.
[٢٧٥] انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١٠٩).
[٢٧٦] انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١١٠).

القدرة على كشف الدسائس، والمؤامرات مستعينا على ذلك بولايته وعمله الباطن(٢٧٧)، وقد أختلف مع أستاذنا اختلافا بسيطاً حول الشخصية المقابلة لجوان، فقد أعدت السيرة شخصية مقابلة تماما تتميز بالدهاء، والذكاء، والحيلة يعرف كيف يوظف تلك العناصر فى صد خطر جوان، وهى ما عرفت (بألاعيب شيحة) أجل هو شيحة بطل من أبطال هذه السيرة، أما عثمان، فكان دائم الكشف عن شخصية القاضى المستعار، والمتخفى فى شخصية القاضى صلاح الدين ولكم من يصدق كلام ابن الحبلى حتى إذا اكتشف أمره، وعرف أنه جوان تولى شيحة أمره، واحتال على حيله باحثا عنه حتى إذا ألب ملوك النصارى دخل شيحة القلاع المسحورة، وكانت نهاية جوان على يد شيحة الذى قام بتقطيعه على عربة الكلاب.

وظل عثمان مساعدا لبيبرس فى محنته التى أصابته من أيبك وخاصة بعد موت المالك الصالح (فقد جمع أيبك حوله أرباب الفساد والشر من المماليك فحانت ساعتهم للانتقام من بيبرس، فزينوا للسلطان الجديد عزل بيبرس من مناصبه، وكان إذا ذاك متوليا قضاء مصر فعزله من ديوان القضاء على الرغم من وصية الملك الصالح، وعندئذ يصمم ابن الحبلى على إنشاء ديوان آخر للقضاء لنا أن نسميه الديوان الشعبى فى مقابل الديوان الرسمى للقضاء الذى ترأسه السلطان نفسه، وإذا بهذا الديوان يحقق العدل الذى عجز أيبك عن تحقيقه، فانصرف الناس عنه واحتكموا إلى ديوان ابن الحبلى، ويحلو للقاضى الشعبى أن يعقد مقارنات لطيفة ساخرة تقوم على المفارقة لقضايا اشتراكه تعرض على الديوانيين الرسمى، والشعبى، فإذا كان ديوان القضاء الرسمى يخضع للأهواء، والوساطة، والرشوة فضلا عن غباء قضاته وجهلهم بالأحكام وكادت مصر تعود إلى سيرتها الأولى، ويتفشى فيها الظلم والجور من جديد لولا هذا الديوان الشعبى الذى وقف إلى جواره لأول مرة علماء مصر، وقضاتها الشرفاء، وساندوا بيبرس، وابن الحبلى، وشهدوا لهما بالعدل فى الأحكام)(٢٧٨).

(٢٧٧) عبد الحميد يونس، الظاهر بيبرس، ص ٢٨ .

(٢٧٨) محمد رجب النجار: حكايات الشطار والعيارين – ص ٣١٤ – ٣١٥.

وعندما وصل بيبرس إلى السلطنة تلاشى دور عثمان بن الحبلى، وقد أرسى دعائم السلطنة معه ليبدأ دوراً جديداً لشخصية جديدة لصد الغزو الخارجى متمثلة فى معروف بن حجر، وشيحة، والفداوية الذين يتشابهون مع عثمان، والعياق، والعيارين لدعم وإصلاح مصر من الداخل.

الفداوية الإسماعيلية:

قامت الفداوية فى السيرة بدور كبير لا يمكن تغافله فقد كانوا نواة حقيقة لدعم بيبرس فى حروبه ضد أعدائه (النصارى) على حد تعبير السيرة، كما تحولوا من أعداء بيبرس إلى أعوانه بفضل الصالح أيوب الذى أمرهم أن يحموا بيبرس مدى الحياة، وأخذ عهدا عليهم بذلك، كما لعب معروف ابن حجر وشيحة سلطانا الفداوية دورا عظيما فى صد الخطر الخارجى، وقد تعاون الفداوية معهما فبالرغم من أن هناك طائفة منهم قد تمردت عليه، وعلى السلطان إلا أنه استطاع أن يقضى على هذا التمرد، ويدخل المتمردين فى زمرة قوى التحالف ضد العدوان بأشكاله وحيله، ولعل سبب تمردهم هو أنهم قد أرسوا قواعد للقائد الذى تسلط عليهم كأن يكون بطلاً مغواراً فارساً عظيماً، أو بطلاً يتم اختياره ويجمعون عليه من قبلهم فلا يفرض أحد عليهم زعيماً. لذا كان هو الخلاف الدائم بين بعض من الفداوية، ومع شيحة لأنه جاء عليهم زعيماً بالتعيين من الظاهر بيبرس، وبفضل فروسيته، وبطولاته، ورصده لحيلهم اعترفوا به وبقدراته.

وقد عنى بهم التاريخ وألقى الضوء عليهم وعلى نشاطهم كما أن السيرة لم تغفل هذا الجانب ومن ثم سنعرض ما كتبه التاريخ وما كان يتتبعه القاص الشعبى منهم وكيف صورهم داخل السيرة.

فهم ينتسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الذى نجح أتباعه حتى إقامة الدولة الفاطمية بعد وفاته بعدة قرون، ومن أهم المبادئ التى قام عليها مذهبهم إيمانهم بأن العقيدة ظاهر، وباطن مما جعل الناس يطلقون عليهم اسم (الباطنية)، وقد اشتدت دعوة الباطنية فى فارس، والشام بوجه خاص، وبرز

منهم من شيد القلاع المنيعة فى فارس، وأهمها قلعة الموت، وأخذ الباطنية يواصلون دعوتهم فى سبيل المذهب السنى على قتل بعض زعماء حركة الجهاد الإسلامية ضد الصليبيين، فقتلوا جناح الدولة أمير حمص سنة ١١٠٣، وامتلكوا حصونا من بلاد الشام أشهرها (مصياف)، والعليقة، والقدموس، والكهف، والرصافة، والمنيقة وغيرها، ويبدو أن عداء الباطنية لأهل السنة جعلهم يتقربون إلى الصليبيين بالشام ضد الأيوبين ثم المماليك.

(لذلك دأبت القوى الصليبية ببلاد الشام على إرسال الهدايا إلى الباطنية إتقاء لشرهم من ناحية وطمعا فى تأييدهم من ناحية أخرى، وكان من المستحيل أن يرضى بيبرس عن وضع الإسماعيلية الباطنية فى بلاد الشام. لذلك بدأ بيبرس بفرض ضرائب باهظة على الهدايا التى اعتاد الصليبيون أن يبعثوا بها إلى شيخ الباطنية، ومن ثم أرسلت الإسماعيلية رسلا إلى الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧م ٦٦٥هـ، ومعهم جملة من الذهب، وقالوا "هذا المال الذى كنا نحمله قطيعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين لينفق فى لمجاهدين"، وما لبث بيبرس أن استولى على حصونهم سنة ١٢٧٠- ١٢٧٣، ويروى المقريزى أنه بعد أن طرد الإسماعيلية من بلاد الشام أقيمت هناك الجمعة، ورضى الصحابة بها، وعفيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الاسلام، وشعائره، ولعل فى هذه العبارة ما يكفى للدلالة على أن المعاصرين كانوا ينظرون إلى تعاليم الإسماعيلية على إنها بدعة فى الدين مما يفسر حروب بيبرس ضدهم)[٢٧٩].

ولعل السيرة قد حافظت على هذه السمات التى كانوا يتميزون بها ففرقتهم فى الشام وإن جمعت أغلبهم فيما (اسمته سلطان القلاع، والحصون، ولعلها القاعدة التى كانوا يشنون منها غاراتهم، والفروسية التى اسبغتها عليهم صحيحة لا إسراف فيها، والجرأة التى اتسم بها أبطالها ليس فيها تزين ولما كان الغموض يحيط بجماعات الإسماعيلية، وأخبارهم كان التاريخ يحتفظ فيما نسب إليهم، فإن القصص التى تشبه الملاحم تجمع أيامهم، وتذكر أخبارهم، ويمكن أن تكون مرجعا تكمل به الرواية التاريخية فالفداوية كسائر البدو لا يقيمون على

(٢٧٩) العينى: عقد الجمال – جـ٢ – المجلد الثالث – ص ٥٢٩.

ضيم فهم يجتمعون على من ضامهم حتى يروه، أو يهلكوا دونه يدافعون عن طالب نجدتهم، وقد أبدوا شجاعة ضد المغول، والصليبيين (فهولاكو) الذى طوى الرقعة الإسلامية طياً عزت عليه حصون الإسماعيلية فى الشام انتزعها أول الأمر ثم انتزعها أصحابها بعد ذلك، وقد استحق الفداوية هذه التسمية لاستهانتهم بالحياة، ولم تدفعهم هذه الإستهانة إلى الزهد فيها والقعود عنها، وإنما دفعتهم إلى طلب الجلائل، والإتيان بالعظائم، والأخذ من الحياة بنصيب موفور، وقد تطلق كلمة فداوى فى بلاد المغرب على الرجل الذى يقص أخبار الأبطال)[٢٨٠]، ومن ثم يمثل الفداوى حالة من التمرد، والعصيان على كل سلطان لم يختاروه بأنفسهم فكانت لهم أنساق وظيفية حيث أنهم طائفة من المجتمع لهم عاداتهم، وثقافتهم الخاصة بهم حيث أنهم ظهروا فى بنية الحكايات السردية فى أشكال متفرقة إلا أن هذه الحكايات لا يمكن أن يستقيم بناؤها الفنى بدون هؤلاء الفداوية، فبالرغم من عصيانهم، وتمردهم إلا أنهم ينقذون المسلمين فى لحظات يكون السلطان، وجنوده أحوج إليهم من غيرهم لأنهم منتشرون فى كل ناحية، وصوب مثل الجبال، والمغارات، والقلاع يستطيعون أن يكشفوا أسرار هذه الأماكن التى تكاد أن تكون أسطورية.

ونستطيع أن نجمل أهم سمات الفداوية من خلال السيرة فهناك فداوية ساعدوا شيحة، وهناك فداوية حاربوه، ثم مالبثوا أن كتبوا اسمه على سيوفهم وأطاعوه، وفداوية كانوا يحملون الأخبار، وفداوية اتحدوا مع العدو ضد السلطان.

فبعد أن عاهد السلطان الصالح أيوب الفداوية أن يجتمعوا على قلب رجل واحد مع بيبرس فمنهم من اجتمع، ومنهم من افترق فمن افترق كان شيحة، وظل متتبعه إلى أن يتوحد معه ضد الأعداء، فما لبث شيحة أن جمعهم، وجاء بهم إلى مصر فعندما نزلوا مصر صاروا وكأنهم أرهاط الجن جاذبية (شواكرهم)[٢٨١] كأنهم النيران، ونظر أهل مصر إلى الفداوية، وهم نازلون فى

---

[٢٨٠] عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس – ص ٢٧ – ٢٨.

[٢٨١] شواكرهم: أسلحتهم سيوفهم.

صورة الغضب، فانزعجوا (فصاح المقدم إبراهيم لا أحد يتحرك ولكم الأمان فسكت الناس)(٢٨٢).

وبحضورهم إلى مصر بدأوا يتولون مهامهم فمنهم من كان فى ميدان المعركة ومنهم من كلفه السلطان بالبحث عن شخصيات مهمة لمعرفتهم بالدروب وخاصة دروب الشام، فقد كلفهم السلطان ذات مرة أن يبحثوا عن رجل، وامرأة قام جوان باختطافهما، (فقال السلطان يابنو إسماعيل كل من جاب لى خبر زوجة هذا الشاب وأبو زوجته فى أى محل كان له عشرة آلف دينار)(٢٨٣). ومنهم من تمرد على شيحة، والسلطان نفسه، وخاصة من كان منهم غائبا فى الفيافى، ولم يعرف بتولى سلطان القلاع الذى لم يختاره بنفسه كمعروف بن حجر، فكان من شروط إطاعة سلطان القلاع أن الفداوى يحارب ذلك السلطان أولا فإذا بارزه، وكانت الغلبة لسلطان القلاع دخل الفداوى فى زمرته، واعترف به، وكتب اسم سلطان القلاع على سلاحه (شاكرته) مما يدل على الولاء الكامل لهذا السلطان فيعد هذا الاسم بمثابة العهد الذى لا ينقض أبدا بينه وبين رئيسه فهو مكلف بسماع، أوامره فالخيانة ليست من طبائعهم، ولكن تأتى محاربتهم لسلطان القلاع من كونهم غائبين ولم يعلموا عن الأمر شيئا، ومن أمثالهم "حسن النسر"، و"عباس أبو الدوايب"، و"نصير النمر"، و"شر الحصون"، والمقدم "خطاب شرف الدين"، والمقدم "سمعان الكرت بن اسلام سليمان الجاموسى" وغيرهم، فقد كان لهؤلاء جولات عديدة مع معروف بن حجر، وشيحة إلى أن اعترفوا بهما جميعا بعد سجالات ليست باليسيرة.

فمن جولات "حسن النسر" أنه حاول كثيرا إعاقة شيحة، وأتباعه فقد قبض عليهم عندما هموا بالقبض على جوان، وأدخلهم السجن، وأصر على تنفيذ قسمه فقد أقسم أن كل من يأتيه إلى قلعته لابد أن يحمله طوب، وطين، ويساعد السقايين وقد استطاع الأغا شاهين أن ينقذهم بأن يبر له قسمه، فحملهم الطين، والطوب، ثم أخذهم وجاء "حسن النسر" إلى شيحة، وسلم عليه وقبله

(٢٨٢) السيرة: م٣ – جـ٢٤ – ص ١٧٠٣.
(٢٨٣) السيرة: م٢ – جـ١٦ – ص ١٢١٢.

بين عينيه، (وقال له لم يكن لى أعز منك، وقال للملك أيدك الله بالسيادة الملكية)(٢٨٤).

كما لاقى شيحة تمردا من "عباس أبو الدوايب" الذى قام بحبس زملائه فى قلعته معلناً عصيانه لشيحة، فيحاول شيحة أن يرده الى صوابه، فلم يكن عقاب شيحة له أو لغيره من العياق إلا تأديبا فقط، دون النيل منه، أو قتله عقابا على تمرده، لما يدركه شيحة، وبيبرس أن السلام محتاج الى قوة هؤلاء فلهم وظائف، وأنساق، لا يمكن لأحد أن يقوم بها، ومن ثم كان بيبرس يحاول ترويضهم، فإذا وجد منهم عنادا عاقبهم شيحة، وصالحهم بيبرس حتى يدخلوا في الطاعة تحت لواء الدولة الرسمية ثم تتوجه وظائفهم إلى حماية الإسلام بدلا من حماية سلطان القلاع فقط فتحولت وظائفهم من الدفاع عن الفرد، إلى الدفاع عن الجماعة(٢٨٥).

لذا كان السلطان يأمن لهم بعد إجارتهم له ويكلفهم بأمور منها البحث عن النساء اللائى اختطفن لمقدرتهم على ذلك ولقيمهم التى يتحلون بها في حفظ النساء من أي سوء، فقد سرقت ابنة أبو بكر البطرانى (وكان هذا أمر عسير فالتفت السلطان إلى أولاد إسماعيل، وقال لهم هل فيكم من يفتش على بنت أبو بكر البطرانى فقال المقدم إسماعيل أنا يا دولتلى يسير معى إلى المحل الذى سرقت منه وأنا أجتهد فى خلاصها ولو تكون فى سد الإسكندرية)(٢٨٦). أما الفداوى "الكرت بن إسلام" فكان لا يرضى بمعروف بن حجر بديلا لذلك أصر على أن يقتل الظاهر وشيحة معا (فقد كان الكرت بن إسلام غائبا فى بلاد النصارى خمسة وثلاثين سنة، وثقل ظهره بالمال، وشكت رجاله الغربة، فجمع أمواله، وسافر إلى قلعته، واجتمع برجاله، وسأل عن معروف، فأخبروه أنه مات، وأن المتولى الحصون شيحة، فحلف أن يقتله، ويقتل الظاهر، وركب، ودخل مصر، فسار في أربعين فداويا، فلحق به شيحة، وقبض عليه، وقال يا

(٢٨٤) السيرة: م٤ ـ جـ٣١ ـ ص ٢١٣٤.
(٢٨٥) انظر ملحق السيرة، فقرة رقم (١١١).
(٢٨٦) السيرة: م٤ ـ جـ٣٤ ـ ص ٢٣٤٠.

مقدم ايش تقول فى الإطاعة، فقال كيف أطيعك، وأنا تحت يدى ألوف مثلك لابد لى أن أقتلك، وأتولى محلك فقال شيحة لولا أنك من بنى إسماعيل كنت سلختك، ولكن أنت تستحق التربية، وما أن قام شيحة بضربه حتى دخل الكرت فى طاعته)(٢٨٧).

وهناك أمثلة عديدة فى التمرد، والعصيان، ولكن منهم من اختص بحمل الأخبار، وخاصة لعرنوص بن معروف بن حجر لتقصى من خلالهم الأخبار فكانوا جبهة لصد العدوان فى الخارج عبر الفيافى والقلاع المسحورة، وتقصى الأخبار، وإرسالها إلى عرنوص الذى قام بدور لا يستهان به فى صد هذا العدوان كسلطان للقلاع، ومن هؤلاء الفداوية اثنان من أتباع موسى "بن حسن القصاص" اللذان كانا مقيمين على جزيرة فى البحر، وقد شاهدا فيلقين تعدهما الملكة بحرونه الكاهنة لغزو بلاد المسلمين، فأخبرا عرنوصا بذلك، فصدقها ثم هرع لملاقاة الكاهنة، وجنودها حيث اصطحب الفداويين ليمارس مهمتهما في قص الخبر أثناء المعركة، ولا يخلو جزء في السيرة من ذكر مآثر الفداوية، انساقهم الوظيفية التي استمرت الى عصر السعيد بيبرس فقد انقسموا فيلقين أحدهما يتبع السعيد، وثانيهما يتبع أحمد بن أيبك مثل المقدم سمعان الذي بدأ يؤلب أحمد بن أيبك على السعيد بخلاف بينهما حول امرأة تدعى (قمرية بنت المغيث)، كان كل منهما يريد الزواج بها، فلما حانت فرصة لأحمد بن أيبك أن يقبض على السعيد بإيعاز من المقدم سمعان وضع السعيد في السجن إلا أن قمرية صنعت حيلة حتى دخلت على السعيد وأخرجته، ولاذت بالفرار، ويتبين من ذلك أن الفداوية كانوا أطرف صداع، فإما مهاجمون يدافعون عن الاسلام، أو موالون لأيبك وابنه يثيرون الفتن والاضطرابات(٢٨٨) .

معروف بن حجر:

وهو أكبر رؤوس الفداوية، ووارث الزعامة، والشجاعة عن أبيه وقد جاء عبر سيرة "حمزة البهلوان". وأخذ هذا المنصب بالاختيار بعد أن نازل

(٢٨٧) السيرة: م٥ – جـ٣٤ – ص ٢٩٨٩ – ٢٩٠٠.

(٢٨٨) انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١١٢).

الفداوية جميعهم، وأيقنوا أنه لابد أن يكون زعيما عليهم، ونازل أخوه الأكبر إسماعيل أبو السباع الذى تربى بين الفياقى، وبين الأسد والسباع، وعرف لغتهم إلا أن معروفاً كان أقوى منه منازلة، وأعظم بسالة على القتال، فتمكن من خلال دوره النسقي أن ينتزع الزعامة من أخيه أبى السباع أمام مشهد أسطوري للمنازلة بين أكبر متنافسين، ووارثين الزعامة عن أبيهما (حجر سلطان القلاع) حتى آلت الزعامة لمعروف بعد أن شهد له الفداوية جميعا بالزعامة له بعد أن نازلوه واحدا تلو الآخر، حتى هزمهم ومن ثم كتبوا اسمه كزعيم على سيوفهم، ويظهر من هذا جليا نسق الفداوية عامة حيث لا زعامة إلا للقوى المتمرس، فلا يعترفون بمبدأ الوراثة ولا صوت يعلو على صوتهم إلا بالقوة والسلاح فإن وجدوا زعيما عليهم ضعيفا أهلكوه، وإن فرض عليهم قائدا تمردوا عليه، ومن ثم استطاع معروف أن ينازل سبعة عشر سلطانا للقلاع حتى إذا هزمهم فكان سلطانا للقلاع بعامة(٢٨٩).

أما دخول معروف عالم سيرة الظاهر بيبرس فقد أتى ذلك بسؤال معروف عن رجال من الفداوية فتجيبه السلاطين أنهم عند الأمير بيبرس فى غزوة إنطاكية فيأمر بإحضارهم فى السلاسل، والأغلال، ومن ثم يدخل معروف عالم السيرة محملا بمعتقداته، وقيمه، وتراثه بالإضافة إلى بطولته النادرة. وبهذه الهالة العظيمة لمعروف جعلت السيرة الأمير بيبرس أن يأتيه سعيا بأمر من الصالح أيوب الذى سمع عن معروف، فأرادا الاستعانة به فلم يجد الصالح أيوب أفضل منه فى مهمة أسندها إليه، وهى حراسة "مريم الزيارية" ابنه ملك جنوه حنا الرين إلى بيت المقدس فقد اعترها مرض (فنذر أبوها إن شفيت أن يرسلها لتزور الغمامة المقدسة عند المسيحيين، وقد شفيت الفتاة، وأرد أن يبر بوعده فعلم أن الملك الصالح قد أمر بسد الغمامة لذا فهو يطلب منه أن يرسل من طرفه أحدا يغفر ابنته من يافا إلى الغمامة، ومن الغمامة إلى يافا ويأخذ خمسة آلاف شريفية حق طريقه ويرسل مع الخطاب هديه له وفرمانا وخزنة مال)(٢٩٠). وقبل الملك الصالح المهمة، وأرسل لمسئول

(٢٨٩) انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١١٣).
(٢٩٠) السيرة: م٢ – جـ١٢ – ص ٨٦٣.

الغمامة بفتحها وفكر فى أن يرسل الخطيرى وهو من أبناء عمه (إلا أن الخطيرى ذكر بأن المسئول عن غفر بنات النصارى هو سلطان القلاع، والحصون من الفداوية معروف بن أسد فأرسل إليه الملك الصالح الظاهر بيبرس، ومعه عثمان الحبلى، ومعهما رسالة يطلب فيها أن يغفر ابنه الرين حنا حتى بيت المقدس)[٢٩١].

وعندما وصل إليه بيبرس وجد مكان معروف يحيط هالة من الأسطورة حيث أنه مكان سلطان القلاع فمكث بيبرس مدة طويلة ماشيا (من مكان إلى آخر والخفر فى ركابه قطع الديوان الأول، واستقبل الثانى، وإذا به أقوى وأعظم من الأول فتصايحوا الرجال عليه من أين؟ وإلى أين؟ فأخبروهم بأنه نجاب فأمروه بالدخول فدخل فوجد الثالث أعظم وأكثر رجالا من الإثنين ومازال يدخل من ديوان إلى ديوان إلى الديوان السابع فتأمل، فوجد رجالاً قد اصطفوا صفوفاً، ومعروفاً بينهم داخل مقصورة من خشب العاج الهندى، ثم قال معروف من أنتم؟ فقال بيبرس نحن من الصالح أيوب، فقام معروف وقص شارب بيبرس، ثم صاح عليه بالخروج، فأسرع بيبرس وعثمان بالخروج)[٢٩٢]، وهنا استطاع معروف أن يختبر قدرة بيبرس فى المبارزة، حيث أرسل وراءه أربعة وعشرون فارسا قاموا بمبارزته إلا أن بيبرس صد كل الطعنات، وما لبث معروف أن نازله بنفسه حتى تيقن أن بيبرس فارسا مغوارا.

(وإذا كانت القوى مبدأ عند الفداوية فلا يمانع معروف أن يتآخى مع بيبرس حيث أنهما متساويان فى القوة، والنزال لذا جمع معروف سلاطين قلاعه الأسطوريين الذين يمثلون الكون كله، أو الفضاء بأسره، فبدونهم لا يكون للفضاء وزنا فهم السبعة عشر سلطانا الشمسية – والقمرية – والظلية، والعلوية، والسفلية الهوائية الأدرعية والجبالية الخلاوية)[٢٩٣]، وأوثقوا عهدهم للأمير بيبرس بعد ذلك تولى معروف مهمته التى تكون قدره ليلعب دورا أخر فى

---

(٢٩١) احمد شمس الدين الحجاجي: النبوءة – ص ٢٥.
(٢٩٢) السيرة: م٢ – جـ١٢ – ص ٨٦٤.
(٢٩٣) السيرة: م٢ – جـ١٢ – ص ٨٦٧.

السيرة ويكون القوى الخارجية التى تصد العدوان عن مصر، والشام، فذهب معروف مع بعض رجاله إلى يافا ليستقبل الفتاه، وظل ينتظر وصولها خمسة أيام (وفى اليوم السادس أقبلت مريم الزنازية بنت الرين حنا فى غليون، وفى صحبتها مائة بطريق مريم تطلب الشخص المكلف بتوصيلها فذهب معروف إليها، وعندما رأى البطارقة بهتوا فقد كان كالقمر الزاهر بين الكواكب حين نظرت إليه أخذتها هيبة عظيمة، ووقع حبه فى قلبها، أما معروف فإنه حين وقع نظره عليها رأى شمسا مضيئة ـ ولم يرفع رأسه إليها أبدا ـ وفى ضحى اليوم التالى أمر الرجال بالارتحال، ونزلت مريم فى الخيام وأقامت للراحة ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع دخلت الغمامة، ووقف معروف على بابها ثم انصرف إلى المسجد يريد الصلاة حتى تنتهى من زيارتها)[٢٩٤] وكى يلعب القدر دورا فى حياة معروف التى ما لبثت أن بدأت فى السيرة، فقد تزوج من مريم الزنازية، وقد بارك هذا الزواج قوى روحية كالعلماء، والأولياء فتحمل نبوءة ولدها الذى ينجب، ويتربى بعيدا عنها، وما لبث معروف أن يكون ثاني اثنين لقطبي البطولة، القوة، والقوى الروحية، كنسق عام للجهاد، والدفاع، فلا يمكن لأحدهما أن يستأثر بالبطولة دون الآخر، فالبطل بعامة يحتاج إلى كرامات الأولياء في العون والمساعدة، ومن ثم كان دخول معروف في السيرة أن يلتحم بهذه القوى التي شكلت لبنة أساسية في بناء السيرة، فالبطل في السيرة لا بد له أن يستعين بها فإذا كان يجاهد في سبيل الله، فعلى الله أن يمده بمدد من عنده، فكان إذا غشى عليه أمر دعا الله مستجيرا فيأتيه الغوث، والمساندة متمثلة في الولي عبد الله المغاوري الذي اختص بالدفاع عن الاسلام بعامة، وعن البطل بخاصة، فعندما تضرع معروف إليه أن ينجيه من الملك حنا الرين ومن بأسه وجنوده بسبب زواجه من ابنته مريم، وهو بالسفينة فإذا بالبحر قد هاج، وأزبد، وماج، وظهر مركب في وسطه بمقدادين من الجريد الأخضر وبها الولي عبد الله المغاوري، وقد أنقذه الله من الهلاك[٢٩٥].

---

[٢٩٤] السيرة: م٢ ـ جـ١٢ ـ ص ٨٧٠.

[٢٩٥] انظر ملحق السيرة ، فقرة رقم (١١٤).

واستمر معروف داخل عالم السيرة بين الحين والآخر يقوم بجولات استكشافية عن الأعداء محاولا من خلال هذه الجولات أن يؤكد زعامة ابنه وبطولته لدى السلطان فقد يجدا العذاب، والأهوال معا لأن عرنوص كان بطلا فريدا قد أصابه الغرور، وأحيانا كان لا يعجبه رسائل السلطان فيرد عليها بغرور وكبرياء فيسعى معروف لحقن الدماء بين ابنه، وبين السلطان، وازداد عرنوص فى غروره متعجبا بنفسه، وخيلائه فتزوج بأكثر من فتاة فكلما مر على بلد تزوج منها لذا يشكو معروف إلى ابن عمه حمزة البهلوان صنيع عرنوص، وهنا تمتد السيرة لتصل بين سيرة حمزة البهلوان، وسيرة الظاهر بيبرس، ولنا أن نسمى هذا الامتداد (مصاهرة السير).

عرنوص بن معروف

عرنوص بن معروف وأمه مريم الزنازية ابنة حنا الرين. وقد اختطف من أمه، وتربى بعيدا عنها فى بلاد النصارى على حد تعبير السيرة، وما أن شب غن الطوق، حتى تعرف على أبيه معروف بن حجر بعد أن طوقت شخصيته بميزات اكتسب حظاً من نشأته الأولى عند جده لأمه متمثلة فى الفخر والكبرياء، كما اكتسب قسطا من الفروسية والإيمان بالإسلام وبمبادئ الفداوية.

ومن ثم كان لا يرضى بسلطان عليه، لذا تصادم مع السلطان بيبرس وحدثت صراعات حوارية حول الزعامة والنسب والسلطة، حتى آلت بالحرب. كما كان عرنوص محورا لمصاهرة سيرة حمزة البهلوان الذى يظهر كمؤدب لعرنوص ومهذب لسلوكه بناء على طلب ابن عمه معروف له. لكن كل هذه المميزات التى تحلى بها عرنوص قد انصهرت فى ميزة واحدة إثر وفاة معروف، وأصبح لا هدف له إلا الدفاع عن الإسلام وأكثر مساندة السلطان فى حروبه.

وتعد الأحداث الخاصة بعرنوص فى سيرة الظاهر بيبرس بمثابة سيرة داخل سيرة بما لها من عناصر أسطورية خاصة للبطل من الاغتراب الاعتراف والصراع، فغربته تأتى عبر نبوءة أمه مريم الزنارية، وما رأته فى الرؤية أنها

تلد ولدا يربى بعيدا عنها، فما أن حملت من معروف وولدت عرنوصاً حتى اختطف منها، وتربى عند البب مغلوين، وتعلم لغة النصارى ليكون واحدا من أبطال السيرة الذين تربوا بعيدا عن ذويهم، وأصبحوا غرباء، ولعل هذا الاغتراب قد صنع أبطالا أسطوريين، فقد تعلم عرنوص فنون الحرب ولغة العدو التى ساعدته كثيرا فى كشف الحيل.

أما التعرف عليه والاعتراف به، فقد جاء بقدر عبر مواجهة بين المسلمين والنصارى، فالتقى البطلان معروف وعرنوص، وكل منهما يحمل معتقدا، وصفة فى ساحة المعركة.

فى معركة صنعها عرنوص بمثابة المهر للعروس، فقد وعد البب مغلوين عرنوصاً أن يزوجه ابنة شموس إذا استطاع غزو بلاد المسلمين، وقد رسخ جوان فى ذهن عرنوص أن ذلك الغزو هو طلب المسيح أيضاً، ومن ثم كان هدفه رضاء المسيح، ونيل زوجة ملكة ابنة ملك، إلا أنها كانت حيلة من الملك مغلوين كى يتخلص من عرنوص، فقد كان طريقه وعرا مملوءا بالسباع، ومحفوفا بالمهالك، وعندما شرع عرنوص فى الغزو وجد السير ظهرت له لبوءة فأراد أن يطاردها، فاختبأت منه وتصايحت حتى اجتمعت السباع عليه، وأرادوا أن يفترسوه (وهنا يظهر البطل المخلص، أو ما نسميه بطل الموقف الذى تجسد فى معروف لينقذ ابنه عرنوص)[٢٩٦] من السباع ثم اقترب منه، وأخبره بأنه أبوه، فقد عرفه من خلال شيحة الذى خلصه من سجن الكتلان، كما أعلمه معروف أنه مسلم وأمه مريم الزنارية، ثم اصطحبه إلى قلاعه وعاشا معاً.

لكن عرنوص لم يتخلص من صفات قد اكتسبها من خلال نشأته الأولى، وهى كثرة زواجه من النساء، وخاصة الملكات والأميرات، واستمرت هذه الميزة بشخصيته حتى تعرف على أبيه، إلا أن هذا الأمر فى بداية اعتراكه بالحياة الإسلامية بات قلقاً، لذا لم يجد معروف بدا لأن يشكو لابن عمه حمزة

---

(٢٩٦) احمد شمس الدين الحجاجي، مولد البطل في السيرة الشعبية، ص ٧٥.

البهلوان صنيع عرنوص، فيعده حمزة برد عرنوص إلى صوابه، وتقويم سلوكه، فتتبع عرنوص حتى وجده محاطاً بجنود الملك مغلوين الذى علم بارتداده عن النصارى فأراد قتله، لكن حمزة البهلوان هب كالسيل العرم على الجنود حتى أفتك بهم جميعاً.

ولعل هذا الموقف الذى يظهر فيه حمزة البهلوان ليلعب دور المخلص يتساوى فى نسقه مع البطل الظاهر بيبرس (فهما من أبناء المملوك الذين حددتهم السيرة الشعبية، فتذكر سيرة حمزة أن والده هو الملك إبراهيم حاكم مكة، وليس هناك مكان أشرف لدى المسلمين من مكة)[٢٩٧].

أما الصراع: فيتمثل فى عنصرين وهما:

أ- الصراع مع بيبرس.

ب- الصراع كدفاع عن الإسلام.

فالصراع مع بيبرس جاء نتيجة شعور عرنوص بأنه ملك وبن ملك لا يؤمر، ولا يمتثل لأوامر غيره إلا برضائه. وحاول معروف أن يثنيه عن هذا الغرور إلى هدف أسمى وهو الجهاد، وهيهات هيهات لا يدرك عرنوص ذلك إلا بعد وقت طويل وتجارب عديدة.

ومن ثم كان من الطبيعى أن يرفض أوامر السلطان بيبرس في أن ترك عرنوص أولاد البب رومان الذين سجنوا لدى عرنوص، فاستجار البب رومان ببيبرس فأجاره، لكن عرنوص يجد فى هذا الأمر انتهاكاً لحقوق الملوك، فهو ملك وابن ملك. ويحاول معروف تهدئة الصراع حيث لا سلطان للدولة الإسلامية إلا بيبرس، لكن عرنوص لا يعترف بذلك لأن بيبرس مملوك مفتخرا بنسبة، فهو ملك بن ملك حر فيقول: (من حضرة الملك سيف الدين عرنوص بن المقدم معروف المنسوب إلى الإمام على ابن أبى طالب إلى بين أيادي الملك

---

[٢٩٧] أحمد شمس الدين الحجاجي، المرجع نفسه، ص ٧٦.

الظاهر بيبرس، اعلم يا ظاهر أننى لست من ملوك النصارى حتى أذل لحكمك، أو أمتثل لأمرك، حتى تأمرني، فإنى أنا سلطان، وأبى سلطان، وجدى سلطان)[٢٩٨].

ويستمر الصراع بين عرنوص وبيبرس، حتى خرج من نطاق قضية أولاد دفنش إلى قضية الأمر والامتثال له والزعامة، فقد بات عرنوص مصرّاً على خوض معركة ضد الظاهر، فيرسل السلطان رسالة إليه مفادها أن يتخلى عرنوص عن الغرور، والكبرياء فقد لا ينفعه من تجمع حوله من ملوك النصارى، فما هم إلا أهل ذمة رتب عليهم الخراج (فإن السباع لا تبالى إذا كثرت أمامها الغنم، وما هم إلا حطام لسيف الإسلام)[٢٩٩]، فيشن عرنوص حرباً ضد السلطان، ويحاول معروف مع شيحة رأب الصدع بينهما، لكن لغة السيوف إذا علت لابد من الحرب التى يتأكد للطرفين من خلالها أن ملوك النصارى ما قصدت مساعدة عرنوص إلا للنيل من الإسلام، فيدرك عرنوص ذلك، ويدافع عن المسلمين وسلطان المسلمين. فقد نال عرنوص ما تمنى من مواجهة السلطان حتى يرضى غروره وكبريائه، فماذا يريد بعد هذا إلا أن يكون له هدف مثل هدف السلطان بيبرس، وهو الجهاد والدفاع عن المسلمين بصفته ملك مسلم.

فيعجب بيبرس بشجاعته ويقربه من ملكه، ويكتسب بيبرس قوة لها شأن عال فى الصمود، والنزال، لذا كان بيبرس يرسل عرنوص لتأديب ملوك النصارى، ولأنه أعلم بما يفكرون وما يدبرون من مكائد، وفى معركة حامية الوطيس يشارك فيها بيبرس وعرنوص، يرى بيبرس رؤية لنهاية عرنوص، فيحاول أن يثنى عرنوصاً عن مهمته، لكن عرنوصاً جعل مهمته شرف لا يقاربه شرف، حتى اضطر بيبرس لحبسه لكن لا مهرب من القدر، حيث لا يموت الفداوى إلا محارباً داخل وطيس المعارك، فيقتل عرنوص بعد بلاء حسناً فى المعركة.

---

(٢٩٨) السيرة، م٣ ـ جـ١ ـ ص ١٥٥٥.

(٢٩٩) السيرة، م٣ ـ جـ٢٠ ـ ص ١٧٦٤.

جمال الدين شيحة:

إذا كانت السيرة الشعبية تولى اهتماما بالأبطال الأقوياء المحاربين مثل الظاهر بيبرس، وإبراهيم بن حسن الحورانى، وعثمان بن الحبلى، فإنها أيضا تهتم بالنسق الوظيفى لشخصية المحتال، الذكى، الذى يتمتع بالدهاء الذى يلعب أدوارا مختلفة لإيقاع العدو فى حيلته فمرة يتقمص شخصية قديس، أو باشة البطارقة، أو عجوز، أو تاجر، أو امرأة (ماشطة) ... إلخ. مما أعطى لهذا النسق الوظيفى دوره، ودلالات أسطورية أحاطت بهذه الشخصية الغامضة التى لعبت دوراً فى المعارك لا تقل شأنا عن الأبطال المحاربين، وليس معنى ذلك أن هذه الشخصية لا تتمتع بقوة بدنية يحتاجها صاحبها فى المعارك، بل على العكس كانت لها دورٌ داخل خضم المعارك حتى جمعت بين القوة والحيلة فاستحقت أن تكتب على أبواب وأجزاء السيرة مقترنة بالبطل الحقيقى لها ألا وهى شخصية جمال الدين شيحة.

فلم يكن ظهور هذه الشخصية فى السيرة فجأة من ناحية الاحتياج إليها عبر المواقف فحسب، بل إنها جاءت بقدر مكتوب فى (كتاب الزمان) لتكون شخصية مضادة للعدو الأكبر للمسلمين، والذى يمثل الحيلة، والاحتيال، والشر (جوان). ففى كتاب الزمان يذكر شيحة ومعه جوان (إن الله تبارك وتعالى خلق كهينا يونانياً، يقال له يونان وكان يحكم على سائر أرهاط الجان، وكان الجان يصعدون إلى السماء، ويسترقون السمع من الملائكة، ويخبرون ذلك الكهين، ويقولون يظهر فلان بعد فلان إلى أن قالوا له: يظهر فى آخر الزمان نبي عربي يقال له محمد، ويعطل سائر الأديان ويظهر دينه المسمى بدين الإسلام، ويتناسل من دينه رجال أشراف يقال لهم أولاد إسماعيل، ويظهر لهم رجل بدوى من عرب غزة، ويتسلطن عليهم ويطيعونه ثم إنه يتخاوى مع رجل آخر يظهر من بلاد العجم، ولكن يظهر لهم عدو اسمه "جوان" يجعل لهم مكايد كثيرة ثم يقطعونه غصبا فى آخر المدة، فلما سمع الكهين ذلك من الجان، قال: لابد أن أحمى جوان من أعدائه، وصار يكتب فى تلك الصحائف جميع المهالك للإسلام، وجميع المسالك إلى جوان من مولد جوان إلى انتهاء مدته، وصار

يرسل الجان إلى الأماكن التى يقضى فيها جوان، ويعلمهم ما يفعلونه فيها، فلما مات ذلك الكهين خلفه ابنه "إينان" الذى هداه الله للإسلام فأسلم، فبدأ يكتب لكل مهلكة عملها أبوه مسلكا")[٣٠٠].

استطاع هذا البدوى الذى يدعى شعبان (شيحة) أن يكون قدر جوان فى حياته كجانب آخر مدافعا عن الإسلام، مستخدما عناصر أسطورية تكون عونا له على شر جوان، مثل البدلة السحرية التى أهداها له الولى عبد الله المغاورى، والتى بها يكبر، ويصغر، ويطير، ويحلق حتى استطاع بها أن يتقمص شخصية المسيح، أو رسول من المسيح يطير فى الهواء فتصدقه النصارى، لذلك كان يسير ومعه (جراب الحيل)، وقد رسمته أصحاب السيرة بقصر القامة، وأنه غلام جميل حلو المنظر حسن الوجه مكتمل العيون رشيق خفيف يعلى على الأرض مثل القدر، وزوده بالسوط الذى يحتم فيه قوته (كما جعل أصحاب السيرة محور حياة جمال الدين شيحة الصراع على سلطنة الحصون والقلاع، فقد كان أمراء الفداوية يستنكفون من مبايعة رجل قصير لم يؤثر عنه التبزير فى الفروسية، ومعاناة الحروب، وكان عليه أن يغلبهم بحيله، وينافسهم فى مكافحة العدو حتى أقر له الجميع بالفضل، ودانو له بالطاعة، ومن الصفات التى استحق عليها السلطنة قدرته على الظهور إذا حزم الأمر فى كل مكان، يلبى دعوة الداعى فيجده أقرب ما يكون إليه، يطلبه السلطان فى السجن فيجده السجان القائم عليه، ويطلبه المحكوم عليه بالموت، فيجده السياف الذى سيطيح برأسه، ويطلبه الفداوى فيجده أمامه، وكانت له عيون وأرصاد فى كل مكان وموضع تكشف له الأستار وتنقل إليه الأخبار)[٣٠١].

كما يعتبر جمال الدين شيحة عنصرا من العناصر الأسطورية التى تقوم بدور الفاعل فى الحدث تؤثر فيه تأثيرا، فإذا كانت شخوص السيرة تحتاج، أو توظف عناصر أسطورية لخلاصها من براثن العدو مثل السيف المسحور البراق الخاطف ...إلخ، فيعد جمال الدين شيحة عنصرا من هذه العناصر لأنه

---

(٣٠٠) السيرة م٢ – جـ١١ – ص ٨٠٣.

(٣٠١) عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس – ص٦٤ – ٦٥.

يدعى فى التو واللحظة فيجيب، فيأتى إلى مكان الحدث طائرا، أو ماشيا، أو راكبا جريدة، فهو شخصية أسطورية النشأة والفعل داخل السيرة (والظاهر أن هذه الشخصية لم يخترعها أصحاب السيرة اختراعا، وإنما أخذوها من واقع الحياة وأسرفوا فيها، ففى الأمثال السائرة على ألسنة الشعب إلى اليوم (إن فلانا يعمل أعمال شيحة)، أى أنه يتفنن فى ضروب الحيلة والتمويه، ويأتى بالعجيب المغرب، كما أن هناك ضريحا على مقربة من دمياط لولى بهذا الاسم فيه بعض آثاره منها سيف وبدلة، ويقول أهل هذا الموضع أن هذه البدلة هى بدلة الملاعيب، التى كان يستعين بها فى التمويه على العدو، ونصرة المسلمين، ولعل اسم " شيحة " يأتى نسبه إلى الطائر المعروف (باليشوح) المشهور بأنه يغير ريشة ثلاث مرات فى اليوم)[٣٠٢].

ويدخل شيحة السيرة عبر القوى الروحية التى تمثلت فى الأولياء، فيقدمه عبد الله المغاورى إلى الصالح أيوب كقدر يزيل غم المسلمين، ويساعد على نصرتهم، فيقول عبد الله المغاورى: (اعلم يا صاح أنك ربيت ملك وأنا ربيت ملك وهذا الثالث وقد ظهر من علم الله تعالى فقال له ومن هم يا سيدى قال له أنت ربيت بيبرس وأنا ربيت أبا بكر الطبرانى والثالث سيظهر أمره فى هذه الليلة) وأشار عبد الله المغاورى إليه، وقد اطمأنت الرجال[٣٠٣]. فيحاول الملك الصالح أن يقربه من الفداوية وقد أمره أن يخضعهم لحكمه حتى إذا اعترفوا به، كتبوا اسمه على سيوفهم، ومن ثم بدأ شيحة ألاعيبه فتمثل فى امرأة سوداء بأمر سليمان الجاموسى، ثم فى شخصية البرتقشى قرين العدو لجوان، ثم فى الملك حنا الدين، فيقول مفتخرا بنفسه أمام المالك الصالح: أنا الذى أوقعت سليمان الجاموسى، أنا الولد الصغير، أنا البطريق، أنا الراهب، أنا كبير القسس، أنا الراح، أنا البلبل الصياح، أنا مزيل من الكفار الأرواح والأشباح. فقالت الرجال له: أجل أنت شوح يا رجل شهوة يطير، يقال له الشوح. فقال لهم: وهذا رسم آخر)[٣٠٤].

---

[٣٠٢] المرجع نفسه: ص ٦٦.
[٣٠٣] السيرة م٢ – جـ١٣ – ص ٩٤٥.
[٣٠٤] السيرة م٢ – جـ١٣ – ص ٩٤٦.

ولم يأل شيحة جهدا فى القبض على الفداوية المتمردين، وجعل شروط إقناعهم كتابة اسمه على سيوفهم وخناجرهم، فعندما قبض على الفداوى الذى تعاون مع جوان ضد المسلمين، طلب الفداوى من شيحة أن يسامحه، ويدخل فى طاعته، فقال شيحة. وقد سيطر شيحة على عناصر أسطورية كانت ملوك النصارى يستخدمها لإيذاء المسلمين، فالسيف (المسحور المطلسم)، وطاقية الإخفاء أهداها للسلطان، وقد تخفى فى زى باشا البطارقة كى يذبح الكاهنة، التى أرهقت المسلمين بسحرها.

وأحيانا كان يطير ببدلة عبد الله المغاورى ليتجسد فى شخصية المسيح، ويكشف بها حيل جوان للقساوسة والرهبان، كما كانت له قدرته لمعالجة الأمراض للإنسان والحيوان، فقد عالج سبعا أصيب بجراح في عينه، وقد أبلى بلاء حسنا مع إسماعيل أبو السباع، فأخرج شيحة من جرابه البنج، وبدأ يعالج الأسد ويجمع جراحه، كما استطاع شيحة أن يعالج عرنوصاً من السم الذى دس له بواسطة جارية من بلاد العجم.

ولم يعتمد شيحة على حيله فى السيطرة على الأعداء، وإقناع الفداوية به فحسب، بل وظف ثقافته الدينية، ومنطقه فى إقناع الفداوية برجل أراد أن يدخله فى زمرتهم، وكانوا له رافضين، فقد أراد "حرص بن عزقيل اليفروى" الذى اسلم أن يكون واحداً من الفداوية، لكن الفداوية تضع شرطا كى يثبت حرص بن عزقيل أنه فارس وشاطر من الشطار، فقد أمرته أن يذهب إلى قلعة معينة تدعى قلعة "التوخميش" ويدخل على ملكها، ثم يخطف تاج ملكه من على رأسه. وما لبث حرص بن عزقيل أن ينجح فى مهمته، فيعجب به الملك التوخميش فيسلم ويذهب إلى السلطان بيبرس ليسأل عنه، لكن بيبرس يصنف له الفداوية، والعياق، والشطار حتى يستدل عليه. فيدرك التوخميش أن ذلك الفارس من الطيارة، فيرشده إلى المقدم سعد ساعى المسيرة وابنه ناصر الدين لأنهم من الشطار، حتى إذا وصل إليه أثنى عليه معجباً بشجاعته، ومن ثم ألح شيحة على الفداوية أن يدخلوا حرص بن عزقيل فى حوزتهم فاعترفوا به وصار شاطراً من شطارها.

ولم يلبث شيحة أن يحتال على ملوك النصارى، لنجده هو السلطان والأبطال المساعدين فقد دبر حيلة على الملك الفرقيط ونجح فى خطف السلطان بيبرس، حيث ادعى شيحة أنه طبيب يداوى المرضى، فلما اطمئن إليه الفرقيط جعله حارساً على سلطان المسلمين، عندئذ تبعه أولاد إسماعيل الذين هجموا على الجزيرة وأخرجوا السلطان منها. كما استطاع شيحة بحيلة أن يتزوج من رومة ابنة جوان التى أسلمت على يديه، حتى تقف ضد أخيها "أسفوط" الذى حاول خطفها من شيحة، كى يزوجها من ملك من ملوك النصارى على حد تعبير السيرة، لكن محاولة أسفوط بائت بالفشل، حيث تمثل شيحة فى شخصية "ماشطة" تمشط شعر العروس رومة قبل زفافها على ذلك الملك، ثم أخرج شيحة من جرابه البنج، وألقاه على وجه أسفوط، وخرج برومة حيث تم زواجهما.

كما استطاع شيحة أن يبدل جلد السلطان من الريش الذى أصابه من "دولاب الهوى" إلى جلد بشرى طبيعى، وذلك عندما عذبه ملك السودان بدولاب الهوى وأدخل جسمه ريشا فلم يستطع أن ينزع هذا الريش إلا شيحة، فقد عالج هذا المكون الأسطورى بمكون أسطورى فأصبحت البنية بحالتها أسطورية فنظر شيحة السلطان، فقال: (هاتوا جانباً من البصل، فعصر ماءه، وأوقف الملك فى يوم وليلة، ثم صنع جسر خشب، وعلق الملك فيه بثلاثة حبال، ثم ملاءه خل وأوقفه يوم وليلة، ثم رفعه بثلاثة حبال، وأبقاه مرفوعاً لمدة ثلاثة ساعات، وغير الخل بزيت حار، وأوقفه فيه يوم وليلة، ثم رفعه ثلاث ساعات، وبعده زيت سيرج، ثم طرحه على ظهره وبدأ يقلبه، ومسك رأسه ثم حركها حتى انسلخ من على بدنه الثوب، فظهر جلد الملك من تحته، ثم دهن جسمه بعشب يعرفه حتى قوى جلده)[٣٠٥].

وقد تكون هذه المعالجة شبيهة بفكرة التحنيط لما يؤول ذلك إلى ثقافة الراوى أن يضفى فكرة البعث من جديد للسلطان بجلده الحقيقى، وحياته الحقيقية بعد أن كان ميتا جسديا ولا يستطيع أحد أن يقوم بهذه العملية إلا شيحة لما له

---

[٣٠٥] السيرة م٤ – جـ٣٦ – ص ٢٤٣٠ – ٢٤٣١.

باع طويل فى المعالجة والاعيب، وحيل، وتغيير الهيئة الدائم، وأعمال السحر، فقد يقوم بدور ساحر ويتظاهر بأنه يقطع الرأس ويعيدها، وبهذه الحيل استطاع أن يقطع رأس ابن الساحر "شار مكاين" وخلال ذلك تجرى محاولة لجعل الرواية منطقية، فيقول شيحة: إن السحر (مجرد خيال لكن الناس يعتقدون أن كل ذلك حقيقة هكذا أتى السحرة فرعون بعصاً وحبل إلا أنهم أوحوا إلى الناس بأن التى تتحرك أمامهم حيتان بينما كانتا عبارة عن مادتين لا حياة فيها، كما استطاع شيحة شأنه شأن أبى زيد الهلالى أن يحل الألغاز، ويطرح الألغاز ليجيب عليها الآخرون، فمثلا يرسل الحبشيون إلى المسلمين شجرة ذهب لها ٣٦٥ غصناً، وتمثال آدمى من فضة، وأسد من ذهب، فيرد المسلمون عليهم بالمثل بهدية لغز)[٣٠٦].

جـوان:

(لولا هذه الشخصية هى مدبرة للشر لقلنا إن هذه السيرة أحرى بها أن تكون سيرة جوان)[٣٠٧]، وقد اصطبغ جوان بصبغة كونية فى بداية سيرة الظاهر بيبرس فى كونها متحررة إلى حد كبير من القيود الميثولوجية، اكتسبت طابع أسطورة القرون الوسطى الإسلامية، تلك الأسطورة المتعلقة بالشياطين والعفاريت، ويبدو لنا أن ذلك ساعد على تكوين شخصية "عقبة" الذى انحدر منه جوان، حيث وردت سلسلة نسب جوان من عقبة اللعين "محبوب الشيطان" فى الأزمان والعصور الغابرة. فقد كانت مجموعة من العرب تعرف بـ "بنى سليم"، وكان جميعهم مسلمين خرج منهم شخص يدعى "عقبة بن مثاب أو مصعب"، وكان مغرورا يبذر بذور الفتنة ويستعلم عن كافة أمور المسلمين وأخيرا أصبح مشركا ولم يؤمن بالله ورسوله، ثم ظهر من ذريته من هو ألعن منه، وحاد عن الصراط المستقيم ويدعى "مكيب" أو "مقيت" ولما كبر صار أبا لشخص اسمه "الحاسن"، وقد خلف الحاسن "سامان" الذى خلف "نشارات"

---

[٣٠٦] نعمة الله إبراهيم: الس يرة الشعبية العربية – ص ٢٣٢.

[٣٠٧] عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس – ص ٧٠.

الذى خلف "أصفهان" الذى ترك بدوره ابنين الأول "كيرسا ميول"، والثانى "أصفون أو عصفوت"[٣٠٨].

وقد تفنن الرواة فى رسم صورة جوان (فجعلوه صورة مجسمة لإبليس، فعند خروجه إلى الدنيا لمع البرق، وهطل السيل، وخسف القمر، وأظلمت الدنيا، فهو من فتنة ملكة البرتغال التى ماتت عند ولادته، وجاءوا له بالمراضع، فأنكرهن جميعاً، فأتوا بالغزال، والبقر، فنفر منها ثم حملوه إلى دير منعزل فيه كلبة جوئية ناحلة الشعر، فأقبل عليها ومازال يرضع من لبنها، حتى دب على الرصد ومشى، -وجعله القصاص غاية فى القبح- أبطش المنخر، رفيع العنق، كبير الرأس، شنيع المنظر، وكان خلقه كصورته كثير النفاق لا يكف عن الأذى، ولا يلقى شخصا إلا ويضربه، ولا يجلس مع قوم إلا ويفسدهم، ويلقى بينهم الفتن)[٣٠٩] حتى تتسق البينة الأسطورية لهذه الشخصية مع نهايتها كنسق وظيفى واحد، فإذا كان جوان قد ولد بفعل شر ورضع من كلبة، فجاءت أفعاله نجسة، لذا يموت مقطعا على عربة كلاب من قبل شيحة، ويكون الفعل متساو الضد، فمحتال الكفار يقتل على يد مختال من المسلمين، وبهما أثريت نصوص السيرة، كما جعله القصاص ينشأ فى دير النصارى، ويتعلم العلوم المختلفة (فعندما كبر أمره على الصليبين، واشتد أذاه أرسل إلى عمه "كرسمويل" فى دير العموم، فاجتمع هناك إلى أربعين من أبناء الملوك ممن يتفقهون فى العلم والدين)[٣١٠]، ومازال كذلك حتى فرغ من دراسة النصرانية، وسائر العلوم الخفية، وكان من عادة سكان الدير أن ينزلوا إلى البحر كل عام، فيقطعوا الطريق على الحجيج ويأسروهم، وكان من الأسرى رجل صالح من العراق اسمه "صلاح الدين العراقى" وقد عرف أنه عالم من المسلمين، وهو صاحب فضل وإشراق، يتفنن فى علوم كثيرة فى الحديث والتفسير له مشاركة فى الأدب والمنطق والعروض وسائر العلوم الدينية والدنيوية، فيسمعه جوان وهو يرتل

[٣٠٨] نعمة الله إبراهيم: السير الشعبية العربية – ص ١٥٢ – ١٥٣.
[٣٠٩] عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس – ص ٦٧.
[٣١٠] المرجع السابق: ص ٦٨.

القرآن، لذا دخل جوان عالم السيرة ومحاربته للمسلمين من اقترابه لهذا العالم، فقد تعلم منه علوم القرآن والمنطق وسائر العلوم الدينية. وكان يتعلم منه فى يوم ما يتعلمه زملاؤه فى شهر وظل على مصاحبة الشيخ صلاح الدين أربع سنوات، حتى نال منه سائر العلوم، ثم قتله جزاء الخير بالشر صاحبه فى ذلك "سيف الروم" الذى لا يقل شأنا عن جوان، وعندئذ علم كرسمويل بفعلهما، فطردهما، وكان أول عمل وظيفى لهذه الشخصية هو الاحتيال على المسلمين فى صورة قتل عالمهم الشيخ صلاح الدين الذى لبس لباسه، ونطق بلسانه، وحكم بمنطقه.

وكان دخوله إلى دائرة النسق الوظيفى الجديد الصالح أيوب، وبيبرس عن طريق الصاحب العدو (أيبك) -وليس من قبيل المصادفة أن يهيئ القصاص لهذا - لما أدركوه من تحالف سيتم بين جوان وأيبك داخل نصوص السيرة، فطرق الشر واحدة وإن اختلفت فى الفعل، فيلتقى بأيبك وهو يطلب أرض مصر، وكان وقتئذ مريضاً فطبب له صلاح الدين (جوان)، ومازال به حتى شفى حتى اعترف به وأمن به واحترمه واتخذه إماماً. وتتهيئ لصلاح الدين الفرص فعندما مات قاضى الديوان وتوسط أيبك عند الملك الصالح أيوب ونصبه قاضياً مكانه، واستغل هذا القاضى الجديد منصبه أحسن استغلال، فوقف جهده على حبك الدسائس وتدبير المكائد، ولولا الملك الصالح وعلمه من جهة، وقوة الأمير بيبرس وولاية عثمان وفطنته من جهة أخرى (لأفسد هذا القاضى أمور المسلمين، وقوض دولتهم -ولم يكتف القصاص بذلك بل جعله- يفيد من سابق صلته بالصليبيين، ويهيئ لهم من الأسباب ما يقربهم من النصر، ومازال جوان وصاحبه سيف الروم الذى تلقب بالمنصور يفتنان فى الحيل حتى اتضح أمرهما فى حياة الملك الصالح، وكان الأمير بيبرس كان عاملا على الإسكندرية ففرا إلى جنوه)[٣١١]. وكان فعل الفرار يساوى فعل الاستقرار، ففرار جوان يساوى استقرار بيبرس فى توليه عمالة الإسكندرية لتكون أول مهام مناصبه البحث عن مصدر المكائد والدسائس، الذى خلفها المفر (جوان).

---

(٣١١) عبد الحميد يونس، المرجع السابق، ص ٦٩.

وكان ملوك النصارى يوقرون جوان عالم الملة ويطيعونه، فيثرهم على المسلمين واحدا بعد الآخر، وما لبث المسلمون أن ينتصروا عليهم، ويعود جوان مأسوراً للسلطان الظاهر. ومن أظرف ما فى هذه السيرة ما ساقه المؤلف على لسان جوان فى منّه على الإسلام والمسلمين بأنه صاحب الفضل الأول فى فتوح البلدان، وأسر الملوك، والأميرات، واستصفاء الأموال. وبرر القصاص عدم قتل جوان بأنه من المنظرين، وكان ملوك النصارى أنفسهم يتشككون فيه ويرتابون فى أمره، ومن شواهد ذلك ما قاله صاحب جزائر الانكليزية: (أنت يا جوان سياسى لا مسلم ولا نصرانى)، ورغم أنه أبدع فى المكائد ضد المسلمين إلا أنه عندما يقبض عليه من قبل السلطان يكتفى السلطان بضربه لأن قتله مؤجل لزمان ومكان محددين، ونبوءة "أفردت" فى كتاب الزمان، حتى أن جوان نفسه يعلم نهايته على يد شيحة، فعندما يأمر السلطان بقطع رأسه، فيذكره جوان أن الوقت لم يحن لذلك، وما لبث أن أعطى صكوك الغفران لكل من ثقلت موازينه، فإذا أطاع جوان يهنئ بعيشه، ولا حبذا أن تكون شروط هذه الصكوك شن الهجوم على بلاد المسلمين، ومحاربتهم، فقط طلب الملك "متون نار" ملك مدينة رودس من جوان أن يدله على عمل يكفر به خطاياه من أكل لحوم البشر، فأرشده إلى أن يركب إلى بلاد المسلمين ويأسر سلطانهم.

ومن قدراته على التحايل أنه أقنع النصارى إذا مات ينقطع الخير ويعم الشر ويحل الجدب لذلك هم نفر من النصارى بالقبض على شيحة مدافعا عنه، ولما حان قدر جوان، كما جاء بكتاب الزمان نفذ شيحة ما سطر فيه، وأحضر عربة كلاب وقطعه عليها، فهبت ملوك النصارى تثأر له.

ولم تنته الحيل بموت جوان إذ تمتد عبر دائرة السيرة فى ابنه اسفوط الذى يكيل الكيد والحيل بمقتل أبيه فيتصدى له زرقش ابن شيحة ويتوعد بتقطيعه مثل أبيه فجاب اسفوط بلاد النصارى يؤلبهم ضد المسلمين متحركا بهذا الفعل المركزى داخل بنية السيرة.

إلا أن البرتقش البطل المصاحب لجوان يخبر أسفوطاً أن كتاب اليونان يدل على أن شيحة يقطع جوان وابن شيحة يقطع ابن جوان لكن أسفوطاً أنكر

ذلك، وما زال في كيده وتدبيره، حتى أعد "زرقش الطيار" نفس العربة ليقطع عليها أسفوط حتى إذا قبض عليه، لم يفلته وقطعه فى موكب عظيم كنهاية للشر واستئصاله. وبهذا الفعل تتنامى شخصية زرقش الطيار إذا يتولى سلطنة القلاع خلفا لأبيه بأمر من شيحة للعيارين، إلا أن مبدأ العيارين لم يسمح بذلك، فكانت لشيحة شروط على زرقش الطيار وهى التفوق على العيارين، الفداوية، وبهذا المبدأ تبدأ السيرة من جديد في شخصية زرقش الذي يبذل قصار جهده في الوصول إلى سلطة القلاع، كما ولى السلطان بيبرس ابنه السعيد حكم مصر، فكلتا الخلافتين متناقضة في الانصياع للأمر، فلا خلاف على تولية السعيد فهو ابن السلطان الرسمي للبلاد، أما ابن شيحة "سلطان قلاع العيارين والعياق" فيجد الفعل صعوبة في التنفيذ، إذ يعدِ العيارون أنفسهم دولة داخل دولة لها شروط وسياجها الأسطوري، فيتولد الحديث بتقطيع أسفوط فيحضر السلطان بيبرس (ابنه السعيد وقال أنا بقيت رجل كبير اجلس على الكرسي أنت خليفتي، فجلس السعيد وبايعوه الوزراء والنواب والولاة، ولما علم المقدم شيحة بذلك جمع الرجال وقال لهم: أنا بقيت رجل كبير ومرادي أن أجعل ولدي زرقش هذا يكون عليكم سلطان وقام وأجلسه وأمر الرجال أن يطيعوه، فطاعوه جميعاً إلا المقدم "صوان ابن الافعال" وطلب قلعته وتمرد عليه)[٣١٢]، وحاول زرقش إجبار المقدم صوان على الطاعة مكررا ما فعله أبوه من قبل.

البرتقشى:

البرتقشى هو البطل المصاحب للعدو جوان فقد مهدت السيرة له منذ البداية على أنه البطل المساعد لجوان، والمذكر له دائما بنهايته على يد شيحة ولم يرض عن كثير من أفعال جوان وكان يساعد الأسرى الذى يسرقهم من المسلمين، وكان يثير الفتن أحيانا فلم يكن بدرجة جوان من الشر لذلك كان إسلامه وشيكا، ودخل فى زمرة المسلمين، فعندما سرق جوان فاطمة ابنة أبى

[٣١٢] السيرة: م٥ ــ جـ٣٨ ــ ص ٣٠٧١.

بكر البطرانى الذى كان يحمى المسلمين عن طريق البحر بغليونه استجارت الفتاة بالبرتقشى فأجارها من جوان ومن صنيعه معها.

ولم تجعله السيرة يخرج عن نسقه الوظيفى فى علاقته بجوان، فكان مساعدا له أينما ولى وجهه شطر الشر، فكان حاقداً على ملوك النصارى الذين لم يهتموا بمحاربة المسلمين، ولم يواجهوا ما يواجهه من ويلات الحروب من المسلمين، وعذاب الترحال هربا من شيحة واتباعه، فإذا دخل مدينة أثار فيها الفتن وألب جوان على خرابها، وتصدى ملكها لمحاربة المسلمين، مثل مدينة عمورية التى لم يعجب البرتقشى بهدوئها فقال لجوان (يا أبانا أعلم أن هذه المدينة عمرها ما خربت، ولا دار فيها السيف، فقال جوان وعمرى ما رأيت الملك عمرين ولا نظرته، فقال البرتقشى وعمره ما ضربت رقبته، ومتى ما حل ركابك فى مدينة ضربت رقبته، وسلبت نومته وخربت مدينته، فقال جوان لأى شئ، فقال البرتقشى الملوك يرتاحون، فقال جوان إلى لعنة المسيح، وجعل البرتقشى ينادى فى المدينة يا أبناء النصارى حكم أمر عالم الملة جوان لا تأكلوا إلا من لحم الخنزير، ولا تشربوا غلا بشراب الخمر السقار، وأباح لكم زواج الأم، والأخت، والبنت، والعمة والخالة والجدة، إلا بنت العم وبنت الخال وبنت العمة زواجهم حرام وسمح لكم جوان فى ملة الكرستيان (المسلمين) حتى بقى يرمح فيها البغل والحصان)[٣١٣].

ورغم ما كان يثيره البرتقش من فتن إلا أنه ضاق ذرعا بما صنع وهو يعلم نهايته بالإسلام من خلال كتاب الزمان، لذا أسرع بالإسلام، وأرشد شيحة عن مكان جوان .

إبراهيم بن حسن الحوارنى:

إبراهيم الحوراني فداوى لعب دور البطل المساعد للظاهر بيبرس فكان يمثل دور المراسل، والمنجد السريع إلا أنه كان (يأخذ حق الطريق).

---

[٣١٣] السيرة: م٤ – جـ٣١ – ص ٢٠٩٢.

ويعد الشخصية المعمرة التى تمتد بعد موت الظاهر بيبرس حتى أن السيرة تنتهى على يديه فيستقدم محمد الناصر ليتنصب على حكم مصر، وقد استطاع إبراهيم أن يتسلطن علي بنى إسماعيل، ويكون إسلام بعض ملوك النصارى على يديه، وكان مشهوراً بسيفه (ذى الحيات) الذى استطاع به أن يقتل قلاوون، وكانت بدايته داخل نطاق السيرة كأى فداوى لم يرض بسلطان القلاع إلا بعد محاربته، لذلك كان معترضا على شيحة وسرعان ما دخل فى طاعته إلا أنه استطاع أن يقترب من بلاط الملك وأن يكون عونا للسلطان نفسه.

وتعج السيرة بمأثرة الأسطورية وسيفه البتار فكان ينازل الأبطال الذين لا يشق لهم غبار، وبعد موت شيحة وابنه، تسلطن إبراهيم على بنى إسماعيل حتى أنه مازال بقوته وشجاعته رغم تقدمه فى العمر، فمازال عبر خمسة أجزاء من السيرة يتردد وهو سيفه ذو الحيات فى المواقف الحربية بين ملوك النصارى، والفداوية المتمردين مثل "يعقوب الصينى" الذى تمرد عليه فتغلب إبراهيم عليه، وقد دعا يعقوب عليه بالعمى فاستجيبت دعوته فلم يجد إبراهيم بداً إلا أن يرحل إلى الشام فاختار أن يقيم بمسجد الظاهر بيبرس.

ولم ينته دوره بهذا بل ولم يقف العمى حائلا بينه وبين مساندة دولة الإسلام، فعندما قتل قلاوون أولاد السلطان بيبرس، هب إليه خليل بن قلاوون يستنجد به ويطلب منه أن يدعمه بالتغلب على أبيه قلاوون ويأخذ حكم مصر منه مقرا بأنه لا يظلم في حكمه أحدا، واصطحب خليل بن قلاوون إبراهيم الحورانى إلى مصر فعندما وصل رفع سيفه ذو الحيات معلنا توليته خليل بن قلاوون على مصر، إلا قلاوون نفسه هب لقتل إبراهيم فشعر إبراهيم بذلك، فرفع سيفه فجاءته الضرب على وجهه فارتد بصيرا. وآل الحكم لخليل بعد وفاته المنية، فاستدعى إبراهيم محمد الناصر بن قلاوون من الكرك ليتولى حكم مصر ثم شعر إبراهيم بدنو أجله فرحل إلى مقره الأخيرة حيث نشأته الأولى فى قلعة جوان، وظل بها حتى توفى ودفن بها.

وتتشابه نهاية السيرة بهذا الشكل مع قدوم محمد الناصر ليتولى حكم مصر ببدايتها، واستدعاء إبراهيم العلقمى هلاوون ليأخذ حكم مصر انتقاما من الخليفة المتقدى.

الفصل الخامس

البنيـة الأسطوريـة

- الوحدات الكبرى والصغرى
- النسق الوظيفى
- بنية الحلم كنسق وظيفى وسيميائى
- البنية الكبرى والصغرى

إذا تتبعنا بنية السيرة، وبنية العناصر الأسطورية فنستطيع أن نقسمها إلى ثلاث مستويات: وهى الوحدات الكبرى، والوحدات الصغرى، والوحدات ذات الشكل البيانى. كما نهتم ببنية الحكايات بعامة، وكذلك حركة العناصر الأسطورية الفاعلة داخل بنية السيرة حتى يتسنى لنا الربط بين الشكل والمضمون والكشف عن فنية الراوى، وروايته للسيرة، وأسلوبه، ولغة السيرة حيث امتزاجها بين الفصحى، والعامية، وكذلك اللغة الرمزية، ومدلولاتها بين الشخصيات، وإطارها من خلال الحيل، والمكائد التى تتطلب طبيعتها لغة رمزية تحتوى على ثقافة لدى طائفة اتفقت على فهم محتواها من ألفاظ، والتى تعرف بلغة "السيم".

ولما كانت السيرة تضم عناصر أسطورية متمثلة فى الشخصيات التى خلقها الراوى، والتى شاركت البطل فى السيرة مشاركة لا تقل شأنا عن دور البطل الأساسى مثل شخصية (شيحة) الذى تعدت شخصيته شخصية البطل المساعد فى نسقها الوظيفى، فلم يعد يتلقى كثيرا من الأفعال الموجه من الفاعل المركزى الأول (الظاهر بيبرس)، بل يتصرف كما لو أنه الفاعل المركزى الأول تجاه قضية قومية والمتمثلة فى مكائد جوان، ولذلك اهتم الراوى بكتابة اسمه على أجزاء السيرة مصاحبا لظاهر بيبرس، ومن ثم كان على الباحث أن يتوقف عند شخصية شيحة بل على كل شخصية محورية داخل نطاق السيرة، وأن يضع منهجا خاصا لدراسة سيرة الظاهر بيبرس، وأن يسقط من دراسة البنية عنصر ميلاد البطل، ذلك لأن السيرة لم تفرد ميلاداً له فهو دون غيره من أبطال السيرة الشعبية الذى تلقى النبوءة بنفسه، ومن ثم لا يمكن أن نخضع السيرة لمنهج خارجى لا تتحمله السيرة فيميل بنا إلى إهمال جوانب كثيرة منها باعدين عن الموضوعية فى التحليل.

فلا نستطيع أن نطبق منهج بروب، ولا منهج لورد رجلان فى تحديدهما لأنماط البطل، وبنيته (فهناك عناصر لا يقبلها المعتقد العام للإنسان العربى كأن يكون من أم عذراء، وأن يعد ابنا للإله فهذا يخرج عن دائرة العقيدة إلى الكفر، كما أنه فى البناء العام كثيرا مالا تذكره وفاة البطل، وبالتالى فالعنصر الخاص بوفاته من فوق تل غير محقق، وهناك عنصر أخر يذكره راجلان، وهو أن أبناء البطل لا يخلفونه، وهذا متضاد مع واقع بطل السيرة الشعبية العربية فأبناؤه فى حالة وفاته يحلون محله، وفى حالة عدم وفاته يظهرون كمن يحتلون مكانته، فالبطل فى أدب أمه من الأمم هو نتاج لواقعها الاجتماعى، ومن أهم عناصره السياسية، وواقعها الثقافى، ومن أهم عناصره الدين، فالبطل هو نتاج لهذه الخلطة الممتزجة تماما. وليس البطل الشعبى فى السيرة الشعبية العربية بدعاً بين أبطال السيرة، فهو تعبير عن الجماعة التى أبدعتها، ولما كانت ظروف الأمم تختلف من أمة لأخرى، فإن الخلاف بين أبطال السير فى الأمم المختلفة يرد إلى هذه الظروف الاجتماعية، والثقافية، كما أن التشابه بين بنية هؤلاء الأبطال يرد إلى عناصر التشابه فى البنية الاجتماعية والثقافية)[٣١٤].

الوحدات الكبرى والصغرى :

لا يمكن أن ندخل فى تحليل بنية السيرة الكبرى دون أن نشير إلى موضوع السيرة ذاتها كاشفين عن تدرجها إلى موضوعها الأصلى، وكيف وصلت إلى البطل الأساسى للسيرة.

فهذه السيرة محكمة البناء فبدايتها تشبه نهايتها، فدخول المغول فى البداية، واستقدامهم من أحد أفراد البيت الفاطمى (إبراهيم العلقمى) هو نفسه استقدام محمد الناصر من الكرك فى النهاية على يد إبراهيم حسن الحورانى ليتولى حكم مصر، والشام.

ومن ثم تتجلى فنية الراوى فى سرد الأحداث، وحبكتها إلى أن آلت إلى الظاهر بيبرس عبر حلم للصالح أيوب نجم الدين أيوب، حيث أظهر الراوى فى

---

[٣١٤] أحمد شمس الدين الحجاجى: مولد البطل فى السيرة الشعبية – ص ٨٧ – ٨٨.

السيرة عرضا للمجتمع الإسلامى فى العصر الذى كتبت فيه (من ذلك نرى أن السيرة تتفق مع التاريخ الاجتماعى فى لملامح العامة، فقد كانت المملكة معبأة كلها للحرب وكانت القوة الحربية تقوم على جيوش الرقيق، والمرتزقة، والنظام الاقطاعى، فزادت شوكة المماليك الذين استكثروا الملوك منهم تبعا لضرورات الحرب حتى اصبحوا يتلمعون بالحكم فى ضعاف الأمراء، وقعقعة السلاح على صوته، وظهر عليه("الجندى غير العربى" وأصبح أقرب إلى المتفرج المشغول بما شاهده من الرجل المعنى بنفسه المفيد من تعاونه مع غيره)[٣١٥]، لكن السيرة قد أفصحت مجالا لفئات من المجتمع تلاحموا، وتضامنوا معاً ليشكلوا أنظمة، وأنساقاً وظيفية متمثلة فى فئة العيارين، والعياق، والشطار الذين كانوا يمثلون طبقة لا بأس بها من الشعب العربى لا يمكن تغافلها فجعلت السيرة أماكنهم مكانا ذات سمة واحدة غلبت فى معظم البلدان، وهو الصحراء، وقد إلتحموا مع أفراد الطبقة الحاكمة فشكلوا بما يسمى (وعى ضمنى ما بين أفراد الطبقة أو المجموعة فتجعلهم يشعرون، ويفكرون ويسلكون بطريقة معينة فى لحظة تاريخية محددة ليس فى مطلق الزمان، وتبعا لعلاقات اجتماعية محددة لا تفهم إلا من خلال أدائها لوظيفة)[٣١٦].

النسق الوظيفى:

فلا شك أن فنية الراوى فى بناء السيرة كان يستند على بناء المجتمع، وأساليبه، وعلاقة الفرد بالجماعة المتخيل فى نظره المنشود داخل المجتمع الذى يصنعه بفكره، وبذلك لا يمكن الفصل بين الراوى، وأدائه وبين بنائه للسيرة، فقد ظهر من خلال إحكامه لفنيات السرد الذى اتبعه هيكل بنائى وظيفى محدد لعلاقة الفرد بالمجتمع، وعلاقة المجتمع بالفرد، وعلاقة الاثنين معاً تجاه الوطن، مما جعل السيرة تتشكل فى البنية الكبرى، والبنية الصغرى البنية ذات الشكل البيانى .

---

[٣١٥] عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس – ص ٢٣.

[٣١٦] جابر عصفور: نظريات معاصرة – ص ١١٢.

فإذا كانت كل بنية تتحد فيما بينها لينصهر الجزء فى الكل، والكل فى الجزء، فإن تركيب مجتمع السيرة يظهر بنفس الشكل ليمثل أنساقاً وظيفية محددة للبناء الاجتماعى الوظيفى، وقد ذهب نالكوت بارسونز بتعريفه للبناء الاجتماعى الوظيفى إلى (أنه مجموعة من العلاقات الثابتة نسبيا بين الأفراد ويقصد بذلك أن الوظيفة الاجتماعية هو ذلك الدور الذى يسهم به الجزء فى الكل)[٣١٧]، ولابد لها من علاقات اجتماعية، ووجود أنواع أخرى من النشاطات الجزئية الهادفة فى الحفاظ على الكل أى بناء المجتمع الذى توجد فيه من خلاله، (فالوظيفة هى فهم مجتمع وتحليله من خلال مقارنته وتشبيهه بالكائن العضوى، أو الجسم الحى، وقد جاءت النشأة التاريخية للوظيفية محاكاة لعلم الحياة الذى جاء منتصف القرن الماضى، وتلقف هذه الفكرة العديد من رواد علم الاجتماع مثل (وليم روبرتسون، وسميث، وسبنسر) حيث تم تطبيقها على المجتمع الإنساني تطبيقاً شبه كامل، واستخدمها الأمريكى (وليم جرهام سمنر) على دراسته الثقافية، وكذلك (سبنسر) الذى طبقها من خلال نظريته فى الطرائف الشعبية التى اعتبرها أنماط اجتماعية.

أما العالم ماليتوفسكى قد اقترح أن النظرية الوظيفية الأساسية للثقافة تتمثل فى الوفاء بالحاجات الأساسية لحامليها، وتعد أول صناعة منسقة حول منطق الاتجاه البنائى الوظيفى فى علم الاجتماع هى تلك التى قدمها (ايميل دوركايم) من خلال كتابين الأول (قواعد المنهج)، والثانى تقسيم العمل الاجتماعى، فالكتاب الأول خصص فيه دراسة وظيفة تقسيم العمل، أما الكتاب الثانى فقد حدد فيه شروط تقسيم العمل، وهى زيادة التباين الفردى الناجم عن عدم تكافل الشعور الجمعى المشترك، ومع الحرب العالمية الأولى أصبحت الوظيفية على المسرح الأمريكى، وقد تأثرت الوظيفية خلال عشرينات، وثلاثينات القرن الراهن بمجهود اثنين من الأنثروبولوجين البريطانيين هما (راد كليف براون)، و(برونسلاف مالينوفسكى) فالأول اهتم بالبناء الكلى وتضافر المحافظة عليه المصاحبات الوظيفية لبعض العناصر الخاصة

---

[٣١٧] محمد عارف: فالكوت بارسونز: المجتمع بنظره وظيفية – ص ٨٥.

المحددة، أو بعبارة أخرى المكونات الفردية لها، أما الثانى فقد تجاهل الفرد من التحليل الوظيفى للجوانب الثقافية، والاقتصادية، والتعليمية، والعلمية، والتشريعية... إلخ، وذلك لارتباطها بالحاجات البيولوجية للأفراد[٣١٨].

وأياً كان الاهتمام بالفرد، والجماعة فالكل مجتمع لصنع مصلحة عامة واحدة تعود عليهما معا فلا يمكن تجاهل الفرد المكون للجماعة، ولا تجاهل الجماعة المحتوية للفرد فالكل يمثل انساقا وظيفية لا يمكن إنكارها، لذا ينعكس هذه الرؤى على دراسة بطل السيرة الذى لا يمكن دراسته بمعزل عن مجتمعه الذى تأثر به، ورفعه إلى مرتبة البطولة التى استطاع البطل بها أن ينوب عن مجتمعه، وأن يبطل الحيل والمكائد، ويقوم بأدوار وظيفية تفوق دور الفرد العادى، (وأصبح البطل تعبيرا عن الجماعة، أو عن وظيفة اجتماعية)[٣١٩].

فالظاهر بيبرس لم يكن بطلا فى بداية السيرة إلا من خلال الجماعة، والجماعة الشعبية المكونة له التى لعبت دورا هاما فى ترسيخ عدة أنساق عامة تتسم بها السير الشعبية بعامة، ولم يظهر هذا إلا من خلال النصوص السردية التى فى حد ذاتها تمثل انساقا أيضا من خلال اللغة التى اتسمت بها.

فالوحدات الكبرى والصغرى، والوحدات ذات الشكل البيانى، ومن رموزها التى أضحت لغة عامة يمكن التعرف عليها لذلك استطاعت اللغة أن تطوق النصوص السردية بنسق خاص بها ظهر من خلال الشكل الذى يؤول بدوره إلى المضمون، وكان نظاما عامة لكل سيرة.

فدراسة النصوص السردية تنصهر فيها عناصر لغوية كلية، وجزئية لتعطى شكلا نهائيا للعمل الأدبى، فيرتبط لديها مفهوم الشكل بمفهوم النظام، وبذلك يمكننا أن نتعرف على اللغة التى تميزها (فاللغة فى رأى سوسير نظام من العلاقات وليست مكانا من العناصر اللغوية فهوية أى عنصر من هذه العناصر ترتبط بما له من علاقات مع غيره من العناصر)[٣٢٠] أى تكون

---

[٣١٨] محمد عارف: المرجع السابق – ص ١٥٠.

[٣١٩] شكرى عياد: البطل فى الأدب والأساطير – ص٨.

[٣٢٠] توفيق قريرة: التعامل بين بنية الخطاب وبنية النص فى النص الأدبى – ط الكويت ٢٤٠ مج ٣٢ اكتوبر – ص ٨٢ – سنة ٢٠٠٣.

حكاية، أو قصة، أو أى نوع أدبى يظهر تلك العناصر بجلاء فيه (فالحكاية تدل على المنطوق السردى أى الخطاب الشفهوى، أو المكتوب الذى يضطلع برواية حدث، أو سلسلة من الأحداث الحقيقية، أو التخيلية، ومختلف علاقاتها من تسلسل، وتعارض، وتكرار ... إلخ)[٣٢١]، كما أنها لابد أن تحتوى على السرد، والشعر (ولا يمكن أن تستحق اسمها إذا لم تكن خليطا من المحكى والنشيد ومن أشكال أخرى)[٣٢٢].

ففى هذه السيرة استطاع الراوى أن يأتى بخليط من الشعر بألوانه المختلفة، وأغراضه المتعددة وكذلك النثر مما أعطاه فرصة للحكى بصورة أوسع حاكياً مرة، وسارداً مرة أخرى، فيبدأ حديثه فى السيرة (بالحمد والثناء للملك الحق المبين المحسن البر الأمين ذاكر أن السيرة عبرة للغافلين) ما لبث أن صرح باسم الراوى (الدينارى)، ولكننا نجد فصول السيرة يتعدد ذكر الراوى المدون فمرة باسم (قالت رواة السيرة)، "وقال المؤلف"، "وقال الناقل"، "وقال الراوى" إلى غير ذلك، وقد تكون السيرة كتبت بواسطة رواة مما نلاحظه من اختلاف اللهجات فى نصوص السيرة فقد يصحبها لغة شامية (عراقية أو سورية)، وأحيانا باللهجة المصرية، كما دخل ألفاظها ألفاظًا عثمانية، وألفاظ حرفية مثل حرفة (السايس)، والبائعين إلى غير ذلك، غير أن الطريقة السردية تكاد تكون واحدة من ناحية البنية الحكائية، فالحكى هو السمة الغالبة على السيرة، حتى يجد الراوى منها منفذا للدخول فى حكايات أخرى متفرعة، وبنية أخرى، أو بما نسميه (تنامى الحكى)، وهذا ما نجده فى أول حكاية فى متن السيرة، وبها استطاع الراوى أن يذهب إلى حكاية الظاهر بيبرس دون عناء، فثمة ربط بين الحكايات بعضها ببعض، فقد بدأ الراوى حديثه عن حكاية تكاد تكون ساذجة بسيطة ما لبثت فى الحكى إلى أن استفحلت وعظم أمرها وآلت إلى دخول العنصر الأجنبى المرفوض فى السلطة العربية، كما يحاول الراوى أن يؤطر لذلك بأحداث تاريخية معروفة لكنه لم يصمد كثيرا فهو لم يكن مؤرخا بل راويا فيحكى ما يجب أن يكون، وليس ما كان.

---

[٣٢١] جيرا جييت: خطاب الحكاية – ص ٣٧.
[٣٢٢] باختين: الخطاب الروائى. ص ٢٨.

ففى قديم الزمان بعد أن توفى المعتصم بالله، وجاء ابنه الواثق بالله، وولده، ومات المقتدى بالله، وهو شعبان المقتدى، وكان له وزير يقال له العلقمى وكان له ابن يهوى تربية الحمام، تشاجر مع ابن المقتدى على قسمة حمام، فأراد المقتدى أن يحسم القضية بذبح الحمام، ومن هذا الموقف يضيع السلام بينه، وبين وزيره العلقمى الذى حزن لغضب ابنه، مما جعل العلقمى أن يثأر لابنه بصورة أكبر في شكل تآمر ضد الخلافة جميعها، فيراسل الملك "منكتم" ملك المغول، ويتآمر، ويهيئ لقدومه، واستيلائه على بلاد المسلمين، لذا أعد منكتم جيشاً بقيادة (هلاوون) الذى استطاع أن يقبض على المقتدى، ويجلس على (كرسى بغداد) .

ومنذ هذا الحدث تظهر بنية الراوى كإطار عام داخل النصوص، (وهو المؤامرة، والخديعة – الحيل) تكون الاستعانة بالقوى الروحية والمتمثلة فى الدعوة، أو ظهور الأولياء كالخضر عليه السلام، وعبد الله المغاورى، والقصاص كأبطال مساعدين، أو ظهور بطل مخلص .

ومن ثم يظهر للمقتدى بطلا مخلصا متمثلا فى (صلاح الدين الأيوبى) الذى يظهر بثياب دينية صوفية، و(قد أتى مع خمسة وسبعين فارساً يحملون سيوفاً من خشب، وهم يذكرون الله، ويسبحون بحمده، وما أن رآهم هلاوون حتى ظن أنهم فقراء المسلمين أرادوا أن يباركوا له قدومه، وعند لقائه بهم هموا عليه بالسيوف حتى لاذ بالفرار من بغداد)[٣٢٣] .

ويؤطر الراوى لصلاح الدين فيقول أن السبب فى مجئ صلاح الدين، وقومه أن السيول أغرقت بلادهم فهب الجنود إلى كبيرهم صلاح الدين يستنجدون به، وحتى أوصاهم بالرحيل إلى بغداد، وهناك علم بما حدث للملك المقتدى، كما يظهر صلاح الدين فى نهاية السيرة كما ظهر أولها، ولكن بمرور الحقبة التاريخية يظهر كعلم متجسد فى صورة مسجد يحمل اسمه يستمد منه الأبطال قوتهم، أو يبدأون منه مرحلة جديدة مثل المظاهرات التى قام بها الضباط من أمام مسجده ضد السلطة إبان العصر الحديث .

---

[٣٢٣] السيرة: م١ – ط – ص ٤٨.

وقد استطاع الراوى أن يعقد عرى بنية السيرة، فيكون أولها هو أخرى من ناحية الحدث ففى استقدام هلاوون فهو نفسه استقدام محمد الناصر من الكرك، وكأن الراوى يعطى فرصة لإنشاء، وسيرة جديدة يستطيع أى راو أن يصاهر تلك السيرة فى حدث من الأحداث كأسلوب عام فى السيرة الشعبية العربية.

وما لبث الراوى أيضاً أن يلقى بالضوء على (شجرة الدّر) كحدث مشهور وهام ولكنه أضفى عليها سمة السيرة الغالبة، وهو مسحة التصوف والولاية لكل بطل مسلم فهى فاطمة ابنة شعبان المقتدى، والتي اصطبغت بصيغة الولاية كأولى مرحلة للتصديق بهم، ومن ثم كانت أفعالها بعد ذلك تأتى من خلال نبوءة، أو رؤية حلم فتلبى ما رأته، ومن هذا زواجها من الصالح أيوب، فبعد موت أبيها المقتدى تعد الوريثة الشرعية على البلاد، ولكن هيهات أن تحكم البلاد، وقد جلس بنو أيوب الأكراد على الحكم، فبعد صلاح الدين جاء ابنه العادل، ثم الكامل الذى تزوج من ابنه عمة التى ولدت له (الصالح نجم الدين أيوب)، وهنا يكون الصراع حول الوريثة والحاكم بالوراثة للصالح أيوب فعندما رحلت شجرة الدر إلى مصر، وجدت الصالح أيوب حاكما عليها غضبت لذلك وطالبته بأن يغادر مصر لتحكم هى بنفسها باعتبارها وريثة للحكم وخاصة على مصر فقد كتب المقتدى لها حجة بذلك فأخرجت الحجة لتريه إياها.

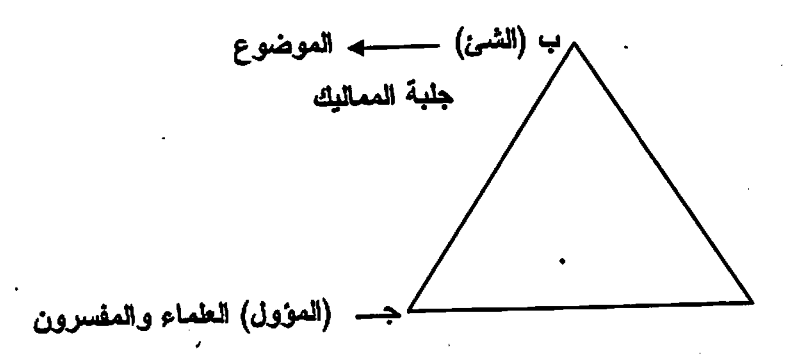
(بنية الحلم) كنسق وظيفى وسيميائى

سمعت شجرة الدر عن قوة الصالح أيوب الصوفية، وولايته، ومدى استجابة دعوته فقد كان مستجاب الدعوة، وولى الله المجذوب، حتى استطاع الراوى أن يرسى دعامة بنية جديدة فى السيرة، وهى الرؤية (الحلم) كنبوءة فعندما ترى شجرة الدر حلما مفاده أن تتزوج من الصالح أيوب دون قيد، أو

شرط (وقد رأت الصالح أيوب يمسك بحربة، ويأمرها بأن تتزوجه، وإلا قتلها بهذه الحربة)(٣٢٤)، لذا وافقت على الفور.

"بتنامى بنية الحلم" يكون باباً لدخول (بيبرس إلى عالم السيرة)، فيرى الصالح أيوب أن خمسة وسبعين سبعاً قد انقضوا عليه فما فرقهم إلا سبع أشقر بين حاجبيه شعرة أسد، وإذا غضب يظهر على جبينه سبع جدريات، قد فسر العلماء ذلك باستخدام خمسة وسبعين مملوكاً، وبينهم مملوك يحمل تلك العلامات.

ومن ثم تبدأ رحلة البحث عن المملوك، واستطاع الراوى بذلك أن يجد حقلاً خصباً لعرض وحداته الكبرى للبطل المريض، المعدم، المرفوض، الذى يعالج، وتبدأ شخصيته فى الظهور كبطل يعتمد عليه، ويرى نبوءته بنفسه فعلى طول محفزات السرد، نلاحظ الخط الزمنى المستقيم للمتخيل السردى قد تحول من التركيز على شخصية الصالح أيوب إلى التركيز على شخصية بيبرس، وهذا التحول لم يتحقق بدون (تعاون سيميائى بين العلامة (Sign)، والشئ (Object) الذى يشير إليه العلامة، والمؤول Interpreter لهذه العلامة)(٣٢٥)، وهذه العلاقة الثلاثية بين العلامة، وحاملها، ومؤولها تتيح دراسة مجموعة من الوظائف المختلفة للعلامات، وتأثيرها فى مسار المتخيل السردى (فالعلاقة التعاونية بين الأطراف الثلاثة يمكن تجسيدها فى هذا المثلث.

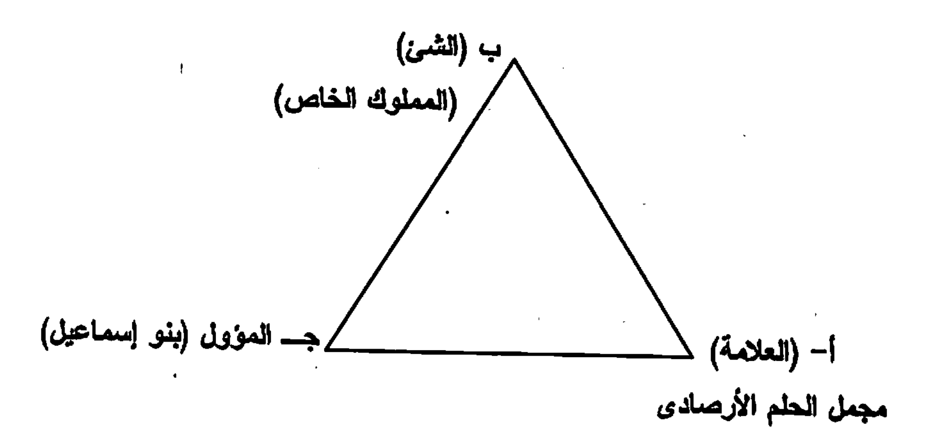


---

(٣٢٤) السيرة: م١ – جـ١ – ص ٧٠.

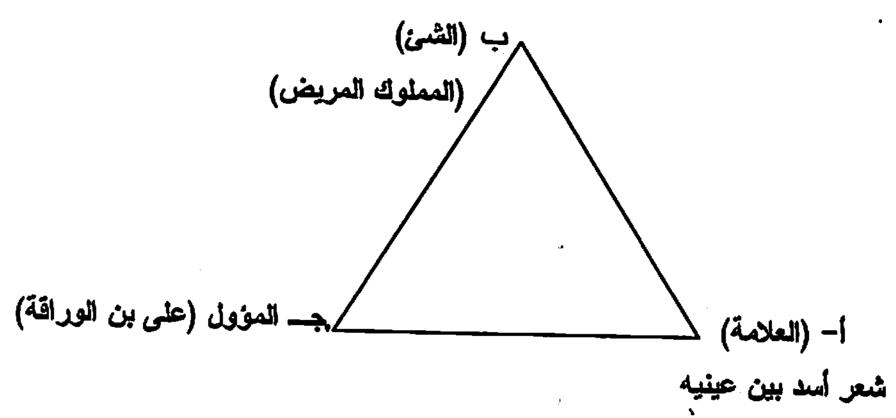
(٣٢٥) محمد منصور أبا حسين: مقارنة سيميائية لمحفزات السرد والنص الباطن فى سيرة الظاهر بيبرس – مج فصول ع ٦٠ – ص ٢٩٨ – سنة ٢٠٠٢.

والعلاقة الثانية فى شعرة الأسد التى بين عينيه، وهذا العلامة اشترطها الصالح أيوب على بن الوراقة ليعرف هذا المملوك.



مجمل الحلم الأرصادى

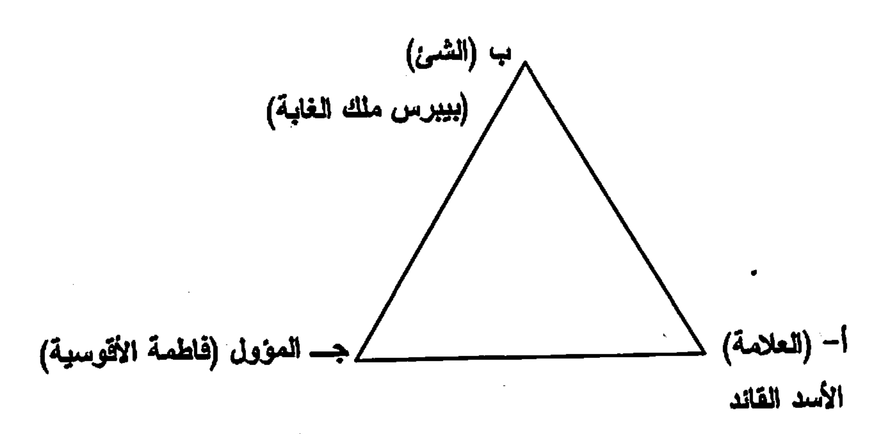
وإذا عاش بيبرس فترة مرضه عند السيدة حسنة الدمشقية التى تبنته، ومنحته لقب بيبرس الذى يعنى فى اللغة التركية (ملك الغابة)، الذى كان لابنها المتوفى وقد تعانق الحلم باللقب.



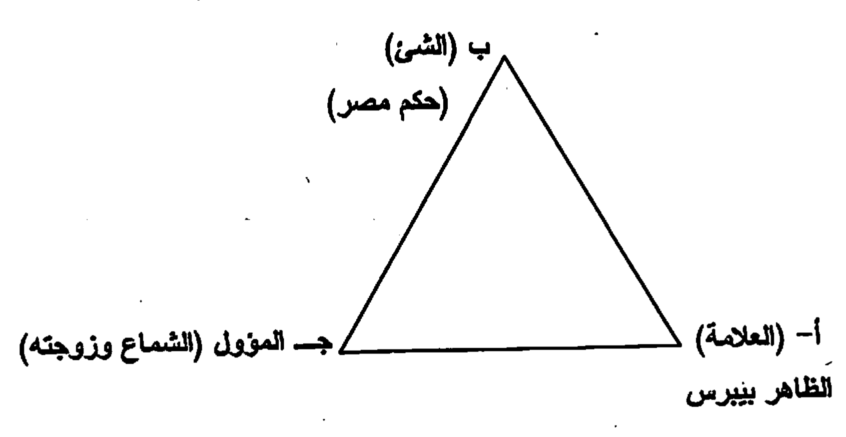
شعر أسد بين عينيه

ويتجلى بنو إسماعيل كمفسرين للمملوك الخاص الذين لفتوا انتباه السلطان إلى أنه المملوك الذى ذهب تاجر الرقيق لإحضاره[٣٢٦] .

(٣٢٦) محمد منصور أبا حسين: المرجع السابق – ص ٣٠٤.



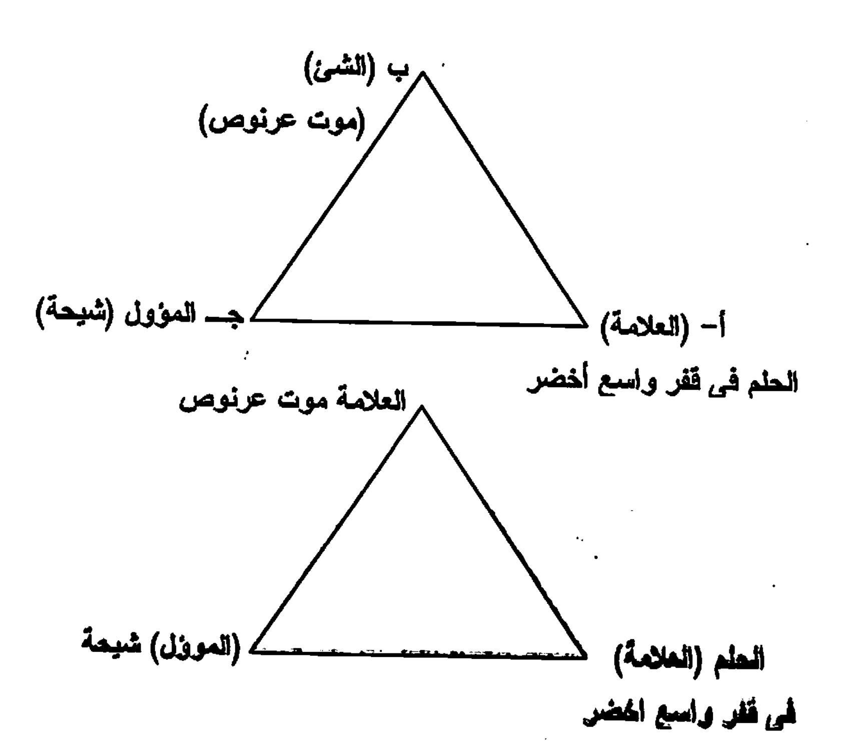
ويظهر للبطل نبوءة من خلال حلم العامة بتوليه حكم مصر فى حلم الشماع، وزوجته اللذين رأيا فى حلمها أن الذى سيتولى حكم مصر رجل يدعى محمود الظاهر، وقد وضحت علاماته لديهم من خلال هذا الحلم فكانا مفسرين.



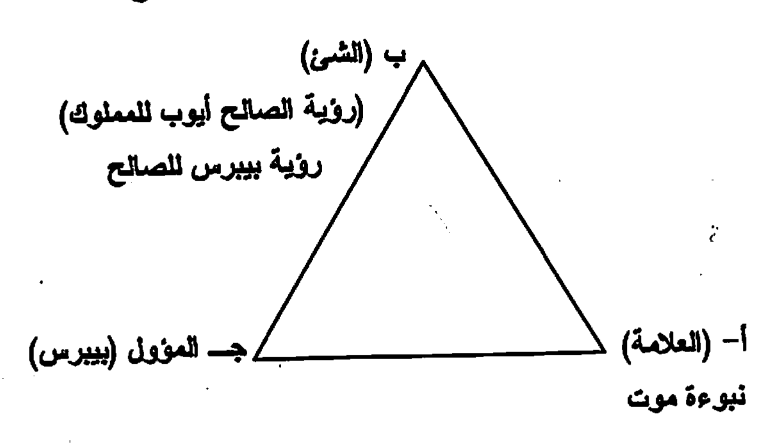
واستطاع الراوى أن يؤلف حلقات السيرة السردية فى خط مستقيم بحركة الحيل، والمكائد التى تعطى مساحات للصراعات والتصدى للعدو بكل شره الداخلى، والخارجى، فالداخلى المتمثل فى (حيل أيبك، والقاضى صلاح الدين)، والخارجى (جوان، وملوك النصارى)، فكان للعدو الداخلى محفزات منها ترقى بيبرس فى مناصب عدة، أما العدو الخارجى فيعلم من خلال كتاب الزمان أنه

سوف يقتل على يد أحد أعوان البطل (شيحة) لذلك يجاهد فى تفادى هذا لذا راح يؤلب (ملوك النصارى) على حد تعبير السيرة على المسلمين، وكان بنو إسماعيل مؤولين لأحداثه حتى نلاحظ أن أعمالهم الحربية تكاد تحجب دور بيبرس فظهورهم كأبطال مساعدين يرجع لشيئين أولهما دعم البطل، وثانيهما أنهم جزء من سيرة عرنوص التى تعد جزءا من سيرة الظاهر بيبرس فتعد سيرة عرنوص بن معروف بن حجر سيرة ثانوية فكلاهما ملك وأبناء ملوك، لذا ينشأ بينهما تكافؤ فى الصراع، والأنفة مما يؤدى إلى تصادق، ومصاحبة تنمو بينهما فيما نسميه (مصاهرة السير)، فالسيرة الجزء تتلاحم مع السيرة الكل للظاهر كنسق وظيفى للسير، ومن ثم يلتحم أبطال عرنوص (الإسماعيلية) مع جيوش الظاهر بيبرس وبأثر التفاعل الانصهار معاً، يحاول الظاهر أن يبطل رؤية نبوءة موت عرنوص، فقد رأى شيحة فى منامه قرب نهاية عرنوص، لذا حاول بيبرس أن يقصى عرنوصاً عن مهام حربية كثيرة لكن قدره يناديه أينما ولى وجه شطرا تجاه الموت .

فيكون الحلم متجسدا فى هذا الشكل:



ولعب الحلم دور الرابط بين الصالح أيوب وبيبرس فى النشأة، والنهاية للظاهر، فإذا رأى الملك الصالح أيوب رؤية استقدم بيبرس فإن بيبرس يرى اقتراب أجله بنفسه من خلال رؤية يراها الصالح أيوب ينبئه بذلك .



كما يظهر جليا فى منظومة السرد، والبنى الحكائية ما نسميه بطرائق الاستبدال كما يلى :

١- بعد معروف ← يخلفه عرنوص ثم شيحة مكانه سلطانا على القلاع

٢- بعد جوان ← ابنه (أسفوط)

٣- بعد البرتقش ← ابنة الأرقش

٤- شيحة ← ابنه زرقش

٥- بعد السلطان ← السعيد

٦- إذا مات السعيد ← تم استقدام محمد الناصر من الكرك

البنية الكبرى والصغرى:

يظهر من خلال البنية الكبرى التى اعتمدت عليها السيرة للبطل مقومات البناء التى وضعها الراوى، وكانت محفزا للحكى حيث تملك كل واحدة منها

قضية لوحدة صغرى، وهذا ما لاحظه الشكلانيون الروس، وخاصة (توما شفسكى) الذى رأى (أن لكل قضية لها حافزها الخاص بها باعتبارها أصغر وحدة معنوية، وتسلسل الحوافز هو الذى يشكل منه المادة الحكائية، وإن الحافز هنا بمثابة البنية الكبرى، وتتغير الحوافز بحسب وضعيتها، وقد قسمها شفسكى إلى متحركة، وثابتة)[٣٢٧]، وهناك من استبدل الحوافز بالوظيفية مثل بروروب الذى (استخدم مصطلح الوظيفية بدلا من الحوافز، وقد أصبغها على الشخصيات المتعددة، ووضع لكل شخصية وظيفة تساهم فى بنية الحكى بعامة)[٣٢٨] .

ومن ثم نستطيع أن نقسم البنية إلى قسمين:

١ـ البنية الكبرى ٢ ـ البنية الصغرى

فالبينة الكبرى:

لم يهتم الباحث ببنية البطل بصفته الفاعل المركزى الأول فحسب بل اهتم ببنية الشخصيات الفاعلة التى تعد مركزية داخل السيرة مثل جوان، فلولا وجود جوان لفقدت السيرة جزء هاماً من بنيتها، وكذلك شيحة وألاعيبه.

ويمكننا أن نستثنى من السيرة ميلاد البطل حيث أن الظاهر بيبرس من (الأبطال الذين لم تذكر السيرة شيئا عن ميلادهم أمثال الزير سالم - الزناتى خليفة)[٣٢٩]، (كما تلقى نبوءته بنفسه)[٣٣٠] .

وقد حدد الباحث البينة الكبرى للبطل فىخمسة مراحل:

١ـ الاغتراب ٢ـ الاغتراب والاستقرار

٤ـ نمو الوعى ٤ـ البطولة والجهاد

(٣٢٧) الشكلانيون الروس – ص ٢٦٩.

(٣٢٨) فلاديمير بروروب، مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ص ٢٨.

(٣٢٩) أحمد شمس الدين الحجاجى: مولد البطل – ص ٨٨.

(٣٣٠) أحمد شمس الدين الحجاجى: النبوءة – ص ٢٠.

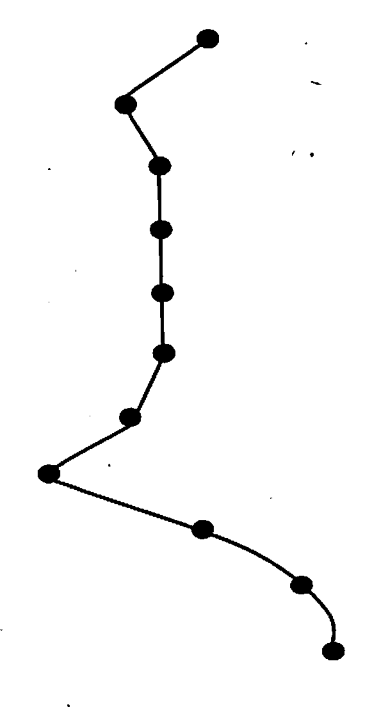
٥- موت البطل

أولا: القسم الأول (الاغتراب) :

١- البطل ابن ملك
٢- يخطف
٣- يعيش مع المماليك
٤- يضطهد ويمرض
٥- امرأة تتخذه ابنا
٦- تسانده القوى الروحية
٧- يحمل نبوءة ملكه
٨- يدعم بسلاح أسطورى
٩- تستجاب دعوته
١٠- تسانده قوى بشرية
١١- رحيله مع بطل مساعد لتنفيذ بطولته.

ونستطيع أن نجمل هذا فى الشكل لنبين خطوط السرد المستقيمة حيث استقراره نسبياً، ورحيله، وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة عبر خط متعرج :

ابن ملك
يخطف
يعيش مع المماليك
يضطهد ويمرض
امرأة تتخذه ابنا
تسانده القوى الروحية
يحمل نبوءة ملكه
يدعم بسلاح اسطورى
تستجاب دعوته
تسانده قوى بشرية
رحيله مع بطل مساعد



١- الظاهر بيبرس هو محمود بن الملك شاه جمك ملك خوارزم.

٢- اختطف مع أبناء الملوك المختطفين فى الشام.

٣- يعيش مع المماليك فى غربة شبه منفردة.

٤- يضطهد من قبل مشتريه، والمماليك معا لمرضه، ولرائحته الكريهة.

٥- يباع مرة أخرى، ويتمنى مسعود بك أن يبعه (ولو بصرة تراب)، فيشتريه على ابن الوراقة (بصرة خفية) أهداها له الصالح أيوب، فتأتى أمنية مسعود بك موافقة لسر خفى اتضح من حلم مسعود بالصالح أيوب يأمزه بأن يبيع المملوك.

٦- امرأة تتخذه ابنا لها، وهى السيدة حسنة الدمشقية، وتلقبه بلقب (أسد الغابة) (بيبرس).

٧- تسانده قوى روحية متمثلة فى الأولياء أحمد البدوى، والرفاعى، والجيلانى، وصاحب الوقت، وعبد الله المغاورى (ضايع الاسم).

٨- يحصل على سلاح أسطورى من مكان أسطورى يدخله، ويتلو حسبه، ونسبه فيدخل مغارة، ويهديه شيخ ينتظره منذ زمن ليعطيه أمانته، وهى عبارة عن (اللت الدمشقى) الذى يقوى ساعده فى النصرة على الأعداء.

٩- يصبح بطلا مستجاب الدعوة من خلال دعائه لنفسه فى ليلة القدر أن يصير ملكا على مصر، والشام.

١٠- يدعم من قوى بشرية عظيمة تحميه أينما ذهب حيث انتشارهم فى كل مكان متمثلة فى (أولاد إسماعيل).

١١- يرحل إلى مصر مع على بن الوراقة، حيث تبدأ مراحل تنفيذ بطولاته وصراعه المنتظر مع أيبك وجوان.

ثانيا: الاغتراب والاستقرار

١- يعامل معاملة الابن من قبل الملك.

٢- يرتقى فى مناصب مختلفة.

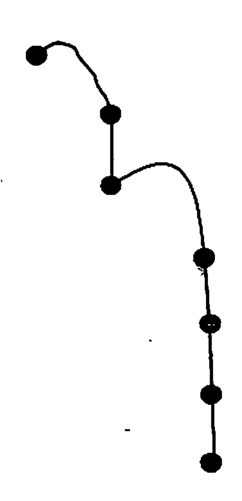
٣- يتغلب على المكائد.

٤- يتعرض لاختبار الملك فى العدل، وعدم الظلم.

٥- ينال لقبا جديدا .

٦- تسانده قوى روحية.

٧- يظهر له أبطال مساعدون.



١- يتخذه الملك الصالح ابنا، ويعامله معاملة حسنة.

٢- يرقى فى مناصب عدة، وخاصة المناصب التى أخفق فيها غريمه أيبك نتيجة كيده، ومحاولة إيقاعه فى مشاكل جمة قد اختلقها جوان، ومن ثم عندما تثبت براءة بيبرس منها يقصى الملك الصالح أيبك عن منصبه، ويوليها لبيبرس، لذا دام الصراع طويلا حول الإقصاء، والتوالى.

٣- يختبر فى عدالته إذ حاول الملك الصالح أيوب حبسه ظلما كى يشعره بمرارة الحبس، والظلم، ويتولد لديه شعور بالمظلومين كى لا يظلم فى حكمه أحدا.

٤- يلقب (بالظاهر)، وذلك عندما هرب من الصالح أيوب إثر فتنة اصطنعها أيبك، فهرع الملك الصالح أيوب مناديا عليه فى مكان خال (أظهر يا ظاهر).

٥- يظهر له أبطال مساعدون من فئات شتى كى يكونوا له حكومة كونية محكمة السيطرة على الأحداث مثل العيارين، والعياق، والشطار أولاد إسماعيل، ومعروف بن حجر، وعرنوص بن معروف، وشيحة.

ثالثا مرحلة نمو الوعى:

١- تزداد أعباء البطل بارتقاء المناصب.

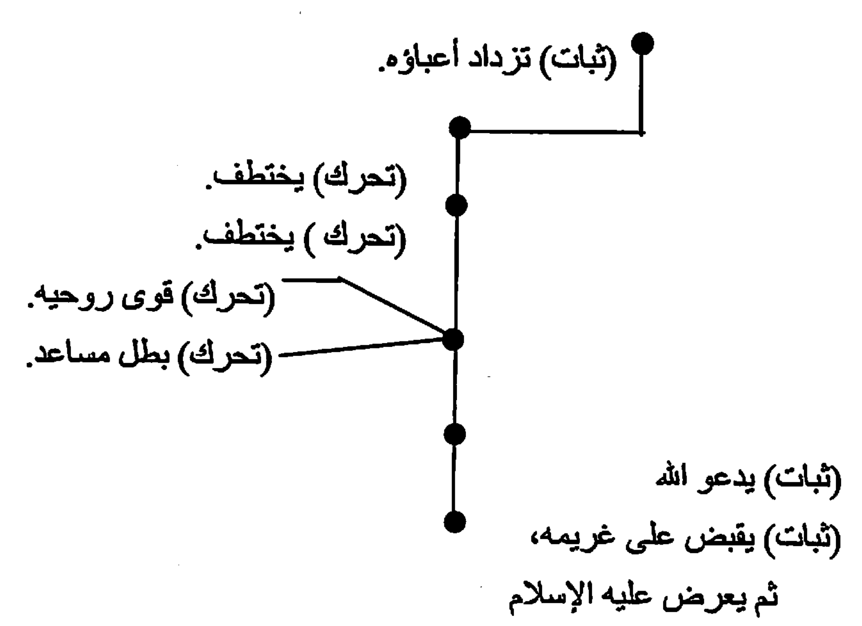
٢- يخطف، ويحبس فى مغارة، أو دير من قبل العدو.

٣- يطلب النجاة.

٤- تسرع قوى روحية لإنقاذه، وتأتيه مساعدة من امرأة تسلم على يديه.

٥- يقبض على عدوه.

٦- يعفو عن العدو، ويعرض عليه الإسلام، أو دفع الجزية.



١- تزداد أعباء البطل بارتقائه للمناصب حيث يكون تناسب مضاد الحيل، ومحاولة إقصائه عن تلك المناصب حيث أحيط البطل بسياج من القوى البشرية، والروحية.

٢- ينجح العدو فى خطف البطل فى مكان خال (في مغارة، أو دير، أو كنسية)، وتأليب ملوك النصارى عليه حيث يبيح العدو دمه فى مقابل إبحاحه الحرام لهؤلاء الملوك، فقد شرع جوان للملوك النصارى زواج الأخت، وأكل لحم البشر فى مقابل القبض على سلطان المسلمين، ومن ثم اختطف السلطان، وحبس فى أماكن شتى من أمثال ذلك الدير الذى يحكم فى سلاسل حديدية مثبتة فى قاع البحر إذا استطاع المحبوس الهرب منه أغلقت تلك السلاسل على عنقه.

٣- لا ينقذه من هذا إلا دعاء إلى الله ليحميه من عذاب أليم، فيدعو نثرا وشعرا.

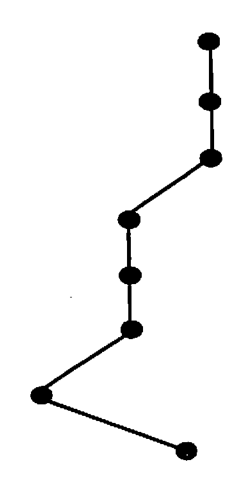
٤- تأتيه المساندة من كل حدب، وصوب فى شكل ولى صوفى عبد الله المغاورى الذى يهب إليه جريدة نخل يركبها جريدة يمخر بها عباب البحر.

٥- يأتى إليه بطل مساعد (شيحة) الذى أهدى من عبد الله المغاورى حلة أسطورية يستطيع بها الطيران.

٦- وربما ينقذ السلطان على يد امرأة عالية الشأن كأن تكون زوجة الملك النصراني أو ابنته لإعجابها بقدرات السلطان المسلم، وما تلبث أن تسلم على يد البطل، وتطلب منه أن يتزوج بها، ولكن البطل لا يرضى بزوجته الأولى بديلا، فيزوج الملكة لأحد أبطاله المساعدين..

٧- يقبض على غريمه، ويعرض عليه الإسلام، فإذا أسلم كان فى زمرة المسلمين، وإذا رفض فرضت عليه الجزية كأهل الذمة، وإذا قتل ملك النصارى فى حروب دارت بينه، وبين استحلف البطل ابن المقتول بلاد النصارى محل أبيه.

رابعا: مرحلة الجهاد



١- يتردد البطل كثيرا على بلد نشأته الأولى الشام.

٢- تزداد حروبه مع الأعداء.

٣- يحاول أن يدبر أموالا ليشيد بها جيشا قويا.

٤- يقع فى المحظور.

٥- يعاقب بدعوة رجل صالح على خطاه.

٦- يستسلم للقدر.

٧- يختطف بحيلة.

٨- يرجع إلى مكانه بحيلة، يولى ابنه مكانه.

١- يتردد البطل كثيرا على الشام محاولا رعاية أمه حسنة الدمشقية من جهة والقضاء على الفتن، والثورات التى تهدد مصر والشام من جهة أخرى حيث تميز بسرعة الذهاب، والعودة فى يوم واحد محملا على عنصر أسطورى كجريدة نخل مهداه من ولى من الأولياء.

٢- يعد لعدوه العدة ما استطاع من قوة، ومن رباط الخيل، ويجمع بنى إسماعيل لمؤازرة فى حروبه.

٣- يحاول أن يدبر الأموال لذلك بشتى الطرق الشرعية وغير الشرعية كجباية لأموال التجار عنوة، فيقع فى الفعل المحظور اجتماعياً، فيتضجر التجار من ذلك شاكين فعله للشيخ النووى.

٤- يحاول الشيخ النووى أن يثنيه عن هذا الخطأ فيصر عليه فيسقط فى شباك دعوة صالح يدعو عليه بالعمى.

٥- يستسلم للقدر فيمكث أعمى ثلاثة سنوات ثم يرتد بصيرا، ثم يسلب منه الحكم سبعة أعوام أخرى حيث يتولى أمر البلاد "إبراهيم الحورانى" ثم يعود البطل سلطانا مرة أخرى.

٦- تتعاظم الحيل والمكائد ضده لإجلائه عن مكانته، وإقصائه عن الحكم مرة أخرى، فيستغل (ملوك النصارى) عياقاً، وعيارين، كأداة لتحايلهم موظفين عناصر أسطورية لخدمة ذلك، مثل إرسالهم عياراً يتخفى فى هيئة ولىّ من الأولياء يحتال على السلطان، ويأمره أن يذهب معه، فيلبى السلطان الدعوة حيث يضع العياق البنج فى وثاق السلطان، ويحمله فى صندوق، ويسير به وسط البحر يخبئه فى دير، أو مغارة، أو كنيسة.

٧- يهب لنجدته بطل مساعد (شيحة)، فيرده بنفس الحيلة مستخدما ذلك البنج (ضد البنج).

٨- يقرر السلطان أن يولى ابنه (السعيد) خلفا له على مصر، والشام أثناء محاربته للأعداء فى البلدان المختلفة.

خامسا:موت البطل:

١- ينبأ باقتراب أجله بحلم ودعوة.

٢- ينفذ بما أمر فى الرؤية.

٣- يولى ابنه حكم مصر بحجة شرعية.

٤- يعود إلى مكان نشأته حيث مثواه الأخير.

١- يرى البطل الظاهر بيبرس حلما للصالح أيوب يأمره فيه بأن يبنى له بيتا فى دار العقيق بالشام، فيفطن بيبرس لذلك، ويدرك أن أجله قد دنى، واقترب كما فطن لدعوة الشيخ النووى عليه عندما قال النووى: أنا أذهب، ولا أعود أما أنت يابيبرس ستذهب، وتعود، وتلك هى العودة الأخيرة إلى الشام.

٢- ينفذ ما أمر به فيبنى مقبرة فى دار العقيق بالشام.

٣- يكتب حجة شرعية موثقة من علماء المسلمين، وأبطاله المساعدين بتوليه ابنه لحكم مصر، والشام حيث أصبح السعيد مدركا لفنون الحرب، وإدارة الدولة.

الفصل السادس

الراوى وفضاء النص

- الراوى
- فضاء النص والحدات السردية
- اللغة والرمز
- الشعر ورسم صورة الحدث
- القصة الشعرية

أ- الراوى وفضاء النص

الوحدات الحكائية السردية فى (النص - الأخبار – السفر والترحال – التوجس والخوف).

فضاء النص :

١- فضاء مقام السلطان
٢- فضاء الحروب
٣- البلاد والعباد
٤- الاستغراب والسخرية
٥- الموقف (التسامح)
٦- الحلم
٧- الفضاء الموعود
٨- اللون والهيئة

ب- اللغة والرمز والشعر والألوان الفلكورية

١-لغة الطير ٢-لغة الحروب ورموزها ٣-لغة الخمر ٤-رمز الشخصيات

جـ- الشعر :

١ــ المدح

٢- الوصف (الأماكن الأسطورية – الشخصيات – الحلم –النبوءة)

٣- الفخر

٤- الغزل (الغزل العفيف – الصريح – أدب الفراش)

٥- الفراق والرثاء

٦- الدعاء

الأغنية الشعبية - الموال النشيد الدينى الصوفى الحكم والأمثال - القصة الشعرية.

لا يمكن تغافل الراوى، وفنونه داخل نصوص السيرة الذى استطاع أن يقرب السيرة إلى المستوى الروائى فى الحبكة الفنية بل أعلاها إلى مستوى أكبر زاخر امتلأ بالغرائب، والعجائب مما جعله يسهب فى أحداثها، ويشوق قارئها فى المضى قدما إلى معرفة الأحداث، فيأخذه إلى ساحات المعارك والكنوز، وأرصادها، والمغارات، وما تحتوى عليه من عناصر أسطورية، والعديد من الفضاءات عارضا بذلك أنساق الجماعة، فزاوج بين الأمنية والتحقيق فى فكرة البطل المخلص الذى له القدرة على تحمل أعباء الجماعة، وتحقيق أمانيها فالبطل نموذج مثالى يعمل على خلاص مجتمعه من مشاكل جمة. فكانت الجماعة أحوج إلى البطل فى ذلك العصر المملوكى كى يخلصها من براثن الظلم ومن ثم تضافرت القوى الروحية المتمثلة فى القوى الغيبية مثل (الأولياء- الدعوة – تسخير الجان – السيوف المرصودة ... إلخ من العناصر الأسطورية) التى كانت عونا دائما للبطل.

وقد قام الراوى بوظيفة تنسيق الوظائف بين البطل والجماعة فجعل الجماعة مشاركة، ومساندة له فكانت عنصرا من عناصر الانتصار الجماعى حيث تتلاحم معاضيد الثورات، والهجمات الخارجية. فأصبح الدفاع مشتركا كبطولة جماعية (فالبطولة فى السيرة جاءت بثمرة التفانى فى الخدمة العامة للتبرير فى الدفاع عن مصالح الجموع، والانتصار فى مواقعه العدو، وكانت طريقة الوصل إليها مستخلصة من أبرز عمل يقوم به الأفراد فى الجماعة، ولم يكن الوقوف فى وجه العدو حظا مقسوما على فريق من المجتمع دون فريق، ولكنه كان فرض عين على جميع الأفراد القادرين بلا استثناء، وعلى الرغم من تنوع الشعوب العربية، والإسلامية فإنها كانت تبدو فى هذه السيرة عالما موحدا تكاد ترتفع بين أجزائه الحواجز، والحدود، ومعنى هذا أن الوجدان الشعبى كان أوسع مدى من الحدود الجغرافية للوطن المصرى، وأنه كان يصل بين الوطنية القومية، والدين بسبب قوى لا يمكن أن ينفصم)[٣٣١].

لذا كان هناك بناء وظيفى لهيكل المجتمع (غايته الحفاظ على النظام الاجتماعى، وتأكيد ثباته النسبى واستمراريته، وبالمثل يكون هدف كل مكون

---

[٣٣١] عبد الحميد يونس: مجتمعنا – ص ٣٦.

من مكونات البناء، وكذلك الطريقة التى ترتب، وتنظم بها هذه المكونات هو تحقيق النظام والتوازن الاجتماعيين)[٣٣٢] . فالمجتمع من الناحية البنائية الوظيفية هو نسق من الأفعال المحددة المنظمة، وقد ذهب تالكوت بارسونز (إلى أن المجتمع يحكمه نظام واحد يميل إلى الوحدة والتكامل من أساس تكامل القيمة)[٣٣٣]، ومن ثم قام الراوى بذكاء شديد بعرض صور المجتمع، وأساليبه وانعكاس الأحداث عليه، فشكل الراوى كونا يجمع تلاحم العناصر الشخصيات باختلاف فئاتها فى تضافر على وحدة متضامنة متماسكة، وهو صد العدوان بأشكاله، وجعل لكل شخصية طريقتها، ومسلكها الخاص بها. حتى كون ملحمة متشابكة الأنساق ذات رؤية واحدة فالعيارون، والعياق الذين تميزوا بالعصيان الدائم نراهم قد انصهروا فى بوتقه واحدة التكوين وقد أعاد الراوى هيكلهم الوظيفى من العصيان إلى الطاعة المستمرة للسلطان، كما استطاع الراوى أن يطوع نفسه لخدمة المجتمع الاسلامى فى صورة (ملوك النصارى الذين أسلموا)، فكانت الوحدة الكونية لديه فكرية فطرية ذات سمة أسلوبية خاصة استطاع من خلالها أن يطوع النصوص أيضا التى زخرت بها السيرة إلى بيان، وتعاون، وائتلاف جميع القوى للتصدى للعدوان فى أشكاله (السحر- تسخير الجان - معارك حربية - حيوانات أسطورية إلى غير ذلك) فجاءت نصوص بكاملها عن تسخير الجان والسحر، والمعارك الحربية، وكما جاءت نصوص تصف العناصر الأسطورية من قلاع، وسيوف مرصودة، وملابس إخفاء (طاقية الاخفا) كهوف ومغارات ... إلخ.

فلا شك أن لكل هذه النصوص لغتها وصياغتها الخاصة التى تهيئ القارئ بما تحمله من عناصر التشويق للدخول مع الراوى داخل كل نص لمعرفة الغرائب، والعجائب يستوقفه الراوى مرة مبديا سببا للحدث، أو معقبا على سبب، أو مرجعا الحدث لأمور، أو لأحداث لاحقة، أو سابقة، وفى كل مرة لا

---

[٣٣٢] عباد الباسط عبد المعطى: اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع - الكويت - عالم المعرفة - ص ١٦٣.

[٣٣٣] محمد عارف: المجتمع بنظره وظيفية - فالكوت بارسونز - ص ٧٥.

يلبث أن يدخله إلى عالم، ونص جديدين، فالعلاقة بين الراوى والمتلقى هى علاقة مرسل يكون النص من خلالهما أداة ربط :

المرسل ـ النص ـ المستقبل

الراوى ـ وساطة ـ المستمعين(٣٣٤)

ويستخدم الراوى أدوات عدة يصول بها، ويحول داخل النصوص فيتحدث بضمير الغائب مرة وبضمير المتكلم بأخرى محاولا إقناع القارئ، والمستمع، وكأنه شاهد عيان على الأحداث (عندئذ يكون أكثر إندماجا مع الشخصيات المتخيلة)(٣٣٥)، ويظهر هذا جليا من خلال المقام السردي (الذى يربط شكل السرد بالمواقف، والأحداث باتساع سياقه الزمانى والمكانى مشتملا على الراوى والمروى له)(٣٣٦)، (وقد يساق النص من خلال عدة رواة فى السيرة لهم أسلوبهم المتميز عندئذ لا يكفى مجرد التميز بين متكلم، وغائب بل الأهم الخواص المميزة لأنواع الرواة، وعلاقتها بتأثيراتهم المختلفة)(٣٣٧)، ومن ثم يظهر فنية الراوى من خلال فضاءات النصوص.

فضاء النص

إن الشكل النثرى الذى يسوقه الراوى من خلال الحكايات المتعددة الجزئية المتلاحمة مع النص قد تكون بهدف الأخبار، أو الاستماع (أو تفسير دخول شخصيات جديدة داخل مجال الأحداث، أو دخول الراوى نفسه ليبين السبب فى موقف قد حدث فى غياب البطل)(٣٣٨)، فتعد هذه الحكاية دعامة أساسية فى النصوص المختلفة، والتى تسمح للراوى أن يسرد حكايات طويلة لعرض ثقافته المختلفة، فقد يعرض ثقافته الدينية مثلا فى عرض حديث لسيدنا

---

(٣٣٤) غراء حسين مهنا: أدب الحكاية الشعبية – ص ١٧.

(٣٣٥) F.K. Stanzel: A theory of Narrative. P. ٤.

(٣٣٦) جيرار جينيت: خطاب الحكاية – ص ٢٨.

(٣٣٧) صلاح فضل: بلاغة الخطاب الروائى وعلم النص – عالم المعرفة – ع ١٦٢ – سنة ١٩٩٢ – ص٨٦.

(٣٣٨) خطرى عربى: البنية الأسطورية لسيرة سيف بن ذى يزن – ص ١٤٥.

محمد (ﷺ) معلقاً على حدث داخل النص (فيملأ كل فراغ يراه مناسبا لتقديم الإخبارات فلا يترك أية فجوة بصدد أي شخصية، أو فضاء، وأحيانا يوقف الحكى ليعود للأصل من الاسترجاعات الداخلية، والخارجية، وربما يجعلنا ننسى الحكى الأصلى لذلك نجد المؤشرات الزمانية، والحكائية مهيمنة بشكل لافت للانتباه (وكان لذلك سبب عجيب، ومطرب غريب يجب أن نسوقه على الترتيب، وكان السبب فى ذلك .. فإن هاتين الصيغتين توقفان الحكى الأول وتنقلاننا إلى الحكى المفارق الذى يمكن أن يكون مداه طويلا)[٣٣٩] .

الوحدات الحكائية السردية فى النص:

للحكاية بداية ونهاية عبر مقولات حكائية ينخرط الراوى من خلالها إلى شتى أنواع السرد لذا سوف نقسم هذه الأنواع السردية إلى وحدات كالتالى:

١- إذا استطاع الراوى أن يسرد خبرا عاديا بدأ الحكاية بمقولة (أما ما كان من أمر) ثم يدخل بطريقة هادئة ذات سجع، وإذا هم بسرد شكوى، وقص مشكلة أردف عبارة (وكان لهذا السبب العجيب).

٢- وعندما يضيف للحكاية حدثا مليئا بعناصر أسطورية شتى تثير الدهشة قال (واعجب ما يكون ـ وهذا أمر عجيب) .

٣- وربما يريد الراوى إضافة خبر قصير قال (فلما فرغ ـ فلما سمع ـ فلما تكلم ـ ثم أنه لما ......) .

٤- وإذا أراد أن يعمق الحكى استخدم (فبينما هو سائر إذ بغبار الأفق) .

٥- أما الحدث المعلل فيسوق الراوى عبارة (وكان السبب) .

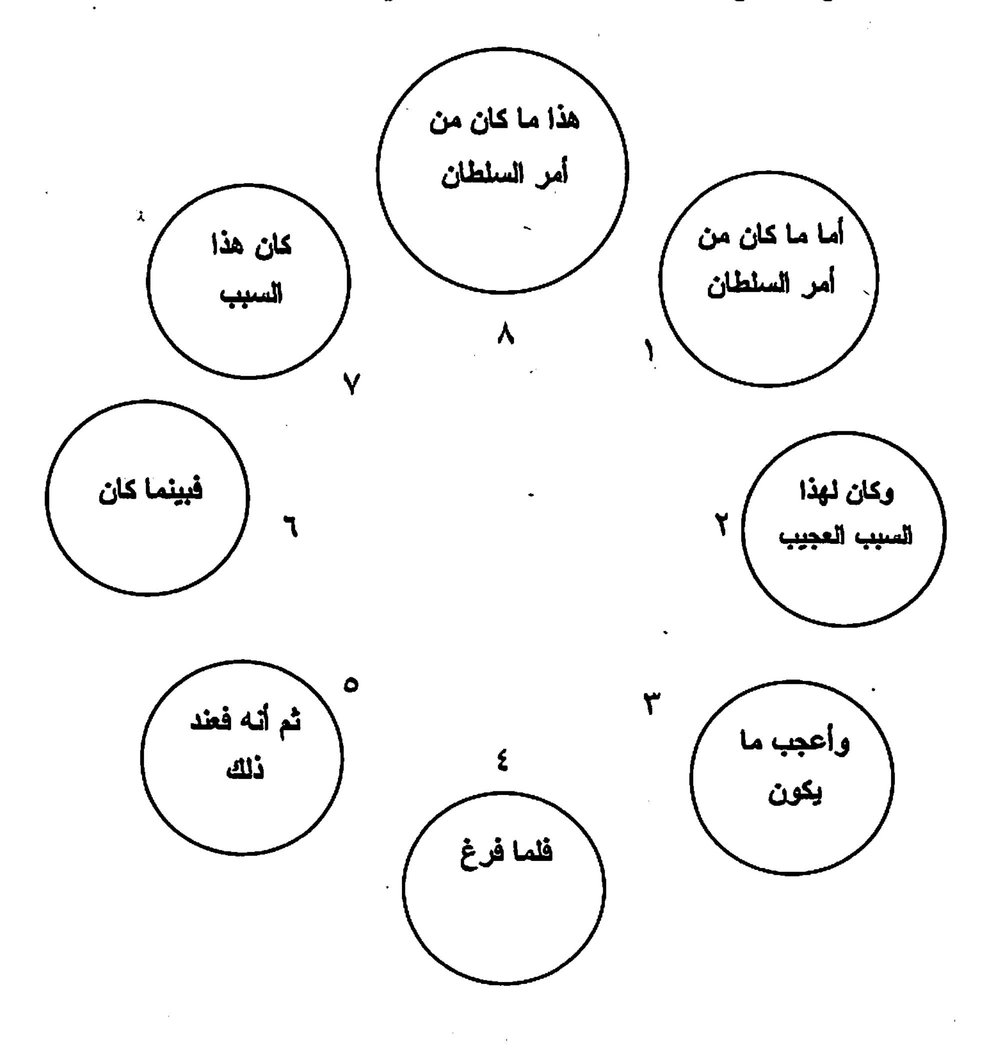
٦- ولما يقترب من نهاية الحدث فيقول (فهذا ما كان من أمر السلطان) .

وما كانت الوحدات الحكائية إلا سلسلة من الأفعال المتعاقبة التى يقوم بها (بطل السيرة لإشباع حاجة ما مادية كانت، أو شعورية، وتستدعى رحيلا

---

(٣٣٩) سعيد يقطين: قال الراوى ــ ص ١٦٨.

من المكان الذى يقيم فيه، والذهاب إلى مكان خصومه، والدخول معهم فى مواجهة، وعودته ظافرا إلى مكانه، وقد أشبع الحاجة التى دفعته للرحيل، لذا يمكن الكشف عن وجود نظام داخلى يحكم بنية الوحدة الحكائية[٣٤٠]. وهذا ما كان، ونستطيع إيضاح هذه الوحدات فى الشكل التالي:



(٣٤٠) عبد الله إبراهيم: السردية العربية: بحث فى البنية السردية للموروث الحكانى – بيروت – ص ١٥٠ – ١٩٩٢.

- تنسيق المقولات بعضها مع البعض .
- فالوحدة الأولى تتسق مع الوحدة الأخيرة .
- أما ما كان من أمر السلطان = هذا ما كان من أمر السلطان .
- والوحدة الثانية تتسق مع الوحدة السابعة .
- وكان لهذا سبب عجيب = وكان هذا السبب العجيب .

ثم يوظف الراوى الوحدات الثالثة والرابعة، والخامسة، والسادسة لتمهيد، وعرض الوحدات السابعة والثامنة حيث يتخلل الأحداث من غرائب، وعجائب، وعناصر أسطورية، وفى كل مرة يصف الراوى الأحداث ساردا، ومهيئا بفنون القول. كما كان موظفا لدلالة أسماء الشخصيات فإذا ذكر شخصية تمتاز بالخير وظف اسما دالا عليها، وكذلك شخصيات الشر فكان الصالح أيوب هو رمز الصلاح، والصبر وكان ولى الله المجذوب، كما كان بيبرس الذى يعنى باللغة التركية (الأسد) هو ذلك الأسد الذى بحث الصالح أيوب عنه.

أما عثمان بن الحبلى فكان رمزا للعيار المتمرد الذى انتسب إلى أمه ولم تفصح السيرة شيئا عن أبيه فهو ابن (غزية) دائمة الإنجاب (الحبلى)، فكان نبتا شيطانيا يرهق من يقترب منه لذلك أرهق بيبرس عندما أراد البحث عنه. وعندما ذكر الراوى اسم (مريم الزنارية) كادت قصتها تشبه قصة السيدة مريم العذراء فى عدم اعتراف قومها بطفلها التى أنجبته، وعدم نسبه ما أنجبت لرجل معين. كذلك (مريم الزنارية) قد ظلمت، وضاع ابنها (عرنوص)، وتربى بعيدا عنها، وكان ذلك الاسم رمز للمرأة المظلومة.

كما وظف أسماء العياق، والذين أعاقوا كثيرا من أبطال السيرة، فكانت أسماؤهم رامزة للعصيان، والقوة والسرعة مثل العاصى، دم بن بشر الحصون، ويعقوب الهدير، وناصر الطيار، وصخر بن عقب، وسليمان الجاموسى.

وما لبث الراوى أن علل اسما للقب شجرة الدر، وذكر أن اسمها الأصلى فاطمة، وما يحتويه هذا الاسم فى الموروث الدينى من وقار واحترام، وطيبة تيمننا "بالسيدة فاطمة بنت النبى (ﷺ) ". فكانت فاطمة شجرة الدر تقترب من الولاية الصوفية فى الهبة، والعطاء فقد أعطت هدية أبيها لرجل (شحاذ) وهو عبارة عن قلادة من الجوهر كانت تغطى شعرها إلى أخمص قدميها، وعندما سألها أبوها عنها لم تجد له جواباً، فيظهر لها هذا الشحاذ الذى كان وليا من الأولياء، ورد لها هديتها فعندما، وقع نظر أبيها المقتدى عليها قال لها إنك تشبهين شجرة من الدر فلقبت بذلك، كذلك اسم حسنة الدمشقية أم بيبرس بالتبنى فقد أحسنت إلى بيبرس عندما كان لا ملجأ، ولا مكان له، وعالجته عندما كان مريضاً وشاركته فى تلقى نبوءته فاستحقت هذا الاسم.

أما أسماء الكاهنات اللائى أبدعن المكائد، وتوظيف السحر، فكان لأسمائهن دلالات على ذلك مثل "شواهى" أخت الكاهن "دواهى"، وكما وظف الراوى شخصية تميزت بالحيلة والاحتيال على العدو، فكان ذلك (شعبان) الاسم الأصلى الذى ورد ذكره فى كتاب الزمان (الحكيم يونان) الملقب بشيحة، والذى كان يحاور العدو حتى عرف (بالأعيب شيحة). أما إبراهيم الحورانى فكان اسمه يعد مصاهرة لسيرة سيف بن يزن الذى تميز بالمحاورة، أو السرعة فى أداء المهام الوظيفية ففى سيرة "سيف بن يزن" (كان فى الصندوق الذى اصطنعه الحكيم وقال من يدخل فيه يعافى ويحتاج إلى رجل يقال له إبراهيم الحورانى يتشطب جسده بجراحات غير قاتلة فيكون سببا لحياته)[٣٤١]

ولم يترك الراوى فرصة لأن يعطى دلالات لأسماء للمدن، والأماكن المرصودة فذكر مدينة الرخام المطلسم ــ ورومة المدائن وبستان الغول المهول إلى غير ذلك.

---

[٣٤١] سعيد يقطين: قال الراوى ــ ص ٢٧٠.

الوحدات السردية:

الوحدة الأولى :

أولا: الإخبار:

زخرت السيرة بمادة إخبارية كبيرة فكانت بمثابة الذراع الذى ارتكز الراوى عليه مستعينا بوسائل عدة متمثلة فى التزين بالمحسنات البديعية (التى قامت بدورها فى مهمة سهولة الحفظ فالعبارة المنظومة أيسر من العبارة غير المنظومة على الذاكرة، ومن ثم نظمت قواعد اللغة بل قوانين المنطق فى الأراجيز، فكانت العبارة المنظومة أيسر العبارة المرسلة، فلولا السجع فى السيرة ما استطاع أحد من الرواة، والمحدثين حفظها، وأدائها، واستحداث تقاليد خطابية موروثة فى السيرة الظاهرية، وغيرها من السير يستهل فيها المحدث كلامه، ويوجه بها الخطاب، وإلى الجمهور، ويهيئ الجو لإستحداث التوقع بظهور شخص أو وقوع حادثة، وينتقل فيها من مشهد إلى آخر، ويربط فيها بين الماضى، والحاضر تلخيصا وتركيزا)[٣٤٢] .

فيبدأ الراوى عادة الإخبار يقول الراوى (أما ما كان)، ويستهل بها بداية كل جزء من أجزاء السيرة لقص حكاية جديدة ونراها تتلاشى تدريجيا عندما يحتدم الصراع فى المجلدين الرابع والخامس من السيرة، لكن السجع يظهر جليا فى وصف الأماكن الأسطورية، حتى يعطى الراوى إيقاعا للنفس، واستشرافاً للخيال، لذا يقل السجع فى الأحداث التى لا تسمح بذلك حيث السرعة، والكر، والفرار مثل الترحال، والحروب، والصراعات، فيركز الراوى فى استخدام أساليب التوجس والتتبع، والحذر، ومن ثم سوف نسوق أمثلة تطبيقية إخبارية، (أما ما كان من الملك الصالح فإنه بات، وأصبح، وأقبلت عليه العلماء، وأهل المراتب، والإنصاف، وقرأ الفواتح، وأهداها إلى الخاتم الفاتح، ثم قرأ الحزب، وختم رقى الراقى، وختم دعاء الداعى)[٣٤٣] .

---

[٣٤٢] عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس – ص ١٠١.

[٣٤٣] السيرة: م١ – جـ١ – ص ١٩٣.

فى السفر والترحال:

(وأما ما كان من الأمير بيبرس فإنه لما ركب، وخرج قاصد الإمام الشافعى، وركب معه رفاقه فلعب الجواد تحت بيبرس، فتمطا السرج فانحط فى اللجام فرج الجواد انقطعت الشريحة، وباقى القشاط، وانزحلق السرج)[٣٤٤].

الأحلام:

(أما ما كان من أمر الشيخ يحيى الشماع فإنه حكى لزوجته مناماً، قال رأيت الظاهر بيبرس، وسوف يكون ملكا تذل له رقاب الإنس، والجان، وهذا ولدك كريم يكون له بمدته شأن على مر الليالى والأيام)[٣٤٥] .

التوجس والخوف:

فقد ظهر ذلك من توجس عثمان من بيبرس (أما ما كان فإنه سار خلف الأمير بيبرس، وعلى رأسه الملاية، بعيد من الدكان، وجعل ينظر، وهو جعان وخوفا من أن ينقلب إنسان)[٣٤٦] .

الوحدة الثانية :

وإذا أراد الراوى أن يسرد الأسباب التى تتعلق بمتن الحكاية أبدى غرائب وعجائب يسوقها فى مقولته (وكان لهذا السبب عجيب وأمر غريب)، فيصف أحداثا بأن لها وقعاً فى نفس المتلقى كما يقوم بوظيفة تأويلية يحاول من خلالها (إيجاد علاقة بين ما يروى، والبنية الثقافية من أجل شحن الخطاب بدلالته المطلوبة فى زمن روايته، كما يحاول إضفاء رؤيته الخاصة، وموقفه الفكرى على المروى كلما رأى ضرورة لذلك)[٣٤٧]، فيعرض شكوى، أو مظلمة لأحد أفراد الجماعة مبينا تلاحم السلطة مع الجماعة فى شكلها الفردى، ويهيئ بذلك لدخول شخصية جديدة من العياق. الذين سكنوا الجبال لمدة طويلة،

(٣٤٤) السيرة: م١ – جـ٤ – ص ٢٩٠.
(٣٤٥) السيرة: م١ – جـ٣ – ص ٢٦٦.
(٣٤٦) السيرة: م١ – جـ٤ – ص ٣٣٨.
(٣٤٧) عبد الله إبراهيم: السير الشعبية العربية – ص ١٤٨.

وما أن تتكون لديهم فكرة العودة إلى زعيمهم سلطان القلاع حتى علموا بتوليه سلطان جديد، فيكون أمراً عجيباً، وغريباً، وغالبا ما يكون هذا الحدث بعد استقبال السلطان وجلوسه على الكرسى، (بعد أن لاح الفلاح، وانتشر الصباح، وأما ما كان من أمر السلطان، فإنه جلس على الكرسى، وإذا برجل يبكى، ويسمعه خبراً عجيباً)، أو يقص المشكلة.

الوحدة الثالثة:

يردف عبارة (وكان لهذا سبب عجيب وأمر مطرب غريب اسمع يا أمير إني قد كنت معلما بأرض بنها العسل، وسمعت ولداً يستغيث، ولا يغاث فأخذته أربيه لوجه الله، واشتريته من الفلاح بخمسمائة شريفى، فلما سمع الفلاح منى ذلك طاش عقله، وضاع صبره، وقال لى بعتك إياه، فلما كبر الولد جمع شيوخ البلد، وأورثونى العطب، وأنا لا بيدى كلام، ولا أذكر أحد)[٣٤٨]، وهناك مثال أخر (وكان لهذا سبب عجيب أنه كان هناك عايق يبحث عن معروف سلطان القلاع، فعلم أن شيحة قد تسلطن، فهاج، وماج، وأثار الذعر، والهلع)[٣٤٩].

الوحدة الرابعة : (فلما سمع) (فلما فرغ)

تأتى هذه المقولات كأدوات تعقيب لسماع الأحداث فتصحب سجعاً هادىء النبر فى سرد الحكاية. ومن أمثلة ذلك (فلما سمع ذلك تعجب غاية العجب، وقال والله بحق هذه الأعاجيب أن تكشف الذهب، قد أعطيتك الأمان والزمام وما عليك خوف، ولا ملام وحق الملك العلام غير أنك لا تعارضنى فيما أفعل من أحكام حتى أدبر، وأكشف هذا الإبرام، ومن فعله)[٣٥٠].

وعندما تفك أسرار القضية يتخذ الراوى مكانا آخر على هامش الحكاية، يسرد الراوى واصفاً حالة السلطان، أو البطل بعامة بعد دعوة، أو ترحال، أو سفر حيث المفاجآت التى تنتظره. مثال (فلما فرغ السلطان من الاستغاثة، إلا

---

[٣٤٨] السيرة: م١ – جـ٥ – ص ٣٨٨ – ٣٨٩.

[٣٤٩] السيرة: م٣ – جـ٢٢ – ص ١١٥٤.

[٣٥٠] السيرة م١ ـجـ٥ – ص٣٨٩.

والأستاذ المغاورى وهو يتضرع إلى الخالق، ويفك أسره)[٣٥١] مثال آخر: (فلما فرغ من الترحال، والسفر، وجاء به الحال دخل مغارة، فوجد شيخا..)[٣٥٢].

الوحدة الخامسة :

وربما يجد الراوى فرصة سانحة لسرد حكاية جديدة ذات سجع هادئ النبر يبدؤها بمقولة (ثم أنه)، (فعند ذلك) مثال (ثم أنهم طلبوا المسير، وتوكلوا على اللطيف الخبير)، ولم يزالوا مجدين، والجد، والتشمير مدة عشرة أيام، نزلوا عند الغروب، ونامت كل عين يقظانه، وقد ازدهرت النجوم، واطلع على عبادة الحى القيوم ...)[٣٥٣]، (فبعد ذلك خرج بيبرس من الديوان فتلقاه عثمان، ونظر إليه، وقال له: مبارك لعلك مشد تراب أو آغه..)[٣٥٤]، (ثم أن الوزير أمر بإحضار الطعام فحضر فى الحال، فأكلوا، وشربوا، ولذوا، وضربوا، وجلسوا يتحدثون إلى أن مضى الليل بالاعتكار، وأقبل النهار بالأنوار، فصلوا صلاة الافتتاح فى وقت ما أصبح الصباح، وصبروا على هذا المنوال إلى أن أقبل الزوال)[٣٥٥].

مثال آخر (فعند ذلك كتب الفرمان المملوكى، والإشعار السلطانى، ومشى الأمير فى ركباه)[٣٥٦].

الوحدة السادسة : (فبينما) - (فلما)

يركن الرواى إلى سرد التفاصيل لحكاية جزئية عن العيارين، أو سماع السلطان بأفعالهم فيكون السجع فى هذه الوحدة لا مجال له حيث إنه خبر تمهيدى لحدث سريع الإيقاع مثل الحرب، والحيل، والمبارزة مثل (فبينما المقدم حسن عبد عجبور يتحدث مع الرجال إذا بالأثنين المشايطة، وهما داوود،

---

(٣٥١) السيرة: م٣ – جـ ٢٩- ص١٩٨٨.

(٣٥٢) السيرة: م٣ – ص٣-ص٢٦٦.

(٣٥٣) السيرة – م١ – جـ ٤ – ص ٥٠٧.

(٣٥٤) السيرة – م١ – جـ٣ – ص٣٥٧.

(٣٥٥) السيرة م١ – ص١٧ – ص١١٩٦.

(٣٥٦) السيرة م٢ – ص١٦ – ص١١٣٥.

وشاهين داخلين عليه فسلموا عليه، وقالوا نحن فى عرضك، وقال: ما الخبر، ومن تستغيثون بى منه، قالوا: سلطان القلاع شيحة)[٣٥٧]، أو(فلما سمع الملك قال للمقاوم الآن عرفتوه، قال: نعم، فنادى مهروق الدم فعرفوه، فقالوا له: أنت من أهل المراتب، ولك علينا الجميل)[٣٥٨].

الوحدة السابعة: (وكان هذا السبب) (وكان السبب فى ذلك)

عندما يقترب الراوى من نهاية الحبكة الفنية للحكاية بعد أن عرض الأسباب، والغرائب، والعجائب متناولا حالات الشخصيات، وتفاعلها داخل النصوص، ومستخدمًا مقولات تهيئ المتلقى لاستمراره فى قراءته، أو سماعه، وفى كل مرة يؤكد الراوى الأحداث، أسبابها ووقوعها بعبارة (وكان هذا السبب أو السبب فى ذلك)، مثال (وكان هذا السبب فى مجىء هذه الركبة اللعين جوان، وذلك إنه لما هرب من طبرنى، وحل به حل من العذاب الأليم، أخذ البرتفشى ولم يزل سائرا حتى أنه عبر إلى أنطاكية، وقد حلت به كل نكبة، ودخل على الفرتماكوسى، وهو يقرأ فى قداس من المزامير، وأمره أن يركب ركبة فى سبيل المسيح على المسلمين)[٣٥٩].

الوحدة الثامنة: (وكان هذا السبب)

تعد الوحدة الأخيرة التى فيها يؤول الراوى الأسباب التى أدت إلى وقوع الخبر مثل نهاية المكائد والحيل وأسباب موت الأبطال.

مثال (وكان هذا السبب فى موت السلطان أن أيبك لما دخل مصر، قال للحكيم خذ هذه الخردقة السم الخارق، وضعها فى المراهم، ولك ألفا شريفى ذهب فقال له الحكيم معاذ الله أن آخذ ذنب مؤمن فى عنقى، فدخل أيبك على السلطان وأخرج فص الخاتم فوقع فى الشربة، فقال السلطان، وعزة الله أعلم بما قد دبرت فوعزة ربى إن دورت فى الكون فلم أر لى موته أحسن من هذه)[٣٦٠].

[٣٥٧] السيرة م٢ – ص١٧ – ص١٢٠٠.
[٣٥٨] السيرة م٢ – ص١٦ – ص١١٣٥.
[٣٥٩] السيرة م٢ – ص١٦ – ص١١٦٣.
[٣٦٠] السيرة م١ – جـ ٤ – ص٩٩١.

وأحيانًا يشرع الراوى فى تكوين علاقة ما بين الحكايات، فيربط بين حكايتين متعلقتين بسبب واحد صانعاً ما نسميه (دمج الحكايات)، ومثال ذلك (وكان السبب فى ذلك لما عاد السلطان من مدينة رودس، وكنا قد قدمنا أن جوان قد قبضه شيحه، ووضعه فى السجن فأدركه واحد من علمائه إذا يغلبون مقبل من ناحية بلاد اللاذقية، وفيه قبطان الإسلام أبو بكر البطرانى، وقد استطاع أن يخطف السلطان عند رجوعه من كيد جوان)[٣٦١].

(وقد استطاع السجع أن يلعب دورًا مهمًا في سرد الحكايات منها تقوية فعالية الكلام العادى الذى يعطى التصوير، والتمثيل مؤدياً لذلك ذوقا فنياً ذو وجوه مختلفة يرفعه من النثر القصصي، ولا نعنى أكثر من قوة اللغة، وملاحقها فى السجع، فمن خلال النغمات الرائعة تكسب الكلمات دائما قيمة، وهذا يجعل الأقوال من لا شىء شيئا)[٣٦٢]، وهذا يؤدى إلى ظهور فن آخر وهو الإيقاع الذى يساعد على التذكر من السرد الشفاهى، لأن السجع يميل إلى التفكير المطول دون الأساسى الشفاهى حتى عندما لا يكون شكل شعرى إلى أن يكون إيقاعيات بشكل ملحوظ لأن الإيقاع من الناحية الفسيولوجية يساعد على التذكر[٣٦٣].

فضاء النص:

يحاول الباحث أن يدرس فضاء النصوص داخل السيرة حيث تعددت وتشكلت صياغتها النثرية حتى أصبح لكل نص فضاؤه الخاص به، فهناك فضاء مقام السلطان، والحلم، واللون، ووصف البلاد والعباد، والاستغراب، والسخرية. وكذلك فضاء الحكاية المزدوجة، الموقف إلى غير ذلك حتى نتوصل بذلك إلى كشف العناصر البلاغية، والقيم الفنية داخل كل فضاء.

---

[٣٦١] السيرة م٤ – ص٣٢ – ص٢٢٠٧.

[٣٦٢] خطرى عرابى – البنية الأسطورية فى سيرة بن ذى يزن. ص١٧٧.

[٣٦٣] والترج اونج: الشفاهية الكتابية، ت حسن البنار، مجلة عالم الفكر الكويت ع١٨٢، ص١٠١.

أولاً: فضاء مقام السلطان:

تزخر السيرة بمقامات السلطان وجلوسه على كرسى العرش حيث تكون البداية حتى إذا تداخلتها الحكايات وآلت إلى النهاية، انتهت بنفس فضاء مقام السلطان، وفى هذا الفضاء يكثر السجع، وتكون اللغة أكثر هدوءاً حيث يشكلان بناء معماريا يجسد الحركة الممتدة من دخول السلطان إلى قاعة الملك، والديوان إلى المشهد المسرحى، والحركي إلى أن يجلس على كرسي العرش، ودخول الوزراء عليه، ومثال ذلك الملك الصالح أيوب ولى الله المجذوب (فإنه لما بات وأصبح يصلى ويسلم على من له ورد فتح، وصلى فرصة، وقرأ ورداً، فدخل عليه الأغا جوهر الصالحى، وأعلمه بأن الديوان تكامل)[٣٦٤].

عندئذ يمتد السرد، ويطول واصفاً قراءة الأوراد، وختم الأدعية، ورقبة الراقى، ودخول السلطان لديوانه (وهو يتوكأ على قضيب من الخيزران حتى أقبل التخت، وبسط أياديه، وقرأ الفاتحة، وجلس على سرير ملكه، وبدأ أهل دولته بالسنة فردوا عليه بالفريضة الشرعية، وكل منهم لازم مكانه، وجلس فى موضعه ثم سلم ذات اليمن وذات الشمال، وقرأ القارئ، وختم، ورقى الراقى، وختم، ودعا الداعى، صاح جاويش الديوان، وهو يقول صلوا على طه الرسول، إذا بنجاب يدخل)[٣٦٥].

وإذا كان هذا الفضاء قد امتلأ بعبارات صوفية كثيرة فلا عجب في ذلك، فإنه مقام الصالح أيوب ولى الله المجذوب، إذا تناولنا فضاء مقام بيبرس نلاحظ اختصار العبارات حيث احتدام الصراعات، والاضطرابات، ومن ثم أثر ذلك على استخدام فنية السرد من حيث السجع الذى بات قليلاً جدًا.

ومن أمثلة ذلك (لما أصبح الصباح، وأضاء الكريم بنوره، ولاح ظهر الملك العادل وجلس على التخت، وقد احدقت عن حواليه الرجال، وسائر الأبطال قرأ المقرئ، وختم، وأراد الملك يتعاطى القصص، ويزيل الغصص)[٣٦٦].

---

[٣٦٤] السيرة م٢ – جـ١٦ – ص٣٧٤.

[٣٦٥] السيرة م١ – جـ٤ – د.ص٣٧٤.

[٣٦٦] السيرة م٢ – جـ١٨ – ص١٢٦٥.

أما وصف مقام أيبك عندما تولى حكم مصر لفترة وجيزة، فنلاحظ أن المقاطع مختصرة، والفواصل قصيرة، ولم يظهر السجع بها، وهذا يرجع للموروث العدائى الذى عرضه الراوى لأيبك من خلال صراعاته مع بيبرس. فلم يضف عليه لقب ملك، أو سلطان بل ذكره مجرداً، ومثال ذلك (ولما أن أصبح الله بالصباح، وأضاء الكريم بنوره، ولاح ظهر أيبك، وجلس على التخت، وطلع على الوزير، وتكامل الديوان، إذ يدخل عثمان، ويقول)[٣٦٧].

١- فضاء السفر والترحال:

يزخر فضاء السفر بالعديد من الفواصل الطويلة، والقصيرة، ويتنوع مستخدماً السجع، والنبر تبعا لحالة السفر، فهناك السفر المقدر، والمنادى الذى يظهر للمسافر، ويساعده فى مشاق السفر، فكل موقف يؤثر على الشكل النثرى للنص.

أ- الإعداد للسفر المقدر على الأبطال المساعدين، فتكون عبارته طويلة، ودرامية الإيقاع يغيب فيها السجع تبعاً للموقف المؤثر الذى يحدث فى فضاء النص. مثال: (فلما تقرر الأمر بينهم – توجهوا إلى بحر النيل، ونزلوا فى القرايب، وأمر المقدم إبراهيم بالمسير فانطلق المدفع،وإذا بالملك العادل قد أقبل فى صفة درويش عجمى، فعرفه إبراهيم، وقال يا دولتلى ارجع أنت فإن عشنا يجمع الله شملنا، فأراد الملك أن يمنعهم فما قدر بعد ذلك أبدا). فى هذا الفضاء تتنوع العبارات، والجمل بين الطول، والقصر مشبعة بالسجع فتبدأ بالهدوء عند الرحيل ولكنها سرعان ما تتلاطم فى جد السفر، فأحيانا ما يتعرض المسافر فى الصحراء لعارض يمنعه من مواصلة السير عندئذ تظهر إذ الفجائية محملة بمفاجأة، أو عائق فتقصر الجمل، مثال (فبينما هو سائر فى الطريق وإذا قد طلع عليه غبار حتى سد الأقطار فتأمله بيبرس وإذا هو فارس مقبل عليه، وقال له هات الغفر وإلا المحاربة فقال بيبرس يا وجه العرب نطقت بما فيه المصلحة من الكلام،

---

[٣٦٧] السيرة م٢ – جـ ١٤ – ص١٠٦٢.

وقد رضيت بتلك المرام، ثم انطبق الاثنين كأنهما جبلين، وافترقا كأنهما بحران، وتناطحا كأنهما كبشان، وخرج من أيديهما ضربتان فزاع بيبرس فى الحال، وأرماه باللت الدمشقى إلى الأرض كالمجدال، وركب جواده واتجه إلى الشام)(٣٦٨) .

ب- وفى السفر عادة ما يظهر مناد على البطل يشدد من أزره، أو يرشده لطريق عندئذ تكون الفواصل قصيرة سريعة خالية فى النبر. مثال (سمع الملك عرنوص فى سفره قعقعة الرعد، فسمع مناد من خلفه، يقول له شد حيلك يا ولدى الله يلطف بك فيما قدر عليك، فالتفت فلم يجد أحدا).

٢- فضاء الحروب:

بما أن الحروب سريعة الإيقاع فى الحركة، فلا مجال للسجع إلا ما ندر. ولكن هناك تناغم فى نبر فى الكلمات والأفعال الثلاثية (علا، طال، غلب، ضرب، وقام، هرب، نزل ...) إلخ، كما تقصر المقاطع، والفواصل لتفسح مجالا للتشبيه.

مثال (نظر السلطان إلى عساكره، وكانوا أربعمائة، وجعل كل مائتين على جبل، وأقام على باب القلعة، وأمر عساكره أن يضربوهم بالنبال، فوقعت عينه على الملعون الصيداوى، فعند ذلك أطبق على السلطان، وتضاربوا بكل سيف ورمح، فطلب الهرب، وحل به سوء المنقلب، وإذا به نزل عليه رشق النبال من على الجبل كالسيل السيال عن اليمين، والشمال، ونظر عين الهلاك، والبلوى فرفع طرفه لعالم السر، والنجوى)(٣٦٩)

وقد يطرب الراوى لصليل السيوف، فيحدث جرسا موسيقيا من خلال السجع مثال لذلك (مبارزة إبراهيم الحورانى لنصير النمر تجاوز الاثنان كاسات الحتوف، وطلع الزبد على أشداقهم كالقطن المنتوف، وتضاربا بالسيوف على الورق، وأزور منها الحدق، وسال على أجسادهم العرق، ولمع حسام المنايا،

---

(٣٦٨) السيرة – م٣ – جـ٢١ – ص ١١٤٤ .

(٣٦٩) السيرة – م٢ – جـ٢٣ – ص ١٦٨٥.

وبرق، وكانت ساعة تقشعر منها الجلود، ويذوب من هولها الحجر الجلمود، وانطبقا انطباق جبال الأخدود، وافترقا افتراق وادى زرود، ودام على هذا الحال، وهما فى حرب وقتال)[٣٧٠].

فضاء البلاد والعباد:

يتسع هذا الفضاء لعرض الفانتازيا، حيث يجد الراوى فرصة لعرض تخيله بصوره المختلفة، والعناصر الأسطورية للأجناس، والمدن، وبلاد الغرائب، والعجائب، فيستخدم عبارات تثير دهشة المتلقى، فقد يذهب بخياله إلى بلاد تشرق الشمس فيها من المغرب، وتغرب من المشرق، وسكانها يلقون باللؤلؤ، والمرجان فى الطرقات فالبلاد أكثرها كبيرة الحجم، وكل ما بها على غير المألوف، فأشخاصها من النحاس، ومياهها من الفضة .. إلى غير ذلك، (كما أن هناك بلاداً مكونة من أربع قلاع[٣٧١]، تسمى وادى الحيات به كثير من الزهر، والنبات، وينقسم إلى سبعة وديان، وأربع قلاع، وفى كل عامود وحش بارك وشخص من النحاس قابض يديه على وحش من الفضة، وأفواههم نازلة منها مياه مثل سباك الفضة، ماؤها أحلى من العسل، وبها أشجار من الذهب، وفروعها من الفضة سروج جيادها من الذهب الأحمر المرصع بقطع من الزمرد، وفصوص الجوهر)[٣٧٢].

العباد فى الحكاية المزدوجة:

قد يحكى الراوى عن العباد، فيجد مجالا لمزاوجة أكثر من حكاية معاً، فيهمل الحكاية الأولى بالحكاية الثانية لكثرة الأحداث التي يسهب فى سردها معتمداً على جمل وفواصل طويلة.

مثال ذلك (إن هذا الشيخ اسمه محمد نرميس، وكان له أخ اسمه حسن نرميس، ومحمد هذا خلف بنتا اسمها حسنة، وأخوه خلف ولداً اسمه يحيى، فدخل عليه رجل هندى، وعلمه صناعة النوال، وسافر إلى الحجاج واشترى

---

(٣٧٠) السيرة – م٣ – جـ٢٤ – ص ١٧١٠.
(٣٧١) انظر ملحق السيرة : فقرة (١١٥).
(٣٧٢) السيرة – م١ – جـ٣٤ – ص ٢٣٠٦.

قماش، وسافر، وتعلم الخياطة، وباع للسلطان، ورجع على بن نرميس... إلخ)[٣٧٣].

فضاء الاستغراب والسخرية:

إذا كانت البلاد تمثل استغراباً داخل فضاءات السيرة، فإن المعتقد يكون محط سخرية لمن لا يؤمن به، فيستخدم الراوى أدوات لجذب الانتباه فى النص ساخراً مرة، ومتعجباً أخرى، فيهئ للسرد مستخدماً ألفاظ، وعبارات تستوقف القارئ للنظر بإهتمام في محتوى النص، آماناً مع الراوي بالمعتقد الإسلامي، لما يعطيه الراوي من تصدير للفكر، والمعتقد في قالبه السردي، فيبدأ نصه بـ (انظر، قف، اسمع لما أقوله...)، وعندما يسخر يوظف أدوات النهي، والتحذير، ولا تختلف النصوص سواء على لسان مسلم يسخر من المعتقد المسيحي، أو على لسان مسيحي يسخر من المعتقد الإسلامي، لذا كانت هناك نصوص زخرت بمواضع السخرية، فعلى لسان أحد القساوسة الذى ينصح أبناءه ألا يكونوا كالمسلمين الذين لا عقل لهم، والذين لا يشربون الخمر، ولا يأكلون لحم الخنزير، ويقول: (انظر ياولدى ما أقل عقل المسلمين الذين يأكلون لحم الضأن ويتركون لحم الخنزير، ومن قلة عقولهم يتركون شرب الخمر - فلا تفعلوا يا أولادى مثلهم ولا تقولوا بقولهم)[٣٧٤].

فضاء الموقف:

الموقف هو عبارة عن رد الفعل داخل محيط السيرة أو الرؤية المركزية)[٣٧٥]

مثل التسامح الذي يتجلى هذا التسامح داخل إطار النشاط، والمعاملات، والعقائد من قبل المسلمين تجاه العدو، وتجاه أهل الزمة بعامة مما يدفعهم إلى مواصلة دفع الجزية، فالتجار اليهود، والمسيحيون من بلاد الروم يزاولون مهمتهم إما من خلال الإقامة فى دار الإسلام، أو العبور بشكل ينم عن قبول الآخر.

---

[٣٧٣] السيرة - م٣ - جـ٢٧ - ص ١٨٨٢.
[٣٧٤] السيرة - م١ - جـ٢ - ص ١٠٠.
[٣٧٥] سعيد يقطين: قال الراوى - ص ٢٩٤.

بل أن منهم من يتولى مناصب مهمة مثل (جوان القاضى)، كما يتبدى مثال التسامح فى علاقة الصالح أيوب بالملك حنا الرين، فقد فتح الملك الصالح أيوب غمامة البيت المقدس لمريم ابنه حنا الرين كى تزورها بل كفل لها من يحرسها فى الطريق، وهو معروف بن حجر، فكان يعاملها باحترام، وتقدير خاصين فيظل ساهراً على باب خيمتها خشية إصابتها بسوء.

كما طلب الظاهر بيبرس من عرنوص بن معروف بن حجر أن يسامح ويصفح عن أولاد الملوك مغلوين، ودفش، ودومار، الذين استجاروا بالظاهر فأجارهم وطلب من عرنوص مسامحتهم، لكن عرنوصاً بات مصرّاً على الفتك بهم، ومازال الظاهر يطالبه بذلك حتى باءت هذه المطالبة باحتدام الصراع بينهما حتى تم العفو عن أبناء الملوك.

فضاء الحلم:

لا يختلف فضاء الحلم عن فضاء العالم الآخر سواء من حيث الطبيعة، أو المسافة، فالموت هناك يقابله النوم هنا، وكلاهما يقابل الحياة أو اليقظة (إذا كان فضاء العالم الآخر يحدد ما سيكون عليه الشخص بعد موته، فإن الحلم أو الرؤيا استعارة للفضاء المحتمل الذى سيكون فيه الشخص بعد يقظته فى زمان ما، ففضاء الحلم يمثل الحياة التى يقاربها فناء للعالم الآخر، ويكون الموت أداة هذا العالم، فإذا كان فالموت يقابله النوم، فكلاهما يقابل الحياة، أو اليقظة، لذا فإن الفضاءين معا يعدا نمط استباقى سيتحقق، مما دفع الراوى إلى استخدام ملفوظات سردية ثابتة مثل (رأيت يا ساداتنا الليلة الماضية مناما فهل يصبح فيها منام)[٣٧٦]، أو (لما أمسى المساء، ونامت كل عين يقظة، وأدام الديموم، وظهرت النجوم)[٣٧٧]، أو (استغرق فى منامه، ولذيذ أحلامه)[٣٧٨]، أو(أخذته سنة من النوم، فرأى فى منامه أنه سار فى ...)[٣٧٩]، ومن ثم يسبح الراوى عبر الحلم فى بحر لجى أحيانا يظهر العجائب، وأحيانا يختفى ليمر بالقارئ عبر

(٣٧٦) السيرة – م١ – جـ١ – ص ٦٨.
(٣٧٧) السيرة – م١ – جـ١ – ص ٦٨.
(٣٧٨) السيرة – م١ – جـ١ – ص ٨٧.
(٣٧٩) السيرة – م٥ – جـ٣٤ – ص ٢٩٠٨.

تحقيق الحلم، والرؤيا (فهو كائن من ورق)[٣٨٠] ويقوم بوظائف شتى مثل التصوير، والسرد، والتعليق، والتأويل، وهو أيضاً فى فضاء السيرة (بنية من بنيات القص شأنه شأن الشخصية والزمان والمكان)[٣٨١].

لذا يجد الراوى نفسه أمام حبكة فنية لابد له أن يستكملها فيخلق لها شخصيات، أو يمهد لظهور عناصر أسطورية فيضفى على النص، أو المتن إضافات تخدمه، وتثير من دهشة القارئ لهذه الرؤى، فيكون الراوى ما بين قاب قوسين، أو أدنى فى تحقيق الحلم سريعا، أو مؤجلا حسبما يقضيه الحدث، فأحيانا ما يرى البطل رؤية سرعان ما تتحقق فور يقتضيته من الحلم، وربما يكون التحقيق مؤجلا لظهور مؤثر، وعنصر أسطورى يكون أداة من أدوات التحقيق عندئذ يمضى الراوى تؤده يصحبها لذة الصياغة إلى أن يقنع بتحقيق الحلم، فينعكس ذلك على المتلقى أيضا من خلال تلقيه لهذا الفضاء، ومن ثم يحدث التوازن النسقى الوظيفى من خلال النص السردى بين المرسل، والمستقبل، ويكون النص هو الواسطة بين الراوى والمتلقى حيث ينقل الراوى أيضا مشاعر البطل، أو الشخصية التى رأت الحلم إلى المتلقى، وهذا النقل ليس مجرد نقل محاولة امتزاج المشاعر عند النقل فيحدث بذلك تجانسا بين الشخصية والراوى، فيعبر الراوى بضمير الغائب، أو بما يسميه رولان بارت (التطابق التام أو التماثل المطلق).

كما استطاع الراوى أن يجعل فضاء الحلم، ونبوءة لولادة الحدث، ونبوءة نهايته فى السيرة، وفى كل مرة يهيئ المتلقى لذلك رامزا، أو مشيرا لولادة بطل، أو موته فى صورة القدر المكتوب عليه، ومن ثم كان الحلم وفق مقدور فيلبس الراوى الحلم سياجا من التصديق بل يساعد المتلقى على التكهن بتفسير الحلم، وفك رموزه أثناء سرد النص، وبذلك يكون المتلقى مشاركا فى وقع النبوءة لحظة بلحظة عند التحقيق.

---

[٣٨٠] رولان بارت: التحليل البنوى للسرد، ت حسن بحراوى، بشير القمرى، عبد الحميد ضمن كتاب طرائق السرد الأدبى – ص ٢٧.

[٣٨١] سيزا قاسم: بناء الرواية – دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ – ص ١٣٥.

الفضاء الموعود:

الفضاء الموعود هو الخاص بفضاء البطل (بصفته فاعلاً مركزياً أول يتحرك فى عالم السيرة بمقتضى الرؤية الفضائية السيرية فإن أى فضاء يصل إليه الفاعل المركزى لا يمكن أن يكون إلا فضاء موعودا به)[٣٨٢]. ففى السيرة كان الفضاء الموعود لكل من الظاهر بيبرس، والصالح أيوب، معروف بن حجر، وهو مكان نشأتهم الأولى، فالبطل يكون فضاؤه الموعود هو مكان النشأة، فمكان الظاهر، والصالح بالشام، أما معروف، وعرنوص فكان فضاؤهما الموعود بأماكن القلاع فى الصحراء أما مساعدو البطل، فكان موعدهم مع مسرح الأحداث، ومنهم من أجل موعده إلى نهاية أحداث السيرة ليقوم بدور الواصى على الدولة، ويجلب من يتولى حكم البلاد مثل إبراهيم بن حسن الحورانى الذى امتد به العمر لما بعد الظاهر، وابنه السعيد، فاستقدم محمد الناصر من الكرك ليوليه الحكم على مصر، والشام، فهذا الفضاء مرتبط بالقدر. مما يسمح للراوى أن يهيئ للمتلقى استقبال موت البطل الذى حلق فى فضاءات النصوص ببطولات عديدة فيكون مقاطع النصوص ذات نبر هادئ قصير، ومثال ذلك (بعد أن خاض عرنوص حروب كثيرة جاء قدره ونفذ فيه القضاء والقدر بإذن الرب الكريم الذى علا فاقتدر)[٣٨٣]

فضاء اللون والهيئة:

كان اللون عاملا أساسيا فى بعض الصراعات فى السيرة حيث اهتمت بلون البطل، وجنسه، وتأثير ذلك اللون فى الجماعة المحيطة به حيث مثل اللون نسقا فريدا فالبطل بيبرس أبيض اللون أشقر (حلو الشمائل)، وهذا ما جعل العياق فى مصر يستنفرون منه ويحتقرونه لأن صورة البطل لديهم هو أسود اللون طبقا لمرورث البطولة فى أشهر السير العربية سيرة أبى زيد الهلالى، ومن ثم كان لون بيبرس يمثل له معاناة شديدة من قبل العياق، الذين لم يعترفوا به إلا بعد أن خاض معهم صراعات كثيرة، ومن ثم استخدم الراوى مصطلحين يدلان على

---

(٣٨٢) سعيد يقطين: قال الراوى – ص ١٧٥.

(٣٨٣) السيرة – م٥ – جـ٤١ – ص ٢٧٦٢.

أهمية الألوان وهما (البيضان)، ويقصد بهم المسلمين، (السودان) ويقصد بهم السود،أو الآخر لكن الراوى سرعان ما سخر الصراع حول اللون الأبيض، والأسود فزخرت الفضاءات بألوان من السخرية، وتبادلت الاتهامات، وراحت كل فئة تفتخر على الأخرى بما أفاء الله عليها، وقد تأثر الراوى لفئة البطل (البيضان) وانتصر لها، فكانت معرك جمة بين السود (السودان)، وجيوش مصر، والشام (البيضان)، ونرى الراوى لا يأل جهداً في أن يفضل اللون الأبيض على الأسود، بما للون الأبيض من إعجاب وقوة تعجب به بعض النساء اللائى كن يهرعن إلى البطل (عرنوص) الذى ما أن رأته امرأة إلا وأعجبت به لذا كان عرنوص متزوجا بأكثر من امرأة حتى إن إحدى الكاهنات راودته عن نفسها، فاستعصم حتى تسلم لكنها رفضت الإسلام وراحت تكيد له وتدبر لقتله.

الهيئة:

أما الهيئة فكانت لا تختلف كثيرا عن اللون، والصراعات التى خلفتها فهيئة البطل المعتادة لكل بطل أن يكون طويلا قويا ... إلخ، ولكن إذا اختلفت هذه العناصر فى بطل فقد يتطلب منه معاناة شديدة لإقناع الجماعة به مثل حمزة البهلوان، وذات الهمة، وشيحة.

فجمال الدين شيحة فى سيرة الظاهر بيبرس كان قصيرا جدا، ومن ثم وجد تصادما بينه، وبين العياق، والعيارين الذين رفضوا وصايته على قلاعهم، ومن ثم كان لابد له من مجال أخر بديلا عن هذا التناقض فى هيئة البطل، فكانت الحيل هى إحدى الوسائل الهامة التى اعتمد عليها حتى فطنت الجماعة أن هناك قوة الحيلة تضاهى قوة الجسم لذا اعترف به العيارون، وكتبوا اسمه على سيوفهم ولاء له، كما كانت الهيئة للبطل المضاد مصدرا مهما فى تجسيد الشخصية ونفور المتلقى منها مثل جوان الذى صورته السيرة بهيئة سيئة فهو (أبطش المنخر رفيع العنق كبير الرأس)[٣٨٤]، ومن ثم استطاع الراوى أن يوظف أنساق الأبطال فيستحسن، ويسئ عبر ألفاظ ذات دلالة وظيفية.

---

(٣٨٤) السيرة – م١ – جـ٢ – ص ١٠٠.

اللغة والرمز:

إذا كان مؤلف السيرة قد غلبت عليه اللغة الصوفية فى عرض معظم النصوص، والتعليق عليها، أو وصفه لأقطاب الصوفية بكمال الصفات، فقد جاءت اللغة رمزية للأبطال، والأحداث، وقد تجانست اللغة بالرمز عبر النثر، والشعر الذى كان دعامة لمحتوى النثر، إما واصفاً للأحداث الذى علق عليها النثر، أو مفسراً لحالات التى تكون عليها الشخصيات من فرح، وحزن، وتضرع الذى لا يتطرق إليه النثر سوى بجملة واحدة التى تكاد تكون مجرد تعليق فقط على الموقف ذاته، ومن ثم كانت اللغة نتاجاً فكرياً محملاً بالأسطورة بل يمكن أن نصفها بأنها لغة أسطورية ساهمت فى عرض ملحمة لبطل استطاعت أن تجعله بطلا مخلصاً، ووليا صوفياً، وقد مهدت لذلك فى نصوص السيرة واستطاع الراوى بجلاء أن يملك ملكة الكلام، ويستحضرها، ويحققها عبر الأحداث حتى ارتفعت السيرة لمستوى التصديق على كل ما تملك لمتلقيها، بل قد يتوهم أحداثاً توافق نهج الأحداث، وبذلك استطاع الراوى أن يفرض عليه لغة مشتركة فى الحوار، واستباق الأحداث، وتفسيرها، فالراوى نفسه لا يمكن له أن يكبح خياله الجامح ليعبر عن حاجته الروحية المتزايدة. فكانت الأسطورية لغة، والرمز أداة من أدوات التعبير لديه، ويعنى هذا أن اللغة الأسطورية بينهما علاقة متبادلة ترد فى نهاية الأمر إلى دوافع خاصة بالتكوين والصياغة الرمزية إذ (أنهما ينبعان من فعالية عقلية واحدة تظهر فى تكثيف التجربة الحسية البسيطة وتركيزها فى ألفاظ الكلام كما فى الأشكال الأسطورية تجد العملية الباطنية اكتمالها حيث تبدو اللغة والأسطورة كلتاهما حلولا للتوتر وتمثلا لدوافع ذاتية، وإثارة تأخذ صورا وأشكالا موضوعية محددة)[٣٨٥].

قد يستحضر الراوى هذه العناصر عند أدائه، أو عند كتابته للنصوص كمدون للسيرة أراد أن يتناول حياة البطل اليومية فعليه (أن يستحضر الجو الكامل لحياة البطل اليومية على جماعته، ومن ثم فهو يرتكز على الحوار

---

(٣٨٥) عاطف جودة نصر، الرمز الشعرى عند الصوفية، القاهرة – ط١ – دار الكتب المصرى – ص ٧٣ – سنة ١٩٩٨.

المتصاعد على الدوام بينه وبين افراد جماعته، أو بين أفراد الجماعة بعضهم وبعض فى كل ما يخص العمل البطولى للبطل، وكل هذا الحضور يختلف فى درجة إيقاعه فى نفس المتلقى الذى يفترض حضوره على الدوام من خلال تكرار عبارة (قال الراوى يا سادة يا كرام)، لذا فإن اللغة تختلف فى درجة إيقاعها من حضور إلى آخر، فإيقاع اللغة يهدأ مع الحكى لأن المتحدث صوت واحد، صوت أنا القاص الذى يندمج مع صوت الراوى، وفضلاً عن هذا فإن الراوى يحكى ما مضى غائب يستحضره فى هدوء. فإذا جسدت المشاهد، وواجهت الشخوص بعضها بعضاً تحولت لغة الغياب إلى لغة الحضور الحى، الناقل لنبض الحياة اليومية حتى إذا تهيأ الجو للمعركة تصاعد إيقاع اللغة)[٣٨٦] فيستطيع الراوى أن ينقل حكاية أسطورية يحيطها بهالة من الخيال حتى يسبح المروى له فى عالمها فالحكايات، والأساطير هى تعبير عن اللاشعور القديم الجماعى للبشرية، وهذا يمكن القول بأن الشعور = اللغة (تعبير بالكلمات فى حالة اليقظة اللاشعور الفردى = الأحلام تعبير بالصور فى حالة النوم، واللاشعور الجماعى = الأساطير الحكايات (تعبير بكلمات سحرية فى حالة الإيهام)[٣٨٧] .

ولقد أشربت ألفاظ الأساطير، وتراكيبها اللغوية، عقيدة الإنسان، وطريقة تفسيره للأشياء، وعلى هذا الأساس تبدو مجازية الدلالة اللغوية فى الأسطورة تعبيرا عن عبارة بالكلمات، والإيمان بقدرتها الخارقة على التأثير بالكلمة بحسب المفهوم الأسطورى بكونه مجرد دلالة إشارية إلى الموضوع (إذ أن الموضوع نفسه مختص بالكلمة فهى ليست مجرد نسق صوتى، أو شكل مرقوم ففيها القوة، والحياة، والمعنى ما يجملها قادرة على أن تتجسم وتنفذ تأثيرها الفعال فى الأشياء، وليست الرقى، والتعاويذ، والطلاسم التى زخرتها فولكلور الشعوب، والأجناس، وما نصادفه أحيانا من ربط بين حركات الحروف،

---

[٣٨٦] نبيلة إبراهيم: نماذج البطولة الشعبية فى الوعى العربى – الإمارات – ط١ الثقافة والعلوم.

[٣٨٧] غراء حسين مهنا: أدب الحكاية الشعبية – ص ٥٨.

والكلمات، وبين الطبائع وحركة الأفلاك، والمولدات سوى تجسيد لإيمان عميق بالقدرة السحرية الهائلة التى تنطوى عليها الكلمات)[٣٨٨] .

ومن ثم تكون للألفاظ دلالة سحرية عميقة لدى بعض المجتمعات، وقد ينتج على أثر هذه الألفاظ شعيرة جماعية هى فى حد ذاتها تدريب على صياغة اللغة، وهذا ما حدث فى الأطوار الأولى فقد كان المرء يحتاج بخاصة إلى شهادة المجتمع بأنه بلغ مستوى معترفا به من الإثارة، والعجز عن إثارة المجتمع تسمى باسم غريب إلى حد ما هو الخطل، (وقد أدى التقدير الشديد للإثارة إلى نوع من الانفصال بين البراعة القولية، وبعض مظاهر التروى العقلى)[٣٨٩] .

والقول ذو خطل إذا ما لم يكن لب بعينه[٣٩٠]

ولذا استطاع الراوى بوصفه حاملا لتاريخ مجتمعه الشعبى فى جعبته أن يفرز هذه المنظومة السيرية عبر الكلمات المكتوبة والمنطوقة المصحوبة بالرمز والمتفاعلة مع المروى له، أو المستمع له. فلا شك أن لغة السيرة هى لغة المجتمع التى شكلها ووزعها على طبقاته، وعناصره، ومن ثم تنتظم لغته للهجات إقليمية، وطبقية، ومهنية أيضاً، وهذه اللهجات تعيش ما عاش المجتمع بصورة ويبقى بعضها ويفنى بعضها الآخر، ويتداخل بعضها فى بعض، ويأخذ بعضها مع بعض[٣٩١]، فكانت فى السيرة لهجات شامية مثل (دخيلك. يفتر، حلة الروم، وريني إياه ...إلخ) .

وقد يظهر من خلال اللغة المكتوبة أن السيرة كتبت بواسطة عدة رواة. وربما قد يكون كتبت من خلال راو واحد استطاع أن يوظف قدراته الإبداعية

---

[٣٨٨] عاطف جودة نصر: الرمز الشعرى عند الصوفية – ص ٧٥.

[٣٨٩] مصطفى ناصف: محاورات مع النثر العربى، الكويت – مج – عالم المعرفة – ص ٢٠ – سنة ١٩٩٧.

[٣٩٠] الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة – ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٣ – سنة ١٩٩٤.

[٣٩١] عبد الحميد يونس، مجتمعنا، القاهرة، ط١ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٤٦، ١٩٩٨.

ويوزعها على النصوص، مفتعلاً (قال الرواة وقال الناقل. قال المؤلف قال الراوى) وأيا كان راوياً واحداً، أو عدة رواة فلا شك أن هناك اللهجات مختلفة داخل النصوص من ذلك استجارة اليهودى بشيخة فقال: (لا أستطيع أن أخبر سيدى الظاهر من خوف أن يقتلنى دخيلك يا سيدى أن تحصلنى منهم)[٣٩٢] أما لقطة (حلة الروم) فجاءت كثيرة فى النصوص منها (أما الملعون مرتين فعبر إلى مصر فوطن فى حلة الروم)[٣٩٣].

وكذلك (ورينى إياه) فى قول شيحة يطلب البنج (ورينى إياه) على اعتبار أن شيحة من غزة، أو (اطلق إياه)، (ورقدوا بجانب النار وطالق الدخنة من محمد السابق وتقدم فاطلق إياه وفيقة)[٣٩٤].

وقد يصنع الراوى صدمة فى المتلقى لاستمراره مع سرد حكايته، وربما يكرر الحدث فى قالب مكانى آخر، ولكن بلغة مختلفة، ويميل الراوى إلى استخدام اللغة العامية القريبة التى تعد أكثر إمتاعا لدى العامة المتلقين للسيرة، (فقد يكون ذلك تخفيفا من بعض قواعد الإعراب ولها وظيفة معينة لا تستطيع أن تقوم بها اللغة الفصحى الجزلة المتعارف عليها بين الأدباء، فلغة السيرة تنقل لنا صورة حية للغة الحياة فى تلك الفترة، والتعبيرات الشائعة لدى الشعب الذى أنتجها بالإضافة إلى أنها أكثر تعبيرًا عن طبيعة الناس العاديين الذين تخاطبهم[٣٩٥]، لأن اللغة العامية أكثر من الفصحى قدرة في إثارة المشاعر، ومس عواطف الجمهور بفعل تعبير تلك اللهجات عن واقعها الحياتى [٣٩٦]، فالعادات، والتقاليد حملت فى طياتها طقوساً، وشعائر لأساطير (فقدت وظيفتها العقيدية، ونحل عقدتها، وتمزقت عناصرها فهبطت إلى سفح الكيان الاجتماعى

---

(٣٩٢) السيرةم٢-جـ٣٥- ٢٢٣٢، دخيلك: شبيه بالقسم بمعنى (وحياتك)
(٣٩٣) السيرة م٤- جـ٣٥-ص٢٢١٨، حلة الروم بمعنى ، منطقة (حى)
(٣٩٤) السيرة م٤-جـ٣٥، ص٢٥٦٩، ورينى إياه، أشاهد هذا أشاهده أطلق إياه: أطلقه.
(٣٩٥) خطرى عرابى: البنية الأسطورية فى سيرة سيف بن ذى يزن. ص١٥٨.
(٣٩٦) محمد مندور: بين الفصحى والعامية فى التعبير الأدبى. طـ حوار، مج مدارس ، أبريل ص ٤٩-سنة ١٩٦٥.

فى صورة متعددة من العادات والتقاليد، كما تصبح مادة خصبة للرواية والقص وتراكم هذه الرواسب وتتجمع حالات كثيرة على أنها قصص شعبى[٣٩٧].

اللغة والرمز :

حملت السيرة القصص الشعبية رموزًا داخل نصوصها فحدث بين الراوى، والمروى له علاقة اتفاق، التقى كلاهما داخل نسيج السيرة عبر اللغة المشبعة بالرموز، فتمتعت بحالة من الاستقرار فى فكر الجماعة قبل أن نصطلح بوصفة رمزًا، وقبل أن يؤدى وظيفته الرمزية.

وهناك لفظة (يفتر) الذى سمعها الظاهر من "سنقر الرومى" يحرض جنوده على قتله، فيقول أحدهم: (نحن ملازمون ديوان السلطان يومى ما أحرمنا يفتر، ولا نتأخر عنه)[٣٩٨]. ولا شك أن هناك عبارات تركية، واصطلاحات عثمانية اقتضتها النشأة فى عهد غلب العثمانيون فيه على الوطن العربى كله، فإن فيها ألفاظا تركية سبقت لبيان جنس المروى عنهم، وصفاتهم الغالبة، كما أن فيها تعابير رومية انتقل بعضها بسبب الحروب الصليبية، وانتقل بعضها الآخر بسبب القرصنة وما يدخل فى هذا الباب أيضاً من المصطلحات الخاصة بحرفة من الحروف لبيان هذه الملاءمة، وفى بعض المواضع إسراف فى استعمال هذه المصطلحات الحرفية كالمصطلحات الخاصة بسواس الخيل[٣٩٩]، مثل كلمة أسطى وأسطوات، وطاقة، والعلاقة، ودفة للشابورة التى كان يستخدمها عثمان بن الحبلى فى مجلس الملك الصالح أيوب مداعبًا بها الحاضرين، أو رامزًا أو ساخرًا فعادة ما يلقى على المجلس السلام، والتحية ثم يقول: (باسطوات من الطاقة للعلاقة، ومن الدفة للشابورة صباح الخير الفاتحة فى صحايفك، وصحايف الذى علمك مسك الكفة، والجرة فى الإسطبل، قال الملك: احنا سيَّاس يا عثمان)[٤٠٠].

---

[٣٩٧] أحمد على مرسى: الأدب الشعبى وفنونه، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتابة، مكتبة الشباب، ط١، ص٤٦٨.

[٣٩٨] السيرة. م٢- جـ٣٥ – ص٢٢٣٢ يفتر: يهرب أو يتحرك.

[٣٩٩] عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس، ص١٠٣.

[٤٠٠] السيرة . م٢- جـ٣١ – ص٢١٦٤.

كما تشاع فى السيرة أيضاً ألفاظ رمزية عرفت من خلال تراشق معان متعارف عليها لفئة قد حددت متطلباتها من خلال مواقف ما، فسادت بينها إشارات منطوقة، وملفوظة، فكانت لديها لغة مشتركة لا يفهمها غيرها، وهى ما تعرف بلغة (السيم) التى تعد إحدى أدوات الجماعة الشعبية التى تشير إلى أنساقها المختلفة فظهرت فى مجال العمل، والسياسة، والحروب، والصراعات، وبذلك يكون لكل مجال رموزه الخاصة دون غيره، ولذا كانت هذه اللغة نسقاً موظفاً من قبل مستخدميها، وقد تنشأ جماعة ما لغة رمزية لا يستطيع فك رموزها إلا فئة مناظرة لها فى الأهداف والرؤى الوظيفية، وقد زخرت السيرة بهذه الأشكال السردية التى اتخذها الراوى طريقا لامتناع المروى له من جهة وناقلا لثقافة بعض فئات مجتمع السيرة من جهة أخرى، لذا كانت الرموز إحدى العلامات التى اعتلت الكيان السردى، التى يمكن أن نسمى مجمل ما اشتملت عليه لغة مثل (لغة الطير) (لغة الخمر) (لغة التصوف) (لغة الحرب)، والتى تعرف (بفك الشفرة)، و (لغة الدعوة).

أما لغة الطير:

وقد استهل الراوى لغة الطير فى بداية السيرة، حتى إذا هيأ المتلقى لها، ومعرفة مقاصدها ورموزها أصبح استخدامها يسير داخل متن السيرة بعامة، فهذه اللغة عبارة عن رموز بين الصالح أيوب والأغا شاهين حول رحلة الملك محمود بيبرس إلى مصر مع على بن الوراقة، مكان يرمز لبيبرس، بالطائر فإذا تعب بيبرس، فى الطريق عبر الملك الصالح أيوب عن ذلك (بأن الطير قد تعب) أو حبس، أو ضل، أو وقع الطائر فى الأسر، فهذه اللغة تمثل حالة من الشفافية وقراءة للحاضر عبر أمكنة مختلفة فكان الصالح أيوب يستقرئ تحركات (البطل) وكان على بن الوراقة له قدرة على فهم هذه اللغة فقد (سأله الأغا شاهين عن ذلك فقال يا على أنت تفهم لغة الإشارة فقال: إنى أفهم الإشارات الألسن، واللغات)[٤٠١].

[٤٠١] السيرة . م١ – جـ٢ – ص ١١٠.

وكان الصالح أيوب يتكلم بهذه اللغة للأغا شاهين رامزًا بالطيور لبيبرس، والمماليك الذين معه (يا حاج شاهين الطير نظر الطيور، وقام أعلم الطير قام الطير، وطرد الطير من القفص، وقال إذا دخلت القفص نقرتك بمنقارى قام الطير خاف منه الطير فات القفص للطير، وطلع بعيد عن الطير، ولكن لابد يا حج شاهين أن الطيور يأخذهم الطير إن كان برضا الطير، أو غصبا عن الطير وعزة الربوبية إلا يمشى كلام الطير[٤٠٢]، كما أرسل الصالح أيوب إلى عمه نجم الدين البندقدارى رسالة مفادها حماية بيبرس (الطير)، (يا بن عم العين إذا وصلك هذا فاعلم أنك تجيب الطير، وتدخله فى القفص، وتجبر كسر قلبى، وتزيل عنه الغصص، وتتحايل عليه، وتحط له العلف، والماء الكلف، وتكرمه من كل شئ ولا تحرمه[٤٠٣]، وعند عودة (الطير) يستقرئ الملك الصالح ذلك حاكيا لأغا شاهين (يا حج شاهين الطير دخل القفص، وما بقى عليه غصص، والصياد اصطاد، وهذا حكم العباد)[٤٠٤].

رموز الحرب:

ما لبثت الحروب الدائرة فى فضاء النصوص أن تتسم بالرمزية فى العلاقة بين الجيوش حتى اصطبغت برموز شتى لا يفسرها إلا أولو خبرة برحى الحرب، ودائرتها، ومن أمثلة ذلك رمز الشجرة، وما حملته من رموز، ودلالات شكلت سجالا حربيا باردا بين المسلمين، وأعدائهم.

ففى حروب بيبرس مع الملك الصمصام تدولت الشجرة بينهما كهدية تكشف ما بالجيوش من قوة وبأس فقد بعث بها ابن ملك السودان إلى ملك (البيضان) الظاهر بيبرس ترمز إلى تعداد جيش أبيه، وما أعد له ما استطاع من قوة، فالشجرة كانت من الذهب الأحمر ولها ثلاثمائة وستة وستون فرع، وكل فرع فيه ثلاثمائة وستة وستون ورقة، وجدت تحت الشجرة، وهناك شخص من فضة، وسبع من ذهب، والسبع قابض على عنق ذلك الشخص

---

[٤٠٢] السيرة . م١ – جـ٢ – ص١٢٢.
[٤٠٣] السيرة. م١ – جـ٣ ، ص٢١٣.
[٤٠٤] السيرة. م١ – جـ٣ ، ص٢٥٦.

بأنيابه[٤٠٥]، وما أن تلقى بيبرس هذه الهدية إلا وراح يعرضها على العلماء الذين قاموا بفك شفراتها فهى تمثل بلاد الحبشة، والتى بها ستة وستون إقليماً، وكل إقليم فيه ثلاثمائة وستون مدينة، وكل تخت به ملك فى قلعة بها عساكر، ورجال، وفرسان، وأبطال، وهو السبع والأسد الذي سيقبض على ملك المسلمين .

فأراد بيبرس أن يرد الهدية بأحسن منها في ثوبها الرمزي، وفي قالبها السردي الذي يعد نظاماً لرسائل الحرب، فأرسل شجرة مصنوعة من الذهب ولها ثلاثمائة وستة وستون فرعا من الفضة فى كلِ فرع ثلاثمائة وستة وستون عودا على كل عود أوراق وثمار لا تعد، ولا تحصى، وجعل تحت الشجرة شخص من حديد، وألبسه لباس ملك الحبشة وجعله مقيدًا، وجعل صورة السلطان من الفضة فى يديه حربة، وسنها فى عين ملك الحبشة، وأحضر جانبا من الدخان، ووضعه تحت رجلى ملك الحبشة، وجعل رجلى ملك الإسلام ديوك حاضرون يلتفون بمناقيرهم حسب الدخان من الأرض[٤٠٦]، فتلك الشجرة قد فسرت على أنها ترمز لجيوش المسلمين، وكأنهم الدخان، وعساكرهم كالديوك، أما ملك (البيضان) بيبرس عازم على القبض على ملك السودان ذليلاً مكبلاً بالأغلال.

كما جاءت الرموز، ولغتها معبرة عن الأنساق الوظيفية فكان لكل لغة ميزات ظهرت من خلال أنساقها، وقد استطاع عثمان بن الحبلى أن يفضى بهذه الرموز فأطلق على الأغا شاهين (أبو فرمة)، وعلى أيبك (عين القط اللقيط)، وعلى جوان (باللعين والمنقرش)، والملك الصالح (أبو قوطة)، وعلى شيحة (القصير)، أما لقب أبو فرمة فقد أطلقه عثمان بن الحبلى لاصدار الاغا شاهين سبعة أحكام (فرمانات) بالحبس ضد عثمان قبل أن يدخل فى زمرة الظاهر بيبرس. أما لقب (عين القط اللقيط) أطلقه عثمان أيضا لحذر أيبك الدائم فقد كان ينام مغمض بعين واحدة، أما الأخرى فهى متوجسة خيفة، لكثرة أعدائه، فلا

(٤٠٥) السيرة. م٤ – جـ٣٦ ؛ ص٢٤٠٠.
(٤٠٦) السيرة. م٤ – جـ٣٦ ، ص٢٤٠٣.

يحيك المكر السئ إلا بأهله، وجاء لقب اللعين، و(المنقرشى) أى المتغير دائما فى صور شتى، وبألوان لم تعرف الثبات على الأحكام فهو القاضى صلاح الدين، وهو جوان، وهو شريك أيبك فى الحيل، والمكائد، والدسائس، كما كان عثمان يلقب الصالح أيوب (بأبى قوطه)، وهذا اللقب يعد دعابة للصالح أيوب لأنه كان متخلياً عن التكلفة، والألقاب الرسمية، لذا كان بين عثمان، والصالح لغة رمزية صوفية.

ولم يلبث عثمان أن يطلق هذه الألقاب الرمزية فى عنان السرد مفصحا عنها (صباح الخير يا بو قوطه صباح الخير يا فو فرمة يا طرنطش على طرنكشيك صباح الخير يا أيبك يا عين القط اللعين، صباح الخير يا قاضى منقرشى)[٤٠٧].

لغة الخمر:

عندما يساق اللفظ على مناطق كلامية بين جماعة لها أنساقها الوظيفية المتكررة متعارفاً عليه، فتضفى به صفات تعلق به فقد يتلاشى اللفظ نفسه (كالخمر)، وتبقى صفته فقد ترمز إليه الجماعة الشعبية فى السيرة (بابن العنب)، أو "بنت العنب" (هاتوا بنت العنب فى الليل)[٤٠٨]، وقد تكون هناك لغة رمزية شفاهية مؤقتة تستخدم فى موقف ما ذات تجانس لفظى لا معنى له، ومن ذلك ما جاء فى مؤامرة من عثمان بن الحبلى ضد أيبك فقد اتفق عثمان مع عياقة على لغة رمزية، إذا تحدث بها انقضوا على أيبك، وجنوده، وقبضوا عليهم ومثال ذلك ما قاله عثمان (يا جدعان العلامة التى بينى وبينكم لما أقول طرطش تكونوا ماسكين ولا أحد منك ينفلت وإن قلت لكم ارميش تكونوا عندى جميعا)[٤٠٩].

كما توجد رموز عالقة بالعناصر الأسطورية مثل سيف إبراهيم الجورانى الذى عرف (بذى الحيات) فهو كبير الحكم أسطورى الصنعة يتلوى فى الهواء

(٤٠٧) السيرة. م١ – جـ٨ ، ص٦١٤.
(٤٠٨) السيرة. م١ – جـ٩ ، ٧١٢.
(٤٠٩) السيرة. م١ – جـ٨ ، ص٦٢٧.

كالحرباء، فكان رمز السيف ذو الحيات أقرب إلى نسقه فى كونه أداة فاعلة أصبحت جزءًا من بطلها الذى يقوم بنفس الدور.

الشعر:

إذا كان الشعر فى السيرة لا يرتقى إلى كم النثر إلا أنه لا يمكن غض الطرف عنه باعتباره جزءًا مهما فى الحكى وتفسير الحكايات، وإعادة صياغتها والتعليق عليها فى قالب غنائى مؤثر فى النفس فهو إحدى أدوات الحكى التى لا يمكن تغافلها فإذا كان النثر أداة حكى فى سيرة الظاهرية، فالشعر هو أداة الحكى فى سيرة أخرى مثل أبو زيد الهلالى. التى لا تروى إلا شعرًا فى شكله الرباعى، ومن ثم كان الشعر فى السيرة النثرية دعامة من دعامات الحكى بل إنه يكون أكثر تفسيرًا فى الحدث الذى يصفه النثر عبر جملة واحدة فيتناوله الشعر تفصيلا فى عدة أبيات مبينًا، ومفصحًا عن الموقف، فقد يكون بقية متلكئة من بقايا الشكل الملحمى الذى انحدر من الملاحم الشعرية الخالصة إلى أن أصبح جزءًا ومقوما رئيسيًا فى البناء الفنى للسير الشعبية[٤١٠]، فهو مرتبط بالنثر فى بنية السيرة المتكاملة (فلم يكن مجرد زينة وليس مجرد إثبات للقدرة على نظم الكلام، وإنما تستفيد القصة من الشعر التعبير الموحى المؤثر ويستفيد الشعر من القصة التفصيلات المثيرة الحية، فهى بنية متفاعلة، يستفيد كل شيء من الشق الآخر)[٤١١].

(فالشعر، والنثر يتدخلان، ويكمل كل مهما الآخر فكل له وظيفته، وكل له إمكاناته فى رسم الموقف، ولكن الاختلاف يكون فى الدرجة التى ترتبط بدورها بقوة انفعاله أو هدوئه حسب الموقف والأحوال)[٤١٢] فالشعر هو الذى يصور قوة الانفعال. فإذا زاد الانفعال ارتفعت النبرة، وتداخلت وتعقدت، وإذا

---

(٤١٠) أحمد إبراهيم الهوارى: نقد الرواية فى الأدب العربى الحديث، القاهرة، دار المعارف، سنة ١٩٨٣، ص٩٩.

(٤١١) عز الدين إسماعيل: الشعر العربى المعاصر قضاياه وظواهره الفنية بيروت، طـ٣ دار العودة، سنة ١٩٨١، ص٣٠١.

(٤١٢) خطرى عرابى: البنية الأسطورية، ص١٦١.

هدأت واقترب من التأمل خفت هذه النبرة، وانبسطت (فالشعر هو الجانب الذى يحكى قوة الإنفعال، والنثر الفنى هو الجانب الآخر الذى يحكى هدأة الانفعال وتقف فى منزلة بين المنزلتين انفعالات متوسطة بين العنف، والهدوء تأخذ من خصائص الشعر ومن خصائص النثر الفنى على السواء)[٤١٣]، ويتشكل رسم الشعر للحدث فى عرضه لأغراضه الوظيفية من مدح، ورثاء، وهجاء، ووصف المكان، وغزل رقراق .

أولا: رسم صورة الحدث:

دعاء، وقصة شعرية، ومن ثم يعرض الباحث الألوان التى شكلت نسقا وظيفيا للحدث، وكانت دعامة عضدت من تصور النثر، (فإذا كان النثر يعبر بالكلمات ذات السجع، فإن الشعر يعبر بالكلمات ذات الإيقاع، فكلاهما واحد من حيث الوظيفة، وإن اختلف الشكل؛ فالشعر من فنون النظم التى ذكرها المحقوق مع الموشح، والزجل، والمواليا، والكاكان، الحماق)[٤١٤] .

وقد تطرقت السيرة إلى عرض القصة الشعرية التى تقص الحدث كاملاً، فتعرض للحوار، والوصف، وتنقل القارئ إلى رسم الحدث الدقيق، (حيث لها مميزاتها الخاصة التى تعلو بها عن الشعر بذاته، فهى تهتم بالحكى المتسلسل حيث الصراع إلى ذروة الأحداث، ثم تؤول إلى الحل)[٤١٥]، ومن ثم سنعرض الوصف، الدعاء، النشيد الصوفى، الحكم، الأمثال، والقصة الشعرية.

الوصف :

انقسم الوصف فى السيرة إلى ثلاثة مجالات :

١ـ وصف المكان الأسطورى.

٢ـ وصف الشخصيات الأسطورية.

---

[٤١٣] عبد الحميد يونس: الأسس الفنية للنقد الأدبى، بالقاهرة، المكتبة الثقافية، جـ١٨٨.

[٤١٤] صفى الدين الحلى، العاطل الحالى، والمرخص الغالى، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨١ ص ١٠٥.

[٤١٥] إبراهيم عبد العليم حنفى، الأغنية الشعبية وحكايات الأولياء، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة سنة ١٩٩٨ ص ٨٠.

٣- وصف المنام أو الحلم، والنبوءة.

وصف المكان الأسطورى: قد يصف الراوى مكانا اصطبغ بصبغة أسطورية فيصور ما به من عجائب وغرائب، يسبح فيها بخياله مجسدًا المكان، وقد أضفى عليه بصورة صفة الوجود الحقيقى، وهنا يكون المكان هو بطل الحدث.

مثل بيت ابن باديسى السبكى الذى حمل نبوءة "بتخت الرمل" لبيبرس، فقد تتبع الراوى أجزاء المكان، وكل ما فيه من الذهب، والفضة، الأرائك المفروشة بالزعفران، والعنبر، والمطرزة بالحرير، الأخشاب التى جلبت من الهند، وتماثيل النحاس، ورائحتها الذكية، وسقف البيت المرصع بالجواهر، والمعادن، والمرجان، اللؤلؤ ... إلخ، فهو شبيه بكنوز سليمان فيقول[٤١٦]:

دار حوت كل المعانى	من كان صنف مثمن فانى
بها رياض قد ازهرت	وأنهار زادت الدفقانى
قد احتمكها وزير مليك	ماهر يدرى غوامض الأزمان
قد اتقن هذه بصناعة	ما حازها كسرى أنو شروان
لا ولا قيصر فى الورى	وما تشابه إلا كنوز سليمان

وصف الشخصيات:

يرسم الراوى ملامح الشخصيات من خلال أبيات من الشعر الذى يعطى مساحة أكبر من الدلالة المصحوبة بالاستعارات، والكنايات التى تؤكد المعنى وتقويه فإذا هم برسم شخصية شريرة لم يكتف بأنه شرير عنيد يعيث فى الأرض فسادا، بل يأتى بألفاظ دالة وأكثر تفصيلا ليطرب أذن المتلقى عبر الصور الشعرية المبينة لذلك، والمواكبة لما ذكره نثراً مثل شخصية العايق دحروج المرستانى الذى أرهق الظاهر بيبرس :

(٤١٦) السيرة، م١ – جـ ٢ ، ص ١٣٨ .

قليــل الــصلاح كبيــر الفــساد فــساده قــد عــم كــل العبــاد
كثيــر الــشرور علــى أهــل البرايــا كأنـــه مـــن أهـــل العنـــاد
مـــدمن الخمــر والمكـــاره جمعـــا ما حاز الأكـل لـم يدعـه مـن بعـاد
لا يخشـــى عــذاب يــوم الحســـاب ولا يخـــاف وهـــاب رب العبـــاد

وصف ما جاء به الحلم من نبوءة:

جاء إسلام الملك مرتين مصحوبًا برؤية رآها فى منامه فقد رأى أنه فى يوم القيامة حيث الناس جميعهم فى بأس، وكرب، ورأى سيد الخلق سيدنا محمد فحاول مرتين الاقتراب منه إلا أن النبى نصحه، أن يترك عبادة الكفر والطغيان فأسلم مرتين فى منامه فيحكى ذلك للظاهر بيبرس[٤١٧] :

رأيــت منامـــا فـــى بعــض يــومى والـــسعد أقبـــل لـــى وزال هـــوان
رأيـــت كـــان القيامـــة قامـــت والنـــاس كلهـــم حـــد الميـــزان
ومـــا مـــنهم إلا فـــى شــدة وبـــأس وكلهـــم عطـــا شـــئ فـــى ولهـــان
رأيـــت ســـيد الخلـــق طـــرا وإلـــى الحـــوض جـــاء بالـــتيجـان
وأقبـلت نحـــو الحــوض أبغـــى بعـــد الظمـــأ ونيـــل أمـــان
وأقبلــت أغثنـــى أغثنـــى أغثنـــى يـــا سيـــد الكــونين والثقـــلانى
فمـــا جـــاوبنى أبـــدًا بلفـــظ ولا سقـــانى ولا اعتنـــانى
بكيــت دمعـــا بـــاحتـــراق وقلــت أنـــا فـــى حيــرة المــيدان
فقـــال لـــى إن أردت النـــور حقا اتــرك عبـــادة الكفــر والطغيـــان
فأسلمـــت فـــى الحـــال جهرا علـــى المصطفتي الهـــادى إلى الثقلان

---

(٤١٧) السيرة. م١ ـ جـ١، ص ١٩٨.

قد يعلق الراوى بالشعر على تفسير الرؤية، أو الحلم، ومن ذلك ما رآه الملك الصالح لبيبرس بأن يستعد لخوض المعارك ضد الأعداء، وأن يهدم ركن الكفر فقد جاءه إذن من السماء، فيقول(٤١٨):

لقد آن الأوان لكل شىء فاسمع لما رأيت فى المنام
فقد آتاك الأذن من رب السما وقد فزت بالنظر من رب الأنام
فكن حافظا لما رأيناكه وكن واعيا ودع الملام
واسع واسع لتحصيل جيش تهدم به ركن الظلام

الدعاء:

إذا كان الدعاء قد امتزج ببعض الأغراض الشعرية السابقة إلا أنه وظيفة وسمة تخصه دون غيره من الألوان، فقد اتسم فى السيرة بالدعاء المستجاب الذى يمثل موقفا والذى يمارس لموقف، أو مأزق بعينه فيأتى على أثر عبث فى شكل ولى أو بطل مخلص أسطورى كالبراق، أو الثعبان المتكلم، أو الجان المحبوس لدى الكهان، مثل دعاء بيبرس(٤١٩) :

إلهى أدعوك بسيد الورى محمد المبعوث من نسل طاهر
أدعوك ربى بجاهه وبحبه تفرج كربى باطنا ثم ظاهر
وتسهل لى الأمور جميعها فأنت العليم وأنت نعم القادر
لك سلمت أمرى أجب دعوتى وحفنى يا خالق بالمنصر

النشيد الدينى الصوفى:

إذا كانت السيرة قد امتلأت بالمصطلحات الصوفية عبر النصوص النثرية، فقد جاد بها الشعر أيضاً، حيث وجد الراوى فرصة لأن يعرض ضرباً من الإنشاد الصوفى مستغلا اسم أحد الملوك مثل ابن الملك الهجير.

---

(٤١٨) السيرة. م٢ – جـ١٨، ص ١٢٦٣.

(٤١٩) السيرة: م٢ـجـ١١ ص٨٣٠.

مثل[٤٢٠]:

صـــــابون القلــــوب التوحيـــــد	يــــسعد مــــن عليهــــا تـــوفى
كلمــــة فـــى المـــوازين ترجـــع	للألــــــسن عليهـــــا حقـــــا
لـــو لمـــوا جميـــع الأعمـــال	فـــى كفـــه وهـــى فـــى كفـــه
والـجبــــال وثـقــــل الأرضـــيـــن	يـــا قـــوم مـــا يـــرجـع الإلاهـــى

الحكم والأمثال:

جاءت الحكم والأمثال فى الشعر كدعامة لتقوية المعنى فاستطاع الراوى أن يستخدمها فى تعليقه على أقوال الشخصيات، ومن ذلك تعليقه على افتخار بيبرس، وثقته بنفسه ليحدث نوعًا من الحوار غير مباشر بينه، وبين البطل مما يجعل المتلقى ملتصقًا وملتحمًا فى تلقيه للنص فيأتى بأبيات معروفة تحث البطل على ألا يغتر فكل شىء فان، وما كانت تحركاته إلا وفق منظومة القدر التى يمشى فى خلالها[٤٢١] فيقول:

مـــن لعـــب الثعبـــان فـــى كفـــه	هلبـــت مـــا يـــأمن مـــن لدغتـــه
ومـــن عاشـــر الجاهـــل علـــى جهلـــه	هلبـــت أن يقـــع فـــى حفرتـــه
ومـــن أعلـــم النـــاس علـــى ســـره	قـــد زحـــزوه النـــاس عـــن رتبـــه
ومـــن عانـــد الـــسلطان فـــى حكمـــه	أضـــحى قتيـــل الـــرأس مـــن جـثتـــه

كما يردف الراوى أبياتًا تبين طبيعة الأنساق الاجتماعية للجماعة الشعبية وسلوكها فكل فرد يتحمل وزر ما يفعله وقد وظف الراوى ذلك من

---

(٤٢٠) السيرة م٣ – جـ ص ١٦١٧.
(٤٢١) السيرة م٣ – جـ ٢٣ – ص ١٧٠٨.

خلال النص الذى يحكى، محاولة نفر من العياق يدعى "منصور العقاب" سرقة خزانة السلطان فكان القتل جزاء بما صنع[٤٢٢] فيقول:

القصة الشعرية:

قد يجد الراوى متعة ما فى سرد الحكاية فى قالب شعرى حتى لا يحدث مللا من خلال النثر المستمر فى السيرة وقد تكون القصة الشعرية أكثر تداولاً فى بعض السيرة الأكثر شيوعًا مثل سيرة أبى زيد الهلالى، ونجدها بصورة خاصة فى حكايات الأولياء مثل حكاية أحمد البدوى، وعلاقته مع فاطمة بنت برى، وحكاية أبو الحارث المصاغة فى قالب شعرى[٤٢٣]، فيجسد الراوى فى السيرة مراحل رحلة قام بها البطل وقد حارب الأعداء، فأسر، ومرض، ثم أنقذ من قبل الولى، ضايع الاسم، والبطل المصاحب إبراهيم الحورانى[٤٢٤].

قد فاز من توكل على مولاه ... وخاب من اعتمد على سواه
قد بلغنى الله كل مآربى ... ونلت مرادى من كل ما أهواه
وسرت معتمدًا على رب الورى ... الله تعالى لا إليه سواه
وقد طلبوا الأعادى نكبتى ... وأيدنى ربى على أعداه
فسد البحر شرقا ... وتركنى مرهونًا على حافتاه
وغدروا الأعادى بعد عهد موثق ... وطلبوا القتال فى وسيع فلاه
وخرجت ليلاً على الله معتمد ... فجاءنى فرج ما رأيت سواه
ودلنى على حاجتى فقضيتها ... وقابلت أخا فى القلب ما أحلاه
وسرت فى خفيا ونلت مآربى ... وأخفيت خصمى عن من يراه

(٤٢٢) السيرة: م٣-جـ٢٢ ص١٦٠٩.
(٤٢٣) إبراهيم عبد العليم الأغنية الشعبية وحكايات الأولياء رسالة ماجستير – كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٩٨، ص١٥٢.
(٤٢٤) السيرة. م٢-جـ١١، ص٨٣٩.

وسـرق فـى البـر سـبع مـرات	مـن أولاد اسـماعيل شـر بـلاه
وآتينـا انطاكيـة وانتـصرنا	بعـد وقـع حـروب وخربنـاه
وآتـانى حكـيم يـداوى الأمـراض	فعجبـت مـن علاجـه ودواه
وإبـراهيم فـى سـاعة مـن جـراح	كـانوا معهـا فـى مـشقة وبـلاه
وأتـانى ضـايع الاسـم حقـا	وبلغنـى كـل القـصد مـن يمنـاه
وأنـا فـى فرتمـا كـوس لـيلا	وأمرنـى ان أقاتـل أعـداه
وحـزت مـالا جـسيما وخـيلا	وأسـلت الـدما يجـرى فـى مثـواه
وأسـرت المليـك عنـدى عـزه	وأطلـت ذلـه ذدت بـلاه
وهربـت الأمـراء وسـاروا	هـاربين عنـى فـى وسـيع فـلاه
فـلا اعتنـى بمـثلهم أبـداً	فيـارب تنـصرنى علـى أعـداه
وأنـت الكـريم لمـن أطاعـك	وأنـت الـرحيم بالعبـد أن يعـصاه
يأخـذ بيـدى فـى كـل أمـورى	وتؤيـدنى بنـصره ومنـاه

قائمة بيلوجرافية للمصادر والمراجع

أولا المصادر العربية:

- القرآن الكريم .
- سيرة الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية للكتاب، ط ٢٠٠١ .
- سيرة الملك سيف بن ذي يزن، مكتبة الجمهورية العربية، القاهرة د.ت.

المصادر العربية:

١. ابن إياس، أبو البركات محمد بن احمد: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

٢. ابن حجر: أبناء الغمر، جـ٢، مخطوطة بدار الكتب.

٣. ابن خلدون، المقدمة، دار العودة، بيروت، ١٩٨١ .

٤. ابن سيرين، محمد: تفسير الأحلام الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣.

٥. ابن منظور: عبد الله بن محمد المكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.

٦. الآلوسى، محمود شكرى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٧. الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مج١، القاهرة ١٩٤٩م، ١٣٦٨هـ .

٨. الخليل بن أحمد الفراهيدى: العين، تحقيق المخزومى وإبراهيم السامرائى، الحرية، بغداد ١٩٨٤.

٩. السيوطى: بلبل الروضة، وكوكب الروضة، مخطوطتان بدار الكتب المصرية.

١٠. المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين: مروج الذهب ومعان الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣.

١١. المقريزى، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على:

١- الإلمام عما بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، دار صادر، بيروت ١٨٩٥.

٢- السلوك لمعرفة دول الملوك، لجنة التأليف والترجمة والنشر، دار صادر ١٩٥٧.

٣- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، بيروت د.ت.

١٢. النيسابورى، نظام الدين الحسن: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (بهامش تفسير الطبرى)، دار المعرفة، بيروت د.ت.

١٣. بدر الدين العينى: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق هانس أرنست، دار إحياء الكتب، القاهرة ١٩٦٢.

١٤. صفى الدين الحلى: العاطل الحالى والمرخص الغالى، تحقيق حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١.

١٥. مجلة مجمع اللغة العربية: إصدار مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٨٣.

١٦. محيى الدين عبد الظاهر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، الرياض، د.ت.

ثانيًا: المراجع

١. أحمد إبراهيم الهوارى: نقد الرواية فى الأدب العربى الحديث، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣.

٢. أحمد أبو زيد: الواقع والأسطورة فى القص الشعبى، الكويت، عالم المعرفة، مج ١٧، العدد ١، ١٩٨٦.

٣. أحمد شمس الدين الحجاجى:

١- الأسطورة في المسرح المصري المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥.

٢- مصادر الراوى والرواية في السير الشعبية والعربية والمأثورات الشعبية، قطر، ع ١٤، ١٩٨٨.

٣- مولد البطل في السيرة الشعبية، القاهرة، دار الهلال، كتاب الهلال ع ٤٨٤، القاهرة، ١٩٩١ .

٤- النبوءة قدر البطل السير الشعبية العربية، الفنون الشعبية ع ٣٥/ ٢٦، القاهرة ١٩٩٢.

٤. أحمد كمال زكى: الأساطير، دراسة حضارية مقارنة، القاهرة، مكتبة الشباب، ١٩٧٥.

٥. أحمد مرسى: (١) الأدب الشعبى وفنونه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الشباب، القاهرة ٢٠٠٢.

(٢) الحكايات الشعبية، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢ .

٦. ألفت كمال الروى: الموقف فى النص فى تراثنا النقدى، مركز البحوث، القاهرة، ١٩٩٤.

٧. توفيق قريرة: التعامل بين بنية الخطاب وبنية النص فى النص الأدبى، دار النشر، القاهرة، ٢٠٠٣.

٨. خطرى عرابى: البنية الأسطورية فى سيرة سيف بن ذى يزن، الترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦.

٩. سعيد عبد الفتاح عاشور:

١- الظاهر بيبرس، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

٢- بحوث ودراسات فى العصور الوسطى، دار الأحد البحيرى، بيروت، ١٩٧٧.

١٠. سعيد يقطين:

١- التراث السردى، المركز الثقافى العربى، بيروت، ١٩٨٦.

٢- تحليل الخطاب الراوئى (الزمن – السرد- التبئير)، المركز الثقافى العربى، بيروت، ١٩٨٩.

٣- قال الراوى البنيات الحكائية فى السيرة الشعبية، المركز الثقافى العربى، بيروت، ١٩٩١.

١١. شكرى محمد عياد: البطل فى الأدب والأساطير، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٥٩.

١٢. شوقى عبد الحكيم: السير والملاحم الشعبية، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.

١٣. صلاح فضل:

١- بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، ع ١٦٤، الكويت، ١٩٩٣.

٢- ملحمة المغازى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية، القاهرة، ١٩٩٦.

١٤. عادل جاسم البياتى: البطل الأسطوري والملحمى، مجلة أفاق عربية، ع ٩، القاهرة، ١٩٧٦.

١٥. عاطف جودة نصر: الرمز الشعرى عند الصوفية، المكتب المصرى، القاهرة، ١٩٩٨.

١٦. عبد الباسط عبد المعطى: إتجاهات نظرية فى علم الاجتماع، عالم المعرفة، ع ٤٤، الكويت، ١٩٨١.

١٧. عبد الحميد إبراهيم: قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧.

١٨. عبد الحميد يونس:

١- الأسس الفنية للنقد الأدبى، المكتبة الثقافية، القاهرة، د.ت.

٢- الأسطورة والفن والشعبى، المركز الثقافى الجامعى، القاهرة، ١٩٨٥.

٣-التراث الشعبى، كتابك، ع ١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩.

٤- الظاهر بيبرس، الهيئة العامة لقصور الثقافة سلسلة مكتبة الدراسات الشعبية، القاهرة، ١٩٩٧.

١٩. عبد الرحيم الكردى: الراوى والنص القصصى، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٦١.

٢٠. عبد الصمد زيدان: مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب، تونس، د.ت.

٢١. عبد العزيز حمودة: مسرحية الظاهر بيبرس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩.

٢٢. عبد الله إبراهيم:

١- السردية العربية بحث فى البنية السردية للموروث الحكائى، بيروت، ١٩٩٢.

٢- السيرة الروائية إشكالية النوع والتهجين السردى، نزوى، ع ١٤، القاهرة، ١٩٩٨.

٢٣. عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت

٢٤. عز الدين إسماعيل: الشعر العربى المعاصر قضاياه وظواهره الفنية، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

٢٥. على فهمى: السير الشعبية فى مصر، بعض الدلالات الاجتماعية والثقافية والمأثورات الشعبية، مج٣، ع١٠، القاهرة، ١٩٨٨.

٢٦. فاروق خورشيد:

١- أدب السيرة الشعبية، الشركة المصرية العامة للنشر لونجمان، القاهرة، ١٩٩٤.

٢- السيرة الشعبية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨.

٣- فن كتابة السيرة الشعبية، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٦١.

٢٧. فدوى مالطى دوجلاس: بناء النص التراثى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، د.ت.

٢٨. فريد ريش فون ديرلاين: الحكاية الخرافية، ترجمة دار نبيلة إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٥.

٢٩. قاسم عبده قاسم:

١- أثر الحروب الصليبية فى العالم العربى، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٨.

٢- بين التاريخ والفولكلور، مكتبة الدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة، ١٩٨٣.

٣٠. محمد جمال الدين سرور: الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره، دار الفكر العربى، القاهرة، د.ت.

٣١. محمد رجب النجار:

١- السرد والقصص فى التراث العربى بين الشفاهية والكتابية، خصائص وسمات، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٤.

٢- حكايات الشطار والعيارين فى التراث الشعبى، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ١٩٩٧.

٣٢. محمد عارف: المجتمع بنظرة وظيفية، تالكوت بارسونز، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

٣٣. محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، اللجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧.

٣٤. محمد فهمى قنديل: الطرب فى العصر المملوكى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.

٣٥. محمد مندور: بين الفصحى العامة فى التعبير الأدبى، حوار، القاهرة، ١٩٦٥.

٣٦. مصطفى ناصف: محاورات مع النثر العربى، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧.
٣٧. نبيلة إبراهيم:
١- أشكال التعبير فى الأدب العربى والشعبى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
٢- الأسطورة، الموسوعة الصغيرة، منشورات الثقافة والإعلام، ع ٥٤، العراق، ١٩٧٩.
٣- البطولات العربية فى الذاكرة التاريخية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٥.
٤- الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٥.
٥- المقومات الجمالية للتعبير الشعبى، مكتبة الدراسات الشعبية، القاهرة، ١٩٩٦.
٦- الوعى العربى ونموذج البطل، بحوث تمهيدية من الأدب العربى الوحدة العربية، القاهرة، ١٩٨٧.
٧- سيرة الملك سيف بن ذى يزن، سلسلة تراث الإنسانية، دار الكتاب العربي، ١٩٨٦.
٨- سيرة ذات الهمة، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
٩- نماذج البطولة الشعبية فى الوعى العربى، الثقافة والعلوم، الامارات، د.ت.
٣٨. نعمة الله إبراهيم: السير الشعبية العربية، المطبوعات للنشر، بيروت، ١٩٩٤.
٣٩. يمنى العيد: الراوى الموقع والشكل، بحث فى السرد الروائى، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، د.ت.

المقالات

١. أحمد شمس الدين الحجاجى:
١- الملك الصالح أيوب ولى الله المجذوب، مجلة الفنون الشعبية، ع ٢٤، القاهرة ١٩٨٨.
٢- النبوءة أو قدر البطل فى السيرة الشعبية العربية، مج الفنون الشعبية، ع ٣٥/ ٢٦، القاهرة ١٩٩٢.

٢. ثناء أنس الوجود: عبد الحميد يونس بين الظاهر بيبرس والهلالية، مج الفنون الشعبية، ع ٢٥، القاهرة ١٩٨٨.

٣. صبرى مسلم: السير الشعبية مصادر التراث الشعبى، مجلة التراث الشعبى، ع ٧٢٤، بغداد ١٩٧٩.

٤. عادل جاسم البياتى: البطل والأسطورة والملحمى، القاهرة، مجلة آفاق، ع٩، القاهرة ١٩٧٦.

٥. عبد العزيز لبيب: فن الجمالية الشفاهية، البطل والتمثيل الجمعى للتاريخ، المجلة العربية للثقافة، ع ٣٦، بغداد ١٩٩٩.

٦. فاروق خورشيد:

١- الزمان والمكان فى السيرة الشعبية، مجلة الفنون الشعبية، ع ٤٣، القاهرة ١٩٩٤.

٢- السيرة الشعبية بين الفولكلور والأدب والهدف القومى، مجلة الفنون الشعبية، ع٤٤، القاهرة ١٩٩٤.

٧. قاسم عبده قاسم: الشخصيات التاريخية فى سيرة الظاهر بيبرس، مج الفنون الشعبية، ع ١٨، القاهرة ١٩٨٧.

٨. ليث الخفاق: الأسطورة والحلم، مجلة التراث الشعبى، ع٢، بغداد ١٩٨٠.

٩. محمد رجب النجار: مدخل إلى التحليل البنيوى للسيرة الشعبية نظريا وتطبيقيا (سيرة بنى هلال دراسة حالة)، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج ٦١، ع٢، القاهرة ١٩٩٥.

١٠. محمد منصور أبا حسين: مقاربة سيميائية لمحفزات السرد والنص الباطن فى سيرة الظاهر بيبرس، مجلة فصول، ع ٦٠، القاهرة ٢٠٠٢.

١١. محمود أبو زيد: مشكلات المنهج فى التحليل الاجتماعى للأسطورة، عالم الفكر، ع٣، الكويت ١٩٨٥.

١٢. نبيلة إبراهيم: منشد الشعب، مجلة الفنون الشعبية، ع٣، القاهرة ١٩٩٧.

الرسائل الجامعية

١. إبراهيم عبد العليم حنفى: الأغنية الشعبية وحكايات الأولياء، كلية الآداب، جامعة القاهرة، رسالة ماجستير، القاهرة ١٩٩٨.

٢. أحمد على مرسى: الأغنية الشعبية فى مدينة البرلس: رسالة ماجستير مخطوطة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة ١٩٦٦.

٣. عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ماجستير، القاهرة ١٩٦٠.

٤. على شادى حسن شادى: على الزيبق المصرى، دراسة وتحليل، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ماجستير، القاهرة ١٩٨٢.

٥. غريب محمد غريب: سيرة حمزة البهلوان، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ماجستير، القاهرة ١٩٨٦.

٦. لطفى حسين سليم: الزير سالم، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ماجستير، القاهرة ١٩٩٦.

٧. محمد رجب النجار: البطل فى الملاحم الشعبية العربية، قضاياه وملامحه الفنية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دكتوراه، القاهرة ١٩٧٦.

٨. مصطفى جاد: التوظيف الدرامى للشخصيات المساعدة للبطل فى السيرة الشعبية كرمز للبطولة الجماعية، أكاديمية الفنون، ماجستير، القاهرة ١٩٩٤.

٩. وفاء على سالم: الأمم بين الملاحم والسير، دراسة مقارنة، كلية البنات، جامعة عين شمس، دكتوراه، القاهرة ١٩٨٩.

المراجع المترجمة

١. الغصن الذهبى: دراسة فى السحر والدين، ترجمة أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٨.

٢. النقد البنيوى للحكاية – ترجمة عبد السلام بنعد، منشورات محويدات، بيروت ١٩٨٨.

٣. جميس فريزر: الفولكلور فى العهد القديم، ترجمة نبيلة إبراهيم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٨.

٤. جيرار جنييت: خطاب الحكاية، بحث فى المنهج، ترجمة محمد معتصم، عمر حلمى عبد الجليل الأزدى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧.
٥. خطرى عرابى: البنية الأسطورية فى سيرة سيف بن ذى يزن، مخطوطة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة ١٩٩٦.
٦. ديفيد هينج: التأريخ الشفهى، ترجمة ميلاد المقرحى، مركز الجهاد، ليبيا ١٩٩١.
٧. رندل كلارك: الرمز والأسطورة فى مصر القديمة، ترجمة أحمذ صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦.
٨. رولان بارت: أساطير، ترجمة سيد عبد الخلق، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٥.
٩. غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسار، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٦.
١٠. فريد فون ديرلاين: الحكاية الخرافية، ترجمة نبيلة إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥.
١١. فلاديمير بروب: مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ترجمة أبو بكر أحمد باقادر وأحمد عبد الرحيم نقر، النادى الأدبى، جدة ١٩٨٩.
١٢. ليفى شتراوس: نقد منهج بروب منشور مع ترجمة كتاب فلاديمير بروب الأسطورة والمعنى، ترجمة شاكر عبد الحميد، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد د.ت.
١٣. مجموعة مؤلفين: طرائق تحليل السرد الأدبى، منشورات اتحاد كتاب المغرب، المغرب ١٩٩٢.
١٤. ميخائيل باختين: الخطاب الروائى، ترجمة محمد برادة، دار الفكر، القاهرة ١٩٨٧.
١٥. نظرية المنهج الشكلى: نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٢.
١٦. والترج أونج: الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنا، عالم المعرفة، ع١٨٢، الكويت ١٩٩٦.

المراجع الأجنبية

١-Alhaggagi, A. Sh. (١٩٨١): The Origins of Arabic Theater, General Egyptian Book Organization.

٢- Buickery, J.: Myth and Literature Contemporary and Practice, University of Nebraska Press-Lincoln.

٣- Eliade, M., (١٩٥٧): The Sacred and Profane. Translated from Frenc Willord R. Trask. New York-Llarcourt & World Inc.

٤- Kahle, P.: The Arabic Shadow in Egypt.

٥-Lane, E.W., (١٩٨٧): Arabian Society in the Middle Ages, Studies for the Thousand and One Nights, London.

٦-Lord, R. (١٩٧٩): The Hero, New York; New English Library.

٧-Malinowski, B. (١٩٢٦): Myth In-primitive Psychology, London.

٨- Rank, O., (١٩٦٤): The Myth of the Birth of the Hero. New York, Alfred; Knopt, Inc.

٩ - Ruth, F. (١٩٧٧): Oral Poetry, University Press.

١٠- Spence, L.(١٩٤٤): The Outline of Mythology, London Watts.

١١- Thompson, Stith (١٩٣٢): Motif Index of Folk Literature, Helsink.

الخاتمة

استطاع البحث أن يتوصل إلى عدة نتائج كالتالي:

١- أن يرصد العناصر التى ساهمت فى البناء الأسطورى داخل السيرة مثل الأمكنة، والأسلحة المرصودة، باختلاف أنواعها، وأشكالها.

٢- أن يدرس الأنساق الوظيفية للبطل، والأبطال المساعدين فظهر من خلالها تلاحم الأدوار والرؤى الوظيفية وتحت نسق واحد، وهو الدفاع، والجهاد، والمساندة لتحقيق هدف أسمى.

٣- دراسة النبوءة التى أثرت فى رسم شخصية البطل،وتحديد معالم وجوده فى السيرة، ورصد حركاته التى ظهرت وفق قدر ما، إما أن يكون مسجلا فى كتاب قديم مثل كتاب الزمان (للحكيم يونان)، أو أن يكون من خلال رؤية، وحلم، ومن ثم تسنى للبحث أن يتوصل إلى دراسة سيميائية للحلم، كما توصل إلى أن البطل يعد من أبطال السير الشعبية العربية المعدودين الذين تلقوا النبوءة بأنفسهم.

٤- كما استطاع البحث أن يتوصل إلى دراسة الشفاهية، والكتابية فظهر من خلالها أن السيرة فى بدايتها كانت تروى على الظاهر بيبرس، فكان يضيف ويحذف منها ما يشاء، وعندما توفى تسنى لكاتب السيرة أن يرد ما حذفه السلطان بيبرس فى حياته.

٥- كما استطاع البحث أن يتوصل إلى فنية الراوى داخل السيرة، وأسلوبه الحكائى مثل استخدامه للمقولات الحكائية داخل النصوص، التى كانت لها دور هام فى تهيئة الجو العام للمتلقى كما يناسب الحدث، والتى شكلت ديباجة خاصة اختصت لكل موقف بعينه.

٦- دراسة اللغة داخل السيرة، وتنوعها فظهرت علامات للهجات، ولغات مثل العثمانية، والتركية،والشامية بعامة، كما كان لكل فئة من مجتمع السيرة لغة مثل العياق،والعيارين، والساسة، كما ظهرت جليا اللغة الرمزية التى استخدمت فى الحروب، والمناورات، والسجال بين الأطراف المتصارعة خشية العلانية، وافتضاح الأمر.

٧- كما توصل البحث إلى دراسة الشعر، وماله من وظائف وأشكال ساهمت بدورها فى البناء الأسطورى، حيث سجل الأحداث بطريقة إيقاعية فى رسم صورة كلية للقصة .

ملحق السيرة

فقرة رقم (١)

(غدًا يأتى إليك مسعود بك بن عثمان ويعطيك المماليك بالأمان فاشترى منه ما يخلصك فوعزة ربى لم يقدر على خلافك لو أعطيته فيهم كيسا من التراب)[٤٢٥].

فقرة رقم (٢):

(كرفوا رائحة كريهة قد اطبقت ذلك المكان فتأملوه الغلمان وإذا به غلام مريض قد ألمه المرض الشديد ومضى عليه ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام من شدة المرض والاسقام وهو مرمى رمية الرخ وتحته فخ وفوقه فخ فلما رأوه المماليك سدوا أنافهم وسألوا الحمامية عن ذلك فقال أية ولد مملوك مريض وهو لرجل أعجمى من الرفض يقال له محمود العجمى وصناعته مسارع وقد أتاه هذا المرض الشديد وهو داء القصبة والتهديد فارماه فى هذا المكان فتنافروا عنه ومنهم من بصق عليه ثم دنا منه ولد من المماليك يقال له علاء الدين ورفصه برجله وشنع عليه وقال له جال الموت العاجل والبلاء النازل يا كلب المماليك)[٤٢٦].

---

[٤٢٥] السيرة – م١ – جـ٢ – ص ١٢٢.
[٤٢٦] السيرة. م١ – جـ٢ – ص ١٢٧.

فقرة رقم (٣):

(أقبل عليه وقبله بين عينيه وقال يزول عنك يا أخى ويأتى القبول وهذا لطف من الله والذى قدر به قادر على إزالته ـ فقال المملوك خذ بيدى حتى أقعد فاعتدل وتأوه وجعل يبكى على نفسه ومرضه)[٤٢٧].

فقرة رقم (٤):

فقال: ما اسمك قال (اسمى محمود فلما سمع بذلك قال فى نفسه والله إن هذا يوجد بعض أوصاف الملك الصالح). وأراد على أن يعرف الأوصاف الأخرى مثل شعرة الأسد والجدريات التى تظهر فى وجهه إذا غضب فقال على (إذا طال بك المرض وكان موتك أولى فلما سمع منه ذلك محمود تغير كيانه وامتزج بالغضب وقال له لا تعاند ربى وقدرى فبكى واشتكى وقد تأمله على بن الوراقة وإذا ظهر بين عينيه سبع جدريات ملكته من الطارقة اليمنى إلى اليسرى شعره من الأسد بين عينيه سبع من اللحم بين حاجبيه فقال فى نفسه هذه علامة ثالثة أخرى ثم إن محمود جعل ينعى نفسه بهذه الأبيات صلوا على سيد السادات[٤٢٨] :

أليس يلومنى بالكـــلام جهـــالة	منـــــه ولــــم يـــدر لحكم القدر
فـــــارجع الان عن ذنوب جنيتها	وتب واستغفـــــر لـــــرب البشــــر
ولا تعانـــــد لفعـــــل إلـــه السمـــا	فكـــل شـــئ بحكــــم الإله المقتــدر

فقرة رقم (٥):

(فقال علي للمعلم الحمامى آتنى بمحمود المسارع فحضر فتأمله علي بن الوراقة وإذا هو رجل شنيع المنظر كريه المتعلقات ـ فقال له علي: هذا غلامك.

---

[٤٢٧] السيرة. م١ ـ جـ٢ ـ ص ١٢٩.

[٤٢٨] السيرة. م١ ـ جـ٢ ـ ص ١٢٩.

قال: نعم. قال: أتبيعني إياه. قال: أبيعك إياه ولو بسرة من التراب. فقال فى نفسه والله إنها لكرامة عظيمة، ثم قال له: معي سرة مصرورة ولم أدر ما فيها وإنها مجهولة فهل لك أن تبيعني إياه بها؟ فقال له: بعتك يا سيدي فعند ذلك ناوله الصرة وأشهد عليه كل من فى الحضرة وكتب له حجة بذلك)[٤٢٩].

فقرة رقم (٦):

(فتضايق منه علاء الدين فصبر إلى جاء الليل – وقال للأمير محمود حرمتني لذيذ المنام، ثم دفعه إلى الأرض فارماه وظن أنه قد مات وأدركته الوفاة، فسأل عنه علي بن الوراقة فوجد محموداً ملقى على الأرض، كأنه سكران فظن أنه مات فأخذه على بن الوراقة وأركبه جحفة أخرى وبدأت المماليك ترميه من جحفة إلى أخرى حتى أعياه الأمر)[٤٣٠]. فازدادا حبا عند الأمير أيدمر الذى تولاه برعايته (فجعل يحادثه ويسامره ويخدمه وينيمه ويسقيه ويطعمه ومن أى شئ لا يحرمه)[٤٣١].

فقرة رقم (٧):

(يكون لكم أخا ورفيقاً وهو يدعوكم، وأنتم تدعوه من غير تفريق وقد أعلمتكم بما فى علمى ومن خالف منكم أمرى صار خصمى وشكيته يوم القيامة لجدى والسلام على نبى تظلله الغمام)[٤٣٢].

فقرة رقم (٨):

(بامرأة من نسل الأشراف معدودة من الناس الخيرين أهل الإنصاف يقال لها السيدة حسنة الدمشقية رضى الله عنها)[٤٣٣]. خرجت السيدة حسنة ذات ليلة

[٤٢٩] السيرة. م٢ – جـ٢ – ص ١٣٠.
[٤٣٠] السيرة. م١ – جـ٢ – ص ١٣١.
[٤٣١] السيرة. م١ – جـ٢ – ص ١٣٢.
[٤٣٢] السيرة. م١ – جـ٢ – ص ١٣٤.
[٤٣٣] السيرة. م١ – جـ٢ – ص ١٤٠.

تتفقد الضعفاء فرأت هذا الغلام فحن قلبها وخاصة عندما رأته يقتل الرجل العجمى الذى يعبد من دون الله آلهاً غيره مستغيثا بآلهة النار، فطلب منه محمود أن يسلم فلما رفض قتله محمود، ففرحت بذلك السيدة حسنة الدمشقية وطلب محمود منها أن تصنع له طعام الكشك ذلك الطعام الذى يحمل بادرة البنوءة فصنعت له (ذلك الكشك ووضعت فوقه ديكا كبيراً، وحملته على يدها من غير تعويق ونزلت من باب السر حتى وصلت إلى رأس محمود ووضعت الكشك فوق رأسه وتركته وعادت إلى مكانها تنظره بعينيها حتى يأكل وتأخذ الباقى من عنده لئلا يراه زوجها فيضربها لأجل ذلك)(٤٣٤).

فقرة رقم (٩):

(هذا الرجل الذى يدعى سعيد الركبدار وضربه ضربة أورثته البوار وقد وقع على الأرض يتخبط فى دماه وقد عدم الحياة)(٤٣٥).

فقرة رقم (١٠):

(فلما سمع عيسى شرف الدين باش الشام صاح بالوالى فحضر بين يديه فقال له خذ طائفتك وآتنى بهذا الولد اللئيم ـ فيرفض محمود الذهاب معهم إلا برسول مرسل من طرف الشرع الشريف ـ فأمر عيسى بنسخه من الورق وكتب فيها سطرا واحدا ـ فقرأها محمود ثم ذهب إلى عيسى ثم دعا الله عالم سره ونجواه فعلم على بن الوراقة بذلك فذهب إلى عيسى ليعود بمحمود فقال لعيسى يا سيدى هذا الغلام مملوك ابن عمك ولحمك ودمك الملك الصالح أيوب ولى الله المجذوب فلا تقتله)(٤٣٦).

(٤٣٤) السيرة. م١ ـ جـ١ ـ ص ١٤٢.
(٤٣٥) السيرة. م١ ـ جـ٢ ـ ص ١٤٦.
(٤٣٦) السيرة. م١ ـ جـ٢ ـ ص ١٥٠.

فقرة رقم (١١):

(ثم بات معه تلك الليلة عند أمه السيدة حسنة الدمشقية ولما جاء الصباح تودع أمه ومن رفاقه ومن أصحابه ومن السيدة حسنة ووالده وسار مع من دعاه)[٤٣٧].

فقرة رقم (١٢):

وكانت الليلة (ليلة سبعة وعشرين من شهر رمضان وقد نزل الرجال الثلاثة أسفل التربة وناموا ومحمود لا ينام - وإذا بأبواب السماء قد فتحت بقدرة الله وقدره وظهرت من السماء من قبله طاقة قدر القبة وهى صافية البياض على الأقدام، وسأل الله الغفران ودعا رب الأنام وقال (اللهم بحرمة هذه الليلة عندك أن تجعلنى ملكا وسلطانا على مصر والشام وسائر بلاد الإسلام، وأن ترزقنى النصر على الأعداء اللئام بحق المصطفى المظلل بالغمام أن تجعل لى كلمة تسمع وحرمة ترفع، اللهم اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا وأن ترزقنى من الشدائد النجا، اللهم اجعل بين أكتافى عزم أربعين وليا من الأولياء العظام، اللهم استجب دعوتى إنك على كل شئ قدير)[٤٣٨].

فقرة رقم (١٣):

(أمرتهم أن يكتبوا حجة شرعية متممة بأن جميع مالي، ونزالي، وما تملكه يدي ملك لهذا الغلام يفعل به ما أراد من المرام، وقد استخارت الله العظيم أن أتخذه ولدى وجعلته قطعة من كبدي، وأنتم على ذلك من الشاهدين بين يدي أحكم الحاكمين).

فقرة رقم (١٤):

فإن عليه كبطل أن يكون له سلاح فعندما بات بيبرس عند أمه حسنة الأقواسية، واستيقظ، وجد رجلا أهداه إلى باب مغار وأعطاه مفتاحا له، وعندما

---

[٤٣٧] السيرة. م١ - جـ٢ - ص ١٥٢.

[٤٣٨] السيرة. م١ - جـ٢ - ص ١٦٠.

دخل المغار، وجد جوادا فركبه، وسار به إلى باب مغار آخر فوجد (بابا من الحجر وفى وسطه حلقة من الحجر فتصايحت خدام المكان، وقالوا له ارجع أيها الضارب لئلا تحل بك المصائب، واعلم أن هذا المكان لا سبيل لأحد عليه من جميع الأنام إلا غلام يقال له محمود العجمى الخوارزمى بن القاه شاه جمك أحمد بن محمد بن مصطفى بن مرتضى بن سعيد بن رشيد بن إسماعيل بن إبراهيم بن أدهم الدمشقى، فهو الذى معدود له الدخول، وحصول المأمول والقبول، فلما سمع بيبرس ذلك صاح أنا صاحب هذا الحسب والنسب- فتقدم وتلى حسبه ونسبه- فوجد شخصا على كاهله يرقد على سرير أحمر- قال افتح الدولاب الذى أمامك ترى شيئا من العجائب وهو لت الدمشقى[٤٣٩] وزنه عشرة أرطال ما حازه قط بطل من الأبطال- لا تأخذ الأموال - ثم اغلق الباب وانصرف بجواده)[٤٤٠].

فقرة رقم (١٥):

(ورتب لهم المعاطى السنية وأعد لهم الخيول العربية وأفالهم الزمام فعاشوا عيشة هنيئة)[٤٤١].

فقرة رقم (١٦):

(يا أمى اعلمي أن لي عندك حاجة وأروم منك قضاءها من غير لجاجة فقالت له: يا ولدى ما تكون فقال لها مرادي أن أسافر مع زوج خالتي نجم الدين البندقدارى إلى أرض مصر، واتفرج عليها، وأفوز بزيارة السادات العظام وأبلغ الرضى والأمان وأعود بعد ذلك إليك مدة قليلة- فقالت له يا ولدى لا تذكر على لسانك هذا الكلام فما مصر إلا بلدة مثل البلدان، فلا تحمل نفسك الأسى

---

(٤٣٩) اللت الدمشقى: حديدة مدببة تشبه الفأس.

(٤٤٠) السيرة. م١ - جـ٢ - ص ١٧٠ - ١٧١.

(٤٤١) السيرة. م١ - جـ٢ - ص ١٧٢.

والهوان وأنت على كل حال غريب من هذا المكان ـ فقالت: والله ولدى إنى عرفت من أغراك وفى الفراق أغواك إلا نجم الدين ـ فخرجت وبكت ـ، وجمعت له الأموال فى الصناديق والملابس، وقالت: قم فإنهم طلبوا المسير وتوكلوا على اللطيف الخبير)[٤٤٢].

فقرة رقم (١٧):

يقول فيها (بسم الله الرحمن الرحيم خطاب من قاضى قضاة الإسلام التى بين أيادى بيبرس الهمام المقصود حضورك صحبة نائب الشرع والأحكام حتى تقوم عليك الحقوق الشرعية وتنظر ما يكون فى أمر هذه القضية والحذر من المخالفة)[٤٤٣].

فقرة رقم (١٨):

(فقالوا له: قد ثبتت براءة هذا الغلام، فإن هؤلاء كانوا مؤذين لكل الأنام والمؤذى طبعا يقتل شرعا، وما له من دية، فقال الملك: من الآن الوشاقية معزولون، وما يلبس آغة وشاقة إلا هذا الغلام الذي صار فيه حمية لدين الإسلام فألبسه يا حاج شاهين ليكون أغة الوشاقية، فألبسه الوزير القفطان وقال أوليتك الأغوية)[٤٤٤].

فقرة رقم (١٩):

(فلا تمنعوا أي جواد طلبه وأعطوه، وكلما أمركم بشيء فلا تخالفوه، فإن شورته شورتي وكلمته مثل كلمتي)[٤٤٥] .

---

[٤٤٢] السيرة. م١ ــ جـ٢ ــ ص ٢٠٠ ــ ٢١٠.
[٤٤٣] السيرة. م١ ــ جـ٢ ــ ص ٢٧٦.
[٤٤٤] السيرة. م١ ــ جـ٢ ــ ص ٢٧٩.
[٤٤٥] السيرة: م١ ــ جـ٣ ــ ص ٢٨٧.

فقرة رقم (٢٠):

(فقال السلطان ذات مرة للأغا شاهين إذا أردنا أن نرسل كاشفا للجيزة فلابد أن يكون رجلاً حربياً لأن هذا البدوى سطا عليها وإذا راح واحد من هنا قتله كما قتل شعبان الكردى، ولكن حتى ننظر لها واحد يصلح ونرسله فعند ذلك تحرك القاضى من مكانه وجنح طلبساته وقال دستور اتكلم بكلمة حسنة ليست بسيئة قاطبة قط قال السلطان يا قاضى أنت ما عندك إلا كل سيئة ولكن تكلم حتى نسمع كلامك فقال القاضى أن الذى يصلح بشأن الجيزة ويطهرها من الفساد إلا ابنك بيبرس ـ فأمر السلطان بيبرس بذلك وألبسه شاهين قفطان الكشوفية)[٤٤٦].

فقرة رقم (٢١):

(عند وصول تابعنا قواجو إليك توضع نفسك فى الحديد وتسلم نفسك إليه وتسير معه)[٤٤٧].

فقرة رقم (٢٢):

(وهو أحد مماليك الصالح واسمه علاء الدين البندقار ـ الذى سمع عن المملوكين الصغيرين ـ بيبرس وزميله، واشتراهما، وهو فى معتقله، ولهذا نسب بيبرس إلى أستاذه الأول، فأصبح يعرف باسم بيبرس البندقدارى)[٤٤٨].

فقرة رقم (٢٣):

(حيث كان للسيدة حسنة الدمشقية ولد يقال له بيبرس وكان عزيزا عليها وقد توفاه الله فانكسر لأجله خاطرها وحمدت ربها على ذلك فمن الله عليها بهذا

---

[٤٤٦] السيرة: م ١ ـ جـ٩ ـ ص ٦٥٦.

[٤٤٧] السيرة: م ١ ـ جـ١٠ ـ ص ٧٤٨.

[٤٤٨] سعيد عبد الفتاح: الظاهر بيبرس ص ١٩.

الغلام وجبرها وحن قلبها عليه ورحمها وكان محمودا أشبه البرايا بولدها بيبرس - فاتخذته ولداً لها وكتبت بذلك حجة أشهدت العلماء عليها فقالوا ماذا تقول يا محمود فقال أنا خادم مواطئ أقدامها ثم أنه قام وقبل يد السيدة ورأسها وأدخلته فى طوقها وسمته على اسم ولدها من وقتها وساعتها)[٤٤٩].

فقرة رقم (٢٤):

(وعندما فرغ بيبرس من كلامه وإنشاده وما قاله من مقالة ونظامه صاح الملك الصالح بسم الله ما شاء الله أظهر يا ظاهر واقصد حماهم وما عليك من أسمائهم لابد أن اليوم يخفض أسماءهم ويدثر ذاكرهم تعال يا ولدى يامحمود يا بيبرس يا دمشقى يا ابن القان شاه جملك يا ابن السيدة أنت اسمك أيش فقال له وقد تعجبت يا سيدى اسمى بيبرس فقال له اسمك الأصلى هذا أم لك غيره فقال اسمى الأصلى محمود)[٤٥٠].

فقرة رقم (٢٥):

(دخلوا مكاناً خالياً من الناس فدخلوا فيه وهو على أثرهم إلى أن دخلوا المكان فوقف الأمير خلف الباب، فلما عبروا صاح عليهم كبيرهم بلغتهم فسمع بيبرس كلامهم، وما قالوه من حديثهم وهاج كما يهيج الجمل، والولهان، وأخرج سيفه من غمده، ودخل بقلب قدمن سنديان، وقال: الله أكبر، وأراد أن يصنع فيهم الحسام وقدها جوا فى بعضهم وإذا باللعين الكبير جوان أرمى حقنة من البنج)[٤٥١].

---

[٤٤٩] السيرة: م ١ – جـ٢ – ص ١٦٤.
[٤٥٠] السيرة: م ١ – جـ٣ – ص ٢٧٧.
[٤٥١] السيرة: م ٢ – جـ١٠ – ص ٨١٠.

فقرة رقم (٢٦):

(فبينما بيبرس يطلب الفرج من صاحب الفرج ويستغيث وهو فى أشد ما يكون من البنج والأسر وإذا بالجو قد أظلم والغبار قد ثار وانحدر إلى الأعداء خيال وهو قاصد إليهم ولم يكن بأسرع ما صار فى أوساطهم وصاح بهم وضرب الأول منهم فدعاه قتيل والثانى أهواه والثالث أعدمه الحياة ـ فقال بيبرس من اسمك فقال له اسمى ضايع الاسم فعرفه وسلم عليه وقال ما اسم أبيك فقال له ضايع الاسم أيضا وقال وما اسم أمك قال ضايعة الاسم ـ ثم أن الأمير تركه الخيال بعد أن خلصه)[٤٥٢].

فقرة رقم (٢٧):

- (فعندما أغلق البيت ميخائيل البحر عند سفر الأمير بيبرس مع أصدقائه بالخيانة ضاق صدر بيبرس فصار على شاطئ البحر والليل سابل شبرة ـ وتوضأ وتضرع إلى مولاه وإذا بالبحر هاج وماج وارعى وأزبد وغار وطلع من وسط البحر فلوكة من الجريد الأخضر بمقدافين من الجريد بقنديل معلق فى وسط ذلك الفلوكة رجل مغربى ـ فقال لبيبرس اعلم أنى أنا عبد الله الفقير إلى الله الراجى عفو الله عبد الله المغاورى انزل معى ونسير إلى البر الثانى فإذا طلعت ـ تصيح وتقول أنت فين يا صاحب الوقت ـ تأتيك وتقول هات الأمانة فيأتى إليك بالبب ميخائيل)[٤٥٣].

- (يا ملك الدول أنت حصن للمؤمنين وإذا غبت من قدامهم٢ خطفهم الكفار وأما أنا يادولتى كأحد المجاهدين ثم إن المقدم إبراهيم صاح على ما قدامه من الكفار وضرب بذى الحياة ضربا يقصر الأعمار وطلب البت مغلوين تحت الغبار فقاتله وحاربه وصاحت الروم الورك الورك يعنى الأمان من سيفك يا ملك المسلمين فنادى النادى لا أمان لمن يرمى سلاحه ويدخل خلف بيرق

[٤٥٢] السيرة: م ٢ ـ جـ١١ ـ ص ٨١٤.

[٤٥٣] السيرة: م ٢ ـ جـ١٠ ـ ص ٨٣٠ ـ ٨٣١.

السلطان - فدخل الكفار تحت بيرق المسلمين - فنادى السلطان أن يرفع عنهم السيف)[٤٥٤].

فقرة رقم (٢٨):

(وإذا به سمع حس إنسان ولا يرى من يقول اصبر يا أمير المؤمنين فإن لكل شئ أوان والصبر مفتاح الفرج فصبر السلطان وسلم أمره للعلى الديان)[٤٥٥].

فقرة رقم (٢٩):

- (ما أن تم كلامه إلا والأستاذ المغاورى مقبل وهو يتضرع إلى الخالق ثم التفت إلى الكاهن روميل وقال يا عدو رب العالمين أنت على شان زواجك من ابنته أخيك وغرور جوان اللعين وتريد هلاك المؤمنين المجاهدين وكان بيده جريدة خضراء فضرب بها الكاهن فى صدره طلعت من ظهره وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار)[٤٥٦].
- (إذ بيده تحف حريد فقذفه فى البحر وقال بسم الله مجريها ومرساها على منية بولاق ملقاها فما شعر السلطان إلا وهو فى بولاق)[٤٥٧].
- (قم ياولدى هذا قضاء الله تعالى الله يحفظك بالطاقة الخفية فطلع إلى الخارج وإذا هو بالعساكر وافقة ورأى عثمان واقفا له بالعجل الأدهم فاحتار فى نفسه فقال عثمان اركب يامولانا عدوك يهلك وانت تمشى على مهلك فركب على ظهر الجواد فصفق الحصان بيديه وعلا وارتفع إلى العلى وسمع تسبيح الأملاك فى مجارى الأفلاك فقال إلى أين رايح بى يا هذا الجواد وما اسمك فى الجان فقال أنا السحاب المختطف الأسود أمرنى قطاويل أن أرميك خلف جبل

(٤٥٤) السيرة: م ٣ - جـ٢٦ - ص ٨٣٤.
(٤٥٥) السيرة: م ٥ - جـ٤١ - ص ٢٧٤٢.
(٤٥٦) السيرة: م ٣ - جـ٢٩ - ص ١٩٩٨.
(٤٥٧) السيرة: م ٣ - جـ٢٦ - ص ١٨٠٨.

قاف وهو مسيرة خمسمائة عام فابتدأ السلطان فى قراءة أية الكرسى فقال العون يا مولانا لا تحرقنى والأرض بعيدة عنك تهلك نفسك وهذا اعتراض على الله والامتثال للقضاء خير لك من الجهل فقال بيبرس أن أريد منك أن تنزلنى أصلى الفرض الذى على فقال له لك ذلك فقال بيبرس يا أخى هل الذى بقى من الطريق بعيدا أم قريب فقال باقى مائتى سنة والذى مضى ثلاثمائة)(٤٥٨).

فقرة رقم (٣٠):

(حجة شرعية متممة ويختمون عليها سائر الأكراد بأن لا يكون ملكا وسلطان بعد حياتى إلا ولدى الأمير بيبرس فكتب الحجة وقد اختمت من الملك ومن الوزير والأكراد وأعطاها إلى بيبرس بعد ذلك)(٤٥٩).

فقرة رقم (٣١):

- (وسألوا بيبرس عن السلطنة فأخبرهم بالملك المظفر وجعل يشكر لهم فى أفعاله وأحكامه ويثنى عليه الثناء الجميل فعند ذلك تغيرت وجوه الرجال وجعلوا يلوموه على التأخير ثم أن المقدم سليمان الجاموسى قال له إلى متى تؤخر نفسك عن السلطنة يا أخينا فقال لهم يا رجال والاسم الأعظم أن أنى اتسلطن بعد موت هذا الملك إن شاء الله تعالى وما سفه قولكم أبدا فلما أقسم عليهم قالوا له يكون خيرا إن شاء الله تعالى - ثم إن المقدم سليمان الجاموسى صبر إلى الليل وصاح بولده الفهد فأقبل إليه فساوره فى أذنه بأن يقتل قطز هذا الرجل الكردى وبينما فهد يقبل على قتل قطز فرآه مقتولا ولما أشيع الخبر وأصبح الصباح دخل الوزير وكل من بالدولة على الملك المظفر فوجدوا تذكرة وخط وختم بيبرس لذلك قالوا لبيبرس لأى شئ قتلت الملك ونحن عزمنا

(٤٥٨) السيرة: م ٣ - جـ٢٩ - ص ١٩٩٤ - ١٩٩٥.
(٤٥٩) السيرة: م ٢ - جـ١٤ - ص ٩٦٤.

عليك بالسلطنة من قبل فما رضيت بذلك فقال له يا وزير الزمان وحق مكون الأكوان وخالق الإنسان وعلمه البيان ما عندى خبر لذلك)[٤٦٠].

- (يا رجال والاسم الأعظم كذب كل من قال هذا المقال ثم أخذ يخرج ما معه فإذا هما برأسين وقال خذوا رأس ملككم وها هى رأس اللعين الذى قتله ها هى الأخرى. وأخرج الرأسين من كلاليب حمدانه لما عاينوا ذلك شخصوا إليه وقالوا له حدثنا يا مقدم عن هذا الأبرام قال أن البطريق الذى أرسله جوان أقبل إلى السلطان فلما وجده نائما قتله وزاح رأسه عن بدنه والأستاذ قطز يقول الله الله اللعين يتعجب من ذلك ويقول كيف يتكلم بعد القتل وسار بالرأس إلى جوان أما قطز فقد جاءنى المنام ووضع يده على صدرى وقال يا مقدم قم على حيلك خذ لى بالثأر وأحلى عن نفسى العار - فنهض ضايع الاسم من وقته وساعته وفى أثناء الطريق رأس الأستاذ قطز تذكر الله فأقبل ضايع الاسم وقتل حامل الرأس الملعون وضربه على عاتقه أطلعه يلمع من علافقه)[٤٦١]

فقرة رقم (٣٢):

(لم يحميك من هلاوون إلا ولدى الأمير محمود بيبرس، وهو الآن بمصر له كلمة تسمع، وحرمة ترفع، وأن هلاوون تحت ذله، وهو غيره بإذن الله تعالى ووصل إلى مصر، وقال لبيبرس: أن مالى ونوالى، ونوقى، وجمالى، وأولادى، ورجالى وغلمانى، وسائر مملكتى بيدى، وهو من عندى إليك هبة كريم، ولا يرد فى عطاه. وابنتى خادمة من غير مهر ولا صداق. فقال له بيبرس: جزاك الله كل خير، ولكن إذا كان ولابد من زواجي ابنتك فلي عليها شروط- هل تحفظ القرآن؟ قال: نعم - فيقبل بيبرس تاج بخت زوجة له)[٤٦٢].

---

[٤٦٠] السيرة: م ٢- جـ١٥ - ص ١٠٨٠.
[٤٦١] السيرة: م ٢ - جـ١٥ - ص ١٠٨١.
[٤٦٢] السيرة: م ٢ - جـ١٣ - ص ١٠٤٧.

فقرة رقم (٣٣):

- (لأنه تربى فى بلاد النصارى، وصار وحده يرعى الخنازير فأخذه النصارى، وباعوه خمسين دينار)[٤٦٣]

- (لذلك كان يوما مشهودا طلعت البنت من خباها، والشيخ من خلوته يتفرجون على السعيد كيف عاش بعد قطع رأسه).[٤٦٤]

فقرة رقم (٣٤):

(غلب عليه الريح فمال إلى مدينة وكانت بتلك المدينة ملكة يقال لها الملكة تيجان فنظرت من شبابيك قصرها وقالت لقبطانها اقتلوا قلاوون وجنوده اقتربت من السلطان بيبرس وكانت لها قدرة على السحر فابتعد الجنى عنها وقالت أنت بيبرس ملك العرب فقال لها نعم فقالت خذوه إلى الحمام فادخلوه الحمام فأخرجوا له بدلة تكاد أن تكون سرقت من كنز ولما طلع من الحمام ألبسته وأحضرت الطعام وأكلت معه فسألته عن غربته ووقوعه فى يد قلاوون فحكى لها على قبطاويل الساحر فأحضرت الزايرجة وضربت الرمل ثم أجلست الملك بيبرس على الكرسى وقامت على حيلها وقالت لا أبخل بروحى عليك وإن أردت زواجى فها أنا بين يديك فقال السلطان يا ملكة تيجان أما زواجك بى فما هو إنصاف لأنك بنت صغيرة وأنا حالف ما أتزوج على تاج بخت ولا أغيظها وإنما أنا عندى لك زوج جميل الصورة حسن الشيم وهو الذى بجماله أفتن بنات الروم وبنات العجم)[٤٦٥]

---

[٤٦٣] السيرة: م ٢ ـ جـ١٤ ـ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

[٤٦٤] السيرة: م ٣ ـ جـ٢٣ ـ ص ١٦٤٦.

[٤٦٥] السيرة: م ٣ ـ جـ٢٩ ـ ص ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢.

فقرة رقم (٣٥):

(رأيت كانى فى برأ قفر متسع الجهات فبينما أنا كذلك إذ نظرت فى الوادى فرأيته قد امتلأ ضباعا من الجهات، ونظرت بعينى أننى فى وسطهم فريد ـ وبينما أنا كذلك وإذا بغبار قد ثار وانكشف بعد ساعة وإذا بخمسة وسبعين سبعا قد أقبلوا من الهضاب وهم فى اعظم همة وأشد استعداد ويتقدمهم سبع عالى القدر وسيع الصدر والمحجرة له وجه مليح أشقر حلو الشمائل والمنظرة كدائرة القمر فهجم ذلك الأسد وصار فيهم كالليث إذا احتدوا وتبعه أصحابه من السباع ومازالوا فى حرب شديدة إلى أن افترسوا الضباع، وقطعوا منهم النخاع وجعلوا الأرض منهم خالية ولم يبق منهم بقية)[٤٦٦].

فقرة رقم (٣٦):

(يا ساداتنا ياعلماء الإسلام رأيت فى الليلة الماضية مناما فهل يصح فيها منام؟ قالت العلماء نعم يا أمير المؤمنين إن الليلة الماضية رؤياها صادقة لأنها السابعة من الشهر العربى والقمر فى زيادته وهو غير منحوس)[٤٦٧].

فقرة رقم (٣٧):

(يقول لكل منهما أوثق عهد بينك وبين أخيك تزول الحرمة بينكما وتصيران إخوة وأنا وربى شاهدان عليكما)[٤٦٨].

فقرة رقم (٣٨):

(فقد أخذهم المنام فرأوا فى منامهم الملك الصالح أيوب ولى الله المجذوب وهو يقول لهم: يا أولاد إسماعيل وحق الملك الجليل إن لم تكرموا عليا لأجل

---

[٤٦٦] السيرة: م١ ـ جـ١ ـ ص ٦٩ ـ ٧٠.
[٤٦٧] السيرة: م١ ـ جـ١ ـ ص ٦٨.
[٤٦٨] السيرة: م١ ـ جـ١ ـ ص ٩٢.

خاطرى ولأجل هذا الضعيف لأشتتكم فى جميع البلاد بالتعنيف وإنى أعلمكم أن هذا الغلام هو الذى شاع ذكره عندكم فى حفظ الزمام، وهو الذى يصير ملكا وسلطانا على مر الليالي والزمان، وأنكم تكونوا أهل دولته، وأصحاب عزة، ومملكته وحبايبه ورفعته، ويبقى لكم الفخر الكامل، وتلبسون أفخر الملابس، وتركبون أعظم الركايب، وتتقلدون بالشواكر الذهبية، والطاسات الكوكبية فأكرموا عليا هذه المرة ولا تأخذوا منه دينار، ولا عشرة، وانظروا إلى هذا المملوك، وعاهدوه لأجل أن يكون لهم أخا، ورفيقا، وهو يدعوكم وأنتم تدعونه من غير تفرق، وقد أعلمتكم بما فى علمي، ومن خالف منكم أمرى صار خصمي وشكيته يوم القيامة لجدي والسلام على نبي تظلله الغمام)[٤٦٩].

فقرة رقم (٣٩):

(هل لك ياولدى أن تصبر حتى أقص عليك ما رأيته فى المنام بالأمس وما فسرته ولا لأحد حكيته فقال بيبرس قولى يا أمى فقالت رأيت فى منامى الست أم القناع الطاهرة بنت النبى المختار المبرقعة الأنوار وهى سيدة السيدات نفيسة رضى الله عنها ونفعنا بها وهى تقول لى يا حبلة طيبى نفسا وقرى عينا وافرحى فرحا شديدا بخدمة ولدك عثمان عند هذا الملك السعيد فإن سعد ولك أقبل وذهب عنه الشقاء وتحول ورأيت أنت فى يدها اليمنى وولدى فى يدها الشمال ونور وجهها أضوى من الهلال فقلت لى هذا الغلام الذى عبر يمينك بيبرس محمود العجمى وسوف يكون ملكا وسلطانا ويبقى له كلمة تسمع وحرمة ترفع وهو صاحب العز والوقار والمجد والافتخار وينصبر دين النبى المختار ويهلك جيوش الكفار أما ولدك فإنه يكون له وعلى يده شأن وأى شأن فإذا أقبل إليك فى غداة غد فأكرميه غاية الإكرام وأقرى له منى السلام وإذا طلب ابنك يخدمه فدليه عليه فإنه شفوق عليه فلما انتبهت يا أمير من منامى وأنا غارقة فى

(٤٦٩) السيرة: م١ – جـ١ – ص ٩٥.

افتكارى ما أشعر إلا وأنت فى ديارى فلما رأيتك علمت أنك أنت صاحب الصورة الصحيحة والعلامة الواضحة)[٤٧٠].

فقرة رقم (٤٠):

- (وقد أخذتهما سنة من النوم وغشى عليهم) فانما فى الحضرى فرأى بيبرس السيدة قدامه وهى تقول له هذا تابعى وخديمى وأنا لم أفوته أبدا ولكن رضيت أن يكون خديمك على طول المدى ويكون سامعا مطيعا وكذلك أنت الآخر تطيع أمره فإنه صحيح النظر وأنا ناظرة إليكما بالرعاية والعناية وعلى يدك زال نجسه وانمحى وعده وأقبل عليه سعده ويكون أخوك على مقامى وتوثق بينه وبينك عهد الله قدامى والله تعالى من الشاهدين فقال لها بيبرس سمعا وطاعة ثم إن بيبرس انتبه من منامه ولذيذ أحلامه فوجد عثمان يبكى (فقال بيبرس مالك يا عثمان فقال خدمتك بقلبى ونيتى لأنى سمعت كلام المبرقعة معك وهى توصينى بخدمتك وتوصيك على وبالأمارة قالت لك انمحى وعده وأقبل سعده وثقوا عهد الله بينكما ويكون أخوك يا بيبرس)[٤٧١].

- (يا أمير لأخذتنى سنة من النوم فرأيت السيدة فى أفخر زينة وهى تتبختر فى حلل الجنة وتقول لى يا على زال عنك الفقر وألمه بإذن الملك الأكبر فانهض إلى ولدى بيبرس فى بيت أحمد بن باديس تجده قد جمع المهندسين فتكون أنت فى الجملة فيأتى إليك ويسألك فتخبره بكل ما يسألك عنه وحدثه بما فى البيت من الأمور العظام)[٤٧٢].

فقرة رقم (٤١):

(حسنة الدمشقية التى اتخذت الظاهر ابنا لها ولقبته بلقب ابنها المتوفى فقد رأت الرؤية وهى يقظة وشاركت بيبرس فيها وهو فى المنام إذ رأى الأقطاب

---

[٤٧٠] السيرة – م١ – جـ١ – ص ٣٢٠.

[٤٧١] السيرة – م١ – جـ١ – ص ٣٢٠ .

[٤٧٢] السيرة – م١ – جـ١ – ص ٤٨٩٤.

الأربعة يقدمون له الدواء بعد ما ألمه المرض ثم نام ووضعت له السيدة حسنة صحنا كبيرا من الكشك فوقه ديك وجعلت تنظره حتى يأكل أما محمود فلم يأكل وقد أجهده السقم وبينما السيدة تنتظره إذا ظهر نور عظيم يأخذ البصر السليم وعقب النور ظهر رجل عابد زاهد شكور فلما أقبل ذلك الرجل صاح بسم الله المكان خال يا عباد الله وعند النداء أقبل الرجلان وقد ضعوا الكراسى فى الجهتين ثم أتوا بكرسى كبير وضعوه فى صدر ذلك المجلس وصاح الرجل الأول وهو نقيب الرجال وهو يقول يا سادة الأرض ذات الطول والعرض احضروا ذلك المحضر كما أمر قطب الأقطاب الأكبر سيدى أحمد البدوى الشريف العلوى صاحب الإمداد النبوى فعند ذلك أقبلت الرجال كأنها الأقمار وجلسوا ذات اليمين وذات اليسار وقف النقيب بين أيديهم يمدح مرشدهم وهاديهم حتى تكامل الديوان وحضرت الإخوان ثم قالت الرجال أين السلطان وبطل الأبطال وعين كل إنسان؟ فقال لهم النقيب: تأتوا حتى يحضر باقى الأبطال ثم أخذ يمدح الرسول وبعد أن فرغ من مدحه أقبل الثلاثة أقطاب يتبعهم رجل تصفه السيرة بأنه فحل الرجال الأجواد صاحب العطايا والإمداد كثير العدل والرشاد وخادم باب سيد العباد وبيده قضيب خيزران ما فيه اعوجاج بين يديه المنادى ينادى يا أبا فراج وليس)[٤٧٣].

فقرة رقم (٤٢):

(إن الوادى الأفقر هو دين الكفر وقد أنقذك الله منه، وأما الوادى الأخضر فهو دين الإسلام، وكذلك الذبابة السوداء وهى دين الكفر وقد خرجت ظلمة الكفر من قلبك، والذبابة البيضاء التى راحت فى فؤادك هى كلمة الإخلاص يا سعد من توفى بها فوضعوا جميع الأكوان فى كفة، وهى فى كفة ما رجح إلا هى، وهى قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأما السفينة فهى سفينة النجاة،

(٤٧٣) السيرة – م١ – جـ١ – ص ١٠٣.

وأما الطير الذى هو من أعلى الشجرة هذا رجل كبير من رجال الأشراف يتزوج بك فى الحال وتأتى منه بذرية صالحة ولكن تربى بعيد عنك)[٤٧٤].

فقرة رقم (٤٣):

(العفو يا ملك الإسلام من شيم الكرام وأنا لا يمكن إن أقاومك فى حرب ولا نزال ولا طعن ـ فقال الملك لابد من ذلك فلا تخالفنى ثم أن بيبرس ركب جواده على مضض منه ـ فقال الملك يا دايم وأشار إلى بيبرس وإذا ببيبرس غاب عن الوجود فى صنفة مفقود فى صفه موجود وقد رأى من ذلك عجب عجيب وأخذته سنة من النوم فرأى نفسه كأنه فى وادى أحقر أفقر ما فيه من الماء قطرة وقد أصابه العطش من شد حر ذلك الوادى حتى كاد أن تزف روحه وقد حصل له من ذلك ضيق عظيم ـ فكلما يمشى فى ذلك البر يشتد عليه العطش والحر وهو يستغيث فلا يغاث فبينما هو كذلك وإذا قد ظهر له سبع غضنفر قدر الثور الكبير وهجم على بيبرس يريد قتله فأراد الأمير أن يطلبه بالسلاح فلم يجد من السلاح شيئا معه قد طمع الأسد فيه فأراد الأمير الصعود إلى راس الجبل وإذا بالوادى قد امتلأ بالماء حتى عم الأرض جميعها ووجد نفسه فى وسط ذلك الماء وكل ما. أراد التخلص يجد الماء قد زاد عليه فالتجأ إلى جانب الجبل وتضربه الأمواج فتقطع منه قطع كبيرة مثل الأمواج وهو يتهايل عليه حتى إنه يريد أن يقع عليه بقصد التخلص من ذلك الهول المهين إلى جهة اليمين وإذا بنار قد اشتعلت فيه فهرب من النار إلى جهة اليسار فرأى ذلك البحر قد طغى وفار فعاد إلى خلف فرأى الجبل وهو يتهايل فعاد إلى قدام فرأى الأسد الضرغام فلما أعياه الأمر وزاد به الضرر فما وجد حيلة إلا الدعاء إلى مولاه فلما فرغ بيبرس واستيقظ من المنام أشار عليه الأستاذ الملك الصالح أيوب بيده فأفاق وهو يقول قولا عدلا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله أنا فين فقال الملك أنت عندى

(٤٧٤) السيرة ـ م١ ـ جـ٢ ـ ص ٨٢.

يابيبرس أخلى السبع والجبل يقع عليك أو البحر يغرق عدوك أو النار تحرق ضدك فقال يا سيدى أرجو منك السماح فقال الملك سامحك الله)[٤٧٥].

فقرة رقم (٤٤):

(فرأت الصالح فى نومها وقد زاد عليها فى اللوم وهو يقول لها يا فاطمة تطفى عرضك بالحسام الذى تريه داخل الماء فى المغطس فكل شئ له سبب من الأسباب فأفاقت من نومها ومدت إلى الماء يدها فوجدت الحسام فى قرارها فأخذته وهجمت على أيبك التركمانى وضربته بيدها وما عنده شئ يلتقى عليه ضربتها بل إنه أراد أن يحوش عن نفسه بيده اليمنى فجاء الحسام فيها فسقطت على الأرض فصاح بملء رأسه ارجعى عنى يا فاجرة يا من على تلك الفعال قادرة فضربته الثانية فوقت الضربة على هامته فوقعت رأسه قدامه فصاح صيحة مزعجة)[٤٧٦].

فقرة رقم (٤٥):

(يا مولانا السلطان أنا عارف بتأويل هذا الحلم وقد ورد فى كتاب اليونان من قبل أن أعرفك) فأخبره شيحة بأن السلطان سيواجه الأعداء الكفار ويفقد أربعة من جنوده الأقوياء فقال إنك رأيت فى منامك أنه فى البر الأفقر فقال الملك بيبرس صحيح يا أخويا ثم أنك رأيت ذلك الوادى قد امتلأ عليك خنازير فقال ثم أنك رأيت أربع سباع خرجوا من الجهة المصرية وقاتلوا ذلك الخنازير فواحد منهم تضايق فألقى نفسه فى البحر والثانى غطس ما بان كأنه ما كان والثالث رأيته وقع تحت أرجلهم والرابع قطعوه بأظافرهم وأنيابهم فتضايقت أنت من ذلك وغرقت فى بحر من العرق وأوقعت بعد ذلك رأيته منام فهذا الذى رأيته فى منامك من غير زيادة ولا نقصان والعلم عند الله فقال الملك يا أخويا

---

[٤٧٥] السيرة – م٢ – جـ١٢ – ص ٧٩٢.

[٤٧٦] السيرة – م٢ – جـ١٥ – ص ١٠٧٢.

وحياة رأسى هذا الذى رأيته بعينى ولم أغير منه ولا حرف ولكن هذا المنام ما الذى يدل عليه فقال له هذا يدل على فقد أربع من أنفار الظاهرية فى الغارة مع الكفار بعيدا عن هذه الديار وإذا أردت أن تكفى شر هذا المنام لا تكتب كتابا إلى بلاد اللئام ولا تستقبل منهم كتاب ولا هديات ولا كلام مدة سبع شهور وسبع جمع وسبع أيام)[٤٧٧].

فقرة رقم (٤٦):

(وعندما استيقظ بيبرس وصل إلى باب الفتوح فلقى غلاما خياطا فى دكانه فقال له السلام عليكم فقال الخياط وعليكم السلام اقعد يا سيدى حتى أقضى حقوق الناس ثم إنه طلب واحد من جيرانه وأطلع الشغل الذى عنده وقال له يا أخى أنا مسافر فى هم دعيت إليه وأنت يا أخى تعمل معروفا وتأخذ منى هذه الأشغال وتسلمها إلى أصحابها هذا لفلان وهذا لفلان وهذا مفتاح الدكان إذا حضرت زوجتى تسلمه لها وخذ هذه التذكرة وقل لزوجتى تطلع بها إلى الملك الظاهر بكرة فى الديوان فإن لى عنده أجرة خياطة ـ ثم أنه قام صحبه الملك الظاهر وقال له خذنى وادخل به إلى قاعة الجلوس فقال السلطان وهو كذلك وسار معه حتى دخل قاعة السلطان الظاهر بيبرس والخياط فلما قعد بيبرس الخياط طلب من السلطان مراية فوضعها بين يديه وطلب ملابس السلطان فلبسها هذا وقاعة الجلوس مقفولة وما أحد يدخل فيها وبدأ يصلح عمامته وهو ينظر إلى السلطان وينظر فى المراية حتى تصور فى صورته وبعد ذلك قال لملك الإسلام قم من مكانك وانظر محلا اختفى فيه بشرط لم يعلم بك أحد ولا حريمك ولا أنا حتى تتم المحنة وبعد خمسين يوما بيبرس الخياط قد بنى له السلطان جامعاً وفى اليوم الواحد والستين ظهر بيبرس الخياط وتكامل الديوان وجلس على الكرسى أما العدو سيرون اللعين الراهب أقبل فرأى الملك جالسا

---

[٤٧٧] السيرة ـ م٢ ـ جـ١٧ ـ ص ١٢٥٦.

ففرح واطمأن فجذب سيفه الذى هو سيف الإخفا وضرب بيبرس الخياط فأطار رأسه فارتج الديوان وما أفاقوا إلا والسلطان جثة بلا رأس)[٤٧٨].

فقرة رقم (٤٧):

- (يا ولدى اعلم بأن خلاص الإسلام ونصرتهم على يديك وأن الكهين يأتى هذه الليلة يدور على سيدك فخذ من تحت رأسك لوح أصفر علقه فى رقبتك فهو مرصود وإذا فيقك اللعين اقبض عليه)[٤٧٩].

- (رأيت نفسى قاعدا فى بستان وذلك البستان فيه أشجار وأثمار وأطيار والشجر طارح من جميع الزهورات وأنا قاعد على التخت فانقض على طير أسود أكلح اللون وأخذ التاج من على رأسى وطلع به سبع درجات واحدة فوق واحدة فجاءت طيرة تشبهه فى الخلقة وقد تسارعت مع ذلك الطير فأراد الطير أن يكسرها فارتجفت منه وارتخت أعضاؤها وإذا بسبع مقبل ضرب الطير فى رأسه ورماه فأخذت التاج ثانيا وصحت فانتبهت)[٤٨٠].

- (فقال يا ملك الإسلام أما البستان فديوانك والأزهار والأشجار عسكرك والأثمار إيراد مملكتك وأما التاج فهو ملكك والطير الذى أخذه فإنه يأتيك رجل نصرانى يأخذ مملكتك ويحكمها إما سبع ساعات أو سبعة أيام أو سبعة أشهر أعوام وأما الطيرة التى تأتى تجادله فإنها حرمه ومن نسله ويهديها الله للإسلام وتتعب منه وإما السبع فهو من أولياء الله تعالى يعاونك عليه وتأخذ ملكك من يديه ولكن بعد المدة المذكورة)[٤٨١].

---

[٤٧٨] السيرة – م٣ – جـ٢٦ – ص ٨٠٢.

[٤٧٩] السيرة – م٤ – جـ٤٠ – ص ٢٦٠٩.

[٤٨٠] السيرة – م٣ – جـ٢٩ – ص ١٩٨٤.

[٤٨١] السيرة – م٣ – جـ٢٩ – ص ١٩٨٥.

فقرة رقم (٤٨):

(ابنى لك بيت تأوى إليه إذا رحلت من الفانية إلى الباقية) وعندما استيقظ من نومه ظن أن أجله قد اقترب لذا فكر أن يبنى له قبرا (فاحضر مهندس باشة وأمره أن يصنع له مدفن فى دار العقيق)[٤٨٢].

فقرة رقم (٤٩):

(فقد أخذته سنة من النوم فرأى الخضر عليه السلام وقال قم تجد ملك الإسلام وخلصه من جوان والبرتقش وأولاد اللئام فقال إبراهيم وأين يا سيدى فقال على طريق الرملة قاصد بهم بلاد الروم)[٤٨٣].

فقرة رقم (٥٠):

- (فراى فى منامه أنه سار إلى بولاق فرأى البحر علا وعلت أمواجه وساحت مياهه وعلت وتصاعد الماء بالفوران والعلو حتى علم على مصر وزاد فى العلو حتى غرق الأصوار ودخل مصر حتى عم شوارعها وتصاعد الماء حتى غطا موادن الجوامع فصاح السلطان يا غياث المستغيثين يا سيد المرسلين يا أمان الخائفين وإذا بالدنيا أبرقت وصار البرق ينزل على الماء يلحسه حتى جف جميع الماء كثيرة وقليله وعاد البحر إلى محله فأفاق السلطان من منامه)[٤٨٤].
- (أما زيادة البحر وعلو الماء فهذا حصار للبلاد وجور أعداء وأضداد وركوبه على المآذن يخشى عليك منه فإن لم يكن أعلا من مقامك فإنه يضاهى

---

(٤٨٢) السيرة – م٥ – جـ٢٧ – ص ٣٠٤٠.
(٤٨٣) السيرة – م٥ – جـ٤٣ – ص ٢٩٠٤.
(٤٨٤) السيرة – م٥ – جـ١ – ص ٢٩٠٨.

الموائن فى الارتفاع وأما البرق الذى أتى ورد فى الماء فإنه فرج قريب من عند رب السماء خلق النور والظلما)[٤٨٥].

فقرة رقم (٥١):

(رأيت يا ملك الإسلام رجلا اختار يخبرنى أن أدخل فى دين الإسلام، وأمرنى أن أذهب إليك وأخبرنى أنك تدخل الكنيسة بلا رفيق، واخبرنى أنه الملك الصالح أيوب وأخبرك يا ملك الإسلام إنى قد أسلمت على يد الملك الصالح وأعلمتك بذلك هل فى جنتك مطمع أن تعطينى هذه المدينة أفتحها للإسلام فقال السلطان خذها يا وزير مرين)[٤٨٦].

فقرة رقم (٥٢):

(فقالت فى هذه الليلة وأنا نائمة رأيت أمى وهى مجرورة من شعرها إلى أبواب النيران ولابسه ثوبا من قطران والنار تلهما وتحرق أعضاءها وهى تريد أن تأخذنى معها وإذا برجل كبير شايب على وجهه أنوار أخذنى غصبا وقال لى يا بدور وأنت من أهل السعادة قولى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله فقلت فقال بقيت من أهل الجنة ونجوت من عذاب النار وأما أمك فسبقت لها الشقاوة من قديم وكتبت من أهل الجحيم وقتلها طود البحرين جمال الدين وانفكت الأسحار عن المسلمين فبادرى الأمراء قبل فوات الأوان وقومى وانزلى على الملك "عرنوص" وأسلمى على يديه).

فقرة رقم (٥٣):

(طلعت للديوان وقبلت الأرض وقالت يا ملك الإسلام أنا رأيت فىَ منام فى هذه الليلة وأريد أن تحضر لى أهل العلم حتى أقصها عليهم فقال لها السلطان

---

(٤٨٥) السيرة – م٥ – جـ١ – ص ٢٩٠٩.

(٤٨٦) السيرة – م٤ – جـ١٢ – ص ٢٢٤١.

احكى منامك وهؤلاء العلماء فقالت رأيت الدكة والحساب ونصب الصراط وسارت النصارى تساق إلى جهنم ورأيت ملك المسلمين ساير وجماعته خلفه إلى الجنة فقلت يارين المسلمين خذنى معك فقال لا تبتغى إلى المسلمين فأسلمت على يديه وأعطانى إلى واحد من أتباعه وقال لى هذا يوصلك إلى مرتبتك فى الجنة فانتبهت على هذا الحال وأتتيت إليك لأسلم على يديك)[٤٨٧].

فقرة رقم (٥٤):

- (ظهر منها سيدى عبد الله المغاورى قال له اعلم أن البطرانى مراده أن يسافر سفرا بعيدا وأنت ياظاهر كنت جاعله خديمك فلابد أن تودعه وها أنا فى الإسكندرية مقيم حتى تأتنى وأروح معك وهات شيحة معك) وعندما استيقظ السلطان ذهب لشيحة ليحكى له الحلم فقال شيحة (وأنا رأيت مثلك ولا شك أن البطرانى قد أصابه عارض فقوم يا مولانا نروح الإسكندرية وركب السلطان وشيحة وراحوا الإسكندرية فالتقاهم المغاورى وقال لهم انزلوا معى فى السنورة فنزلوا وقال بسم الله مجراها إلى اللاذقية مرساها فسارت إلى اللاذقية فوجدوا البطرانى توفى على فراشه فدفنوه)[٤٨٨].
- (وقال أنا مرادى أن تدفنى يا ملك الإسلام فى هذا المكان ثم أن المغاورى جلس فى وسط الجزيرة واضطجع وأحسن الشهادتين وهو يشير بأصبعه إلى السماء متجها إلى القبلة وخرجت روحه كنسيم الرياح).
- (رأى فى منامه أنه واقف فى الميدان الأخضر ووجد الناس مجتمعين على رجل واحد وذلك الرجل ضعيف والناس حوله ينظرونه والملك الصالح من جملة العالم فتقدم الظاهر وقبل يد سيده الصالح وقال له يا سيدى من هذا وايش هذا الخلايق فقال له هؤلاء أولياء الله الصالحين وهذا الرجل فهو صديقك شيحة)

---

[٤٨٧] السيرة – م٤ – جـ٣٥ – ص ٢٣٧٦ ، ٢٣٧٧.

[٤٨٨] السيرة – م٥ – جـ٤٣ – ص ٣٠٧٢.

- (وجد الناس يهرعون إلى الميدان الأخضر فسار معهم فوجد شيحة ضعيف راقد ملتقى فى دلق من شعر الدب فجلس على رأسه ونظر إليه وتذكر أيامه التى مضت وقال له سلامتك يا مقدم جمال الدين ففتح عينيه إلى الظاهر وقال له الحمد لله يا أخى الذى أرسلك الله لى وأنا لى زمان انتظرك ولما أعيانى الأمر أرسلت لك ابنى وهو الذى أخبرك بأنى فى دمياط فيا ملك الإسلام اصبر حتى تخرج روحى على الإيمان وادفنى فى هذا الميدان الأخضر وسمينى جمال الدين العجمى وادفنى فى موضعى هذا ثم أنه أحسن الشهادتين وانعدل إلى القبلة وخرجت ورحه فبنى السلطان له مقاما ودفنه ورسم عليه ترسخانة سلاح)[٤٨٩].

- (فقد رأى عرنوص فى بستان وله أجنحة ويريد الطيران فلم يهين على أن أتركه يطير فوضعته فى قفص كبير وأمنت عليه فرأيت طيور سود بكثرة داروا حوله، فأردت أن أطردهم عنه فانشغلت أنا ببعضهم وبعضهم سلكوه فما لحقت أن أدركه حتى أن الطيور مالوا عليه وقطعوه)[٤٩٠] كذلك رأى عرنوص أباه معروف فى الحلم يقول له (يا ولدى أنا مشتاق إلى رؤيتك فى تحرمنى من زيارتك فقلت له يا أبى وأنا أيضا متعلقة أمالى بنظرك ولكن من أى طريق أوصل إليك ولأقيم معك فقال لى يا عرنوص طريق الجهاد فقلت له أقيم معك وأترك حريمى وأولادى فقال لى أما أولادك فيتبعوك وأزواجك كذلك يأتوك ولك عندى أزواج غيرهم مقيمون ينتظروك انظر بعينك أن أكانوا يعجبونك فالتفت فرأيت عصابة من النساء واقفين صفين صفٌ على يمينى وصف على يسارى وبأيديهم كاسات وطاسات وأطباق من البلور وهم تارة يلعبون وتارة يضحكون يثمايلون وبجمالهم وحسنهم يتعاجبون فقالت يا أبى وهؤلاء البنات من أى أولاد الملوك فقال لى بنات الحور فلا تتأخر عن القتال فتفوتك لذة الوصال فقلت له وأنا أقاتل من فقال قاتل الكفار الملحدين أعداء الله ورسوله ثم أنه ضمنى إلى صدره وقال لى

---

(٤٨٩) السيرة ــ م٥ ــ جـ٤٣ ــ ص ٣٠٧٤.

(٤٩٠) السيرة ــ م٥ ــ جـ ٤٣ ــ ص ٣٠٧٥.

عد اقضى أشغالك وها أنا مقيم فى انتظارك فانتبهت وأنا مشغول برؤية أبى)[٤٩١].

فقرة رقم (٥٥):

(فرأى عثمان فى منامه يقول له الحقنى يا جدع وابن لى جامعا اندفن فيه، فلما استيقظ ذهب إلى عثمان سائلا عنه، وما قد حل به من كرب. فوجد عثمان مريضا وأمره أن يبنى له جامعا، وأوصاه بأن يدفن بجوار نجم الدين البندقدارى (حتى يكون صاحبى هنا وهناك)[٤٩٢].

فقرة رقم (٥٦):

(بحرمة هذه الليلة عندك أن تجعلنى ملكا وسلطانا على مصر والشام وسائر بلاد الإسلام أن ترزقنى النصر على الأعداء اللئام)[٤٩٣].

فقرة رقم (٥٧):

(ينصره على جميع الأعداء ويذل العتاة وعبد القادر الجيلانى دعا له بعلو القدر)[٤٩٤].

فقرة رقم (٥٨):

(قال يا سيدى ما أنت من عباد الله الصالحين فقال له يا رجل أنا الفقير إلى الله تعالى عوف أبو اللطيف فقال له سألتك بالله إلا ما دعوت لى فقال له الله

---

(٤٩١) السيرة ـ م٥ ـ جـ٤١ ـ ص ٢٧٥١.
(٤٩٢) السيرة ـ م٥ ـ جـ٤٨ ـ ص ٣١١٨.
(٤٩٣) السيرة ـ م١ ـ جـ٢ ـ ص ١٥٠.
(٤٩٤) السيرة ـ م١ ـ جـ٢ ـ ص ١٤٢.

ينصرك على الأعداء ويعمر بك البلاد ويرشد بقدومك العباد ففرح الأمير بهذه الدعوات وانصرف)[٤٩٥].

فقرة رقم (٥٩):

(بأن من تسلطن قبل ولدى بيبرس لا يموت إلا قتيل)[٤٩٦].

فقرة رقم (٦٠):

- قال[٤٩٧]:

يا من له الملك والملكوت قاطبة	وهو الكفيل لجميع الخلق يكفيها
يا من يرانا وليس غائبا عنا	ونرتجيه فى رزايانا ليحمينا
يا ربنا مولانا وسيدنا	وعالم السر والنجوى وما فيها
ضاقت بنا كل أسباب ونحن كما	تعلم أسارى وقادتها أعاديها
ولا لنا ناصر نرجو الخلاص به	فالخلق لا تلتجى إلا لباريها

فقرة رقم (٦١):

- (اطلب الفرج من الله لنا ولك لا نفسك أنت أطهر من أنفاسنا جميعا فرفع السلطان قامته إلى السماء وقال اللهم إن أسألك يا عظيم العظماء يا من بسط الأرض على تيار الماء يا بقدرته رفع هذه السماء يا من علم آدم الأسماء يا حكيم الحكماء إلهى أنت المدعو بكل لسان أنت الحاضر فى كل مكان يا من لا يعتريه عجر ولاهم ولا يغيره الزمان عجزن جميع الخلائق عن إدراك شئ من بعض ما يحيط بعلمك ـ أسألك بحق دين الإسلام وبكل آية من كتابك

(٤٩٥) السيرة ـ م١ ـ جـ١٠ ـ ص ٧٣٢.
(٤٩٦) السيرة ـ م١ ـ جـ١٣ ـ ص ١٤٩.
(٤٩٧) مرازيها ـ مصائبها.

الذى أنزل على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم أن تنقذنا من هذا الكافر وتكون لنا ناصر فإنك أنت العظيم القادر القاهر)[٤٩٨].

- (فطارت وتصاحت أعوان الجان وقالت لبيبرس كتر الله خيرك فانك أرحتنا من خدمة هذا الجبار)[٤٩٩].

فقرة رقم (٦٢):

- (يا رب اصرف عنى الهم والغم كله أرسل لى فرجا غير ذاهب وكف عنى هذا اللعين وكيده وابليه بالمصائب أنى توسلت إليك بخير الورى طه رسول الله الحبيب الغالب)[٥٠٠].

- (فاستجاب الدعاء وراح العدو يتخبط إلى أن وقع قتيلا على الأرض فصرخ صرخة مرعبة أدوى منها البر الأقفر وقال فى صراخه وأى كأنه الليث الغضنفر فتأمل الأمير رأى العين ووقع على الأرض قتيل وفى دماه جديل يختبط بيداه ورجلاه وبعد قليل بطل حسه وخمد نفسه وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار)[٥٠١].

فقرة رقم (٦٣):

(فإنه لما ضاق صدره لما علم بخيانة هؤلاء الكفار فسار إلى شاطئ البحر سابل - وتوضأ وصلى ركعتين وتضرع إلى الله تعالى بالدعاء: اللهم أدعوك بسيد الورى - لك أسلمت أمرى أجب دعوتى وحفنى يا خالق بالنصر - أنت تعلم الأمور جميعها أنت الذى تكشف البلوى للصابر أنت تنقذ الغرقا من كل شدة وسط البحور الفجاج الزواخر أرسل لى يا رب من يعينى ويعيينى على ما أريد يا قادر وإذا بالبحر هاج وماج وارغى وأزبد وفار وطلح وسط البحر فلوكة من

---

[٤٩٨] السيرة – م٤ – جـ٣٥ – ص ٢٣٨٢.
[٤٩٩] السيرة – م٤ – جـ٣٠ – ص ٢٣٨٤.
[٥٠٠] السيرة – م١ – جـ١٠ – ص ٧٤٣.
[٥٠١] السيرة – م١ – جـ١٠ – ص ٧٤٥.

الجريد الأخضر بمقدافين من الجريد بقنديل معلق وفى وسط ذلك الفلوكة رجل مغربى وهو يقول بلغة المغاربة أنا كلى فى الشرق وحالى فى الغرب وقال أنا العبد الفقير إلى الله عبد الله المغاورى)[٥٠٢].

فقرة رقم (٦٤):

(جاتك داهية من عند الله ولكن مدركاك فيها الألطاف - أدركيه يا مبرقعة الأنوار)[٥٠٣].

فقرة رقم (٦٥):

والله لـنا عونـا ورجـا	وعيانـا إذا ضـاق الحرجا
يـا خـالقنـا يـا رازقنـا	يا مـن الجميع الخلق رجا
وقلوب تشهد بأنك حق	بصـدق مثبـوت الحججـا
يـارب أجرنا من ضيق	وافتـح لنـا ربـى فرجـا

أما الدعاء بالهداية للإسلام فقد دعا للملكة ماريا بنت البيت ميخائيل التى كانت تزف لدوفش فمرضت وبعد مدة طويلة دخلت الإسلام [٥٠٤].

فقرة رقم (٦٦):

- (سبحان الله الذى خلقها من ماء مهين وجعلها فتنة للناظرين ثم قال اللهم يا رباه أسلك بحرمة النبى المنتسب سيد العرب والعجم صاحب الحوض واللواء المعقود أن تهدى هذه الصورة إلى دين الإسلام وعبادة الملك العلام)[٥٠٥].

---

[٥٠٢] السيرة - م٢ - جـ١١ - ص ٨٣١.

[٥٠٣] السيرة - م٢ - جـ١١ - ص ٨٣٤.

[٥٠٤] السيرة - م٤ - جـ٢٤ - ص ١٧٢٢.

[٥٠٥] السيرة - م٤ - جـ٢٤ - ص ١٧٢٤.

(مطية لم تركب ولؤلؤة لم تثعب تملا بجمالها الفتان)[٥٠٦].

فقرة رقم (٦٧):

(يا ظاهر سلط الله عليك العمى كما أنك تهين أهل الفضل والعفاء)[٥٠٧].

فقرة رقم (٦٨):

(أنا ذاهب من الشام ولكنك يا ملك الإسلام تأتى مرتين وهذه هى أخر مرة)[٥٠٨].

فقرة رقم (٦٩):

(فبينما هو مريض إذ دخل عليه رجل رمال وسلم عليه وقال يا سيدى أنا أدلك على ما فيه الصلاح والرشد والنجاح فقال الأغا شاهين أيها الرمال قل وأخبرنى بما تريد من المقال فعند ذلك ضرب الرمل وحققه وبين أشكاله ودققه وقال اعلم يا سيدى أنه قد بان لى فى الرمل أنك تسافر من هناك إلى أرض يقال لها مصر وفيها بقعة يقال لها البساتين اجلس فيها ثلاثة شهور بها رجل يهودى لابد أن تقضى عليه)[٥٠٩].

فقرة رقم (٧٠):

(فقد قام مرين مع السلطان لإفساد درب رمل سيرون فاحضر مرين طشتا وملأ الطشت دما من خروف ذبحه، وكفاه فى وسط الطشت وأوقف الملك عليه وجاء له بغربال ووضعه فوق رأسه وقال له كن هكذا حتى آتيك)[٥١٠]

(٥٠٦) السيرة – م٤ – جـ٢٤ – ص ١٧٢٥.
(٥٠٧) السيرة – م٥ – جـ٤١ – ص ٢٧٧٧٠.
(٥٠٨) السيرة – م٥ – جـ٤١ – ص ٢٧٨٥.
(٥٠٩) السيرة – م١ – جـ١ – ص ٥٤.
(٥١٠) السيرة – م٣ – جـ٢٠ – ص ١٧٩٤.

فقرة رقم (٧١):

- (يا أبانا إن ملك الإسلام ابتلعته سمكة هايشة وهو فى جوفها وهى طائرة بين البحر والسماء فغضب جوان وقال له سيرون أنت ضاع فهمك ولم يبق له إدراك)[٥١١].
- (بجلد دب ولفه على وسط السلطان من وسطه إلى تحته ومن أعلاه جلد نسر وأفرد أجنحته ووضع وراءه جلد طير رخ ولف على رجل الدب حنشى وأوقفه على فرش رما أصفر ثم وضع على يمين ذلك حجر رخام وعلى يساره حجرا من المرمر وفوق سقف عنبر الغليون ديباجة من الحرير الأخضر وعلق فيها فروعا كثيرة من عنب وتوت ورمان وليمون ومثل ذلك وتركه مكانه)[٥١٢].
- فلما ضرب سيرون رمله رأى (ملك المسلمين بين جبلين واحد رخام والثانى مرمر فى أرض رمل أصفر نصفه التحتانى بالعه ضبع والنصف الفوقانى بالعه نسر وطائر فى الهواء وفردا أجنحته وطارده رخ ومن فوق ذلك جزء من الحرير الأحمر وفيها بستان جذور وأشجار إلى فوق وأوراقه وثماره إلى تحت)[٥١٣].

فقرة رقم (٧٢):

(كلما أضرب تخت الرمل ألاقى أن أقتل أبى على يدى وأكون من اهل الإيمان وأتزوج بالمقدم جمال الدين شيحة إلى أن كان ذلك اليوم أحضرت خادمى السحاب المختطف الأبيض وقالت له أين شيحة فقال لى أن أباك وضعه على عربية ويريد جوان أن يقطعه فقلت له أحضره لى سريعا)[٥١٤].

---

[٥١١] السيرة – م٣ – جـ٢٥ – ص ١٧٩٥.
[٥١٢] السيرة – م٣ – جـ٢٥ – ص ١٧٩٥.
[٥١٣] السيرة – م٣ – جـ٢٥ – ص ١٧٩٦.
[٥١٤] السيرة – م٣ – جـ٢٨ – ص ٢٠٠٤.

فقرة رقم (٧٣):

(والأيام التى يأتى فيها فلما أتى فى هذه النوبة وعرفه وقبضه وكانت بنت الملك تحفة الدم واقفة فماهان عليها الملك عرنوص فأخرجت السم من خزائن أبيها وقتلت أباها وأرسلت أعوان الجان وأمرتهم أن يأتوا بنواب القلاع الأربعة إلى بين يديها فلما حضروا قالت لهم إعلموا أنى أسلمت وتزوجت بالملك عرنوص وقتلت أبى وها أنا أحضرتكم لأعرض عليكم الإسلام فأسلموا)[٥١٥].

فقرة رقم (٧٤):

(ايش أعمل مع ذلك الملعون حيث أنى كفيف العيون فما تم كلامه وإذا باب المغار إنسد والكهين مقبل وهو يهدر كأنه الأسد فعارضه البرق الخاطف وقال له ليس لك إليه وصول فانغاظ الكهين وقال له أنت تعارضنى فى حكمى وأنا عندى مثلك ألوف تقف فى خدمتى وانصرفت الغمة من عيون السلطان وحضرت الملكة تاج ناس وامرت أرهاط الجن أن يقذفوا العجم بالأحجار والرمل والعفار وكان يوم يشيب الوليد وقد هلك من العجم كل جبار عنيد)[٥١٦]

فقرة رقم (٧٥):

(وهى تبكى فقلت لها أنت من تكونى فقالت أنا جئت مع أبى إلى هذا المكان ورقدت تحت ذلك الشجرة وقمت فلم أرى أبى ولا أعرف أروح من أين فقلت لها وأنا مثلك اقعدى معى حتى يطلع النهار فقالت إن بيتنا قريب سر معى إلى بيتنا نبات فيه والصبح نوديك لأهلك فقمت معها فادخلتنى بين كبير ورأيت أهلها خلقهم خلاف خلقه الآدميين - وقالت أقعد هنا ونتخاوى معك وتبقى أخى وأنا أختك وأتى أبوها وهو من ملوك الجان اسمه الملك الأبيض وقال لى أن بنتى حبتك بأعلى فلا تفارقها وأنت اسمك على وهى اسمها علوة فاقمت عندهم

---

[٥١٥] السيرة – م٤ – جـ٤٣ – ص ٢٣٠٨.

[٥١٦] السيرة – م٥ – جـ٤١ – ص ٢٧٨٣ .

لمدة عشر أعوام حتى كبرت فقلت لها يا أختى يا علوه مرادى أن اظهر على وجه الأرض وأعاشر الإنس فقالت لى آن الأوان إلى طلوعك إلبس هذا القميص فإنه يمنع عنك مسك بنو أدم إذا كنت لابسه لا تصاب بسلاح ولا يقدر أحد يقبض عليك وخذ هذه النمشة إذا أردت قتال فشاور بها على من تشاء فانها تقطعه بلا تعب وخذ هذا السرياق إذا أردت صعودك لإى مكان عالى فاحذفه فإنه يتصور لك سلالم تطلع منها إلى أى محل أردت بلا مشقة واحفظ العهد ولا تقطع زيارتك عنا فأنا دائما وراءك أين ما سرت ولم أتخل عنك ساعة واحدة وخذ هذين الساعتين المرصودتين فانهم ينفعوك تعلقهم فى أزرار هلوون ملك العجم بأمر السلطان - فيهلك)[٥١٧].

فقرة رقم (٧٦):

(ذات مرة كنت جالس أبيع الثياب - جاءت الكاهنة الفلفلة اشترت منى وأخذتنى لمنزلها على أنها تعطينى حق متجرى فلما بقيت عندها طلبت منى الزنا فلم أرض بذلك فصلبتنى وضربتنى ضربا شديدا فقلت آه لو رآنى السلطان فاطلقتنى الكاهنة وحملنى خادم من أعوانها وجئت فرأيتك وأنا مبرسم ولم أقدر أتكلم وعاودنى لها فقلت لها أى شئ عمل السلطان أما تخافى من الله والله إن السلطان ما شافنى ولا نظرنى فقالت الليلة أخليه يشوفك وعملت نصف حجر ونصف بشر واقعدتنى كما ترى وإذا بالكاهنة فى القصر تسمع كلامهما فخرجت وقالت حديد فصار الملك وإبراهيم فى حديد)[٥١٨].

فقرة رقم (٧٧):

(فى يد واحد شقر مسلم اسمه عرنوص يركب عليها وتتعب منه فصنع بدلة لبنته إذا لبستها لم يقطع فيها سلاح ولم يغلبها أحد فى الحرب - وإذا رأت العدو

---

[٥١٧] السيرة – م٤ – جـ٣٩ – ص ٢٦١٢ – ٢٦١٣.

[٥١٨] السيرة – م٣ – جـ٣٨ – ص ١٨٩٨

مقبلا عليها من البر سمعت بخبره فتجذب هذا الرصد إلى السور فإن عرنوص يأتى إلى بين يديها وبعد أن مات الكاهن أراد الكاهن صافور الزواج منها فاحست بالخطر فذهبت إلى الرصد وأحضرت الغراب العظمى وأخذت منه عرنوص)[٥١٩].

فقرة رقم (٧٨):

(دخلت إلى بيت الأرصاد وولولت وهمهمت وعزمت وجمعت خدامها وزادت فى عزائمها وأمرت أعوان الجان أن يدوروا بعساكر البيضان ويرموا عليهم شرارا ونار حتى تشتوهم فى الفنار)[٥٢٠].

فقرة رقم (٧٩):

(وعندما دخل السلطان إليها وضعت مراصدها وتخيلاتها حتى تمايلت أبيات السحر عليه وأخذته إلى المراكب هو المقدم إبراهيم وأولاد السلطان)[٥٢١].

فقرة رقم (٨٠):

(فأخذ الكهين يفرش بساطه على البحر فرأى جوان أخذه، وسأله على حاله فحكى له على المسلمين، فحلف الكهين أن يخرب بلدهم، ويملك كيهتهم وحريمهم، واحضر بنته نعوص، وملى لها صناديق من الزلط وجعلهم صفة ذهب وجواهر، وصنع أدمية من الورق، وقد صورهم على هيئة بنى أدم، ووقف الكهين على جبل السويدية حتى أقبل شيحة، فرأى نفسه فى حديد)[٥٢٢].

---

(٥١٩) السيرة – م٤ – جـ٣١ – ص ٢١٤٣ – ٢١٤٤.
(٥٢٠) السيرة – م٤ – جـ٢٦ – ص ٢٤٠٦ .
(٥٢١) السيرة – م٤ – جـ٤٣ – ص ٢٦٩٠.
(٥٢٢) السيرة – م٤ – جـ٣٥ – ص ٢٣٧٨

فقرة رقم (٨١):

(إن الكاهن مرامه قتل أبيك فقال لها وكيف تسكتى على ذلك سيرى بنا إليه فقالت وهو كذلك وركبت فوق سريرها فلما نظرها الكهين قال لها أنت أتيت ياعاهرة تريدى أت تخلصى زوجك من يدى وهذا شئ لا تقدرى عليه ثم انه نتف شعرة من شبيبته زرقة وقال لها كونى حربة وادخلى من صدرها اطلعى من ظهرها فتصورت الشعرة وخرجت حربة لها وهفيف وبريق ونظرتها تاج ناس فقالت لها عودى شعرة كما كنت بقدرة من صورك فعادت شعرة كما كانت فضحك الكهين وقضى ورقه وقد جعلها صبورة آدمى وقال لها هات جثة تاج ناس حتى أقطع منك الرأس فقالت تاج ناس المقص لا يقص ولا يقطع بل أنه يعود بقدرة الله تعالى الملك المعبود فعاد المقص وبطل عمل الكهين وهكذا عشرة أبواب وهى تردهم الملكة تاج ناس وذلك الكهين طمع فى جانب الملكة وأراد أن يهلكها ويبطل عملها وإذا بسيدى عبد الله المغاورى مقبل وقال يا كافر لقد طمعك نفسك أن تهلك الإسلام ثم أخذ من الأرض شوية تراب ثم ضربه بذلك التراب فانعجم فى نفسه وجاء علي الطويرد وضربه بجد حسامه وإذا برأسه من على يديه وخرج شهاب طلع من جزيرة الحوت فى صدر تاج ناس فماتت لوقتها وساعتها)[٥٢٣].

فقرة رقم (٨٢):

(ادخل يا ولدى من باب المغارة وابسط يديك واقرأ الفاتحة وأنت داخل تجد الحكيم كاترين نائما على جنبيه اليمين فاقرأ له الفاتحة وادعى له دعوة خير فإنه يعطيك يده اليمنى تجد خاتما فضة فى خنصره فخذه منه واقرأ له الفاتحة واطلع بظهرك حتى تأتى إلى عندى فدخل السلطان وفعل ما أمره به البترك بيت لحم وأخذ الخاتم وطلع فقال له البترك أخذت الخاتم قال نعم فقال له توكل على الله روح إلى مصر)[٥٢٤].

---

[٥٢٣] السيرة ـ م٥ ـ جـ٤٧ ـ ص ٣٠١٢.

[٥٢٤] السيرة. م٢ ـ جـ٢٦ ـ ص ١٨٠٨.

فقرة رقم (٨٣):

(فدخل المغارة وصار يتفرج فرأى فيها كنزا فرأى فيه عدة أفيال وحدوة حصان وسيفاً وعموداً من الحديد الصينى، فتصور فى عقله أن هذا العامود وهذا السيف لا يحملها إلا كل فارس فأخذ العدة وركبها على الفيل فجاءت عليه بالسواء فركب عليه وأخذ العامود والسيف وصار قاصدا إلى عمه فدخل عليه وقال له إن أبى ملك هذه البلاد وأنا أحق منك بها فقال عمه امسكوه فما تم الكلمة حتى ضربه ضابح بالعامود فى رأسه كسرها وقتل من كان حوله من أهله)[٥٢٥].

فقرة رقم (٨٤):

(ادخل إلى المغار تجد كلما قلت عليه وأنا اسمى عيسى القدسى وهذه الذخيرة من أيام صبايا عندى وأما ذلك الحصان فريته فى هذه الأيام ولكن أنا حان أجلى وانتهى أعلى فقف عندى تدارينى بالتراب ولك الأجر والثواب ثم خرجت روحه فقام أحمد العزيز غسله وكفنه فى ثباته)[٥٢٦].

فقرة رقم (٨٥):

(اتل حسبك ونسبك ينكشف لك باب فى الحائط فى صدر المغار ومفتاحه فيه فانفتح تجد قوس ونبلة ورصدهم لقتل الكهين أرمالية واقعد فى المغار حتى يأتيك ويضربك فلا تبالى بضربته واضرب النبلة فى وجهته ولا تخف منه فانها مقسومة لك فى الدنيا وموته بها وما أن أخذهما بيبرس وانصرفت الغمة عن عيون السلطان وقتل الكهين ارماليه)[٥٢٧].

---

[٥٢٥] السيرة. م٣ ــ جـ٢٨ ــ ص ١٩٣٠.
[٥٢٦] السيرة. م٤ ــ جـ٤٠ ــ ص ٢٦٧٢.
[٥٢٧] السيرة. م٥ ــ جـ٤٢ ــ ص ٢٧٨٠.

فقرة رقم (٨٦):

(وقال له يا ولدى أنا جئت لك برين المسلمين ومرادى أن تسجنه عندك فى محل لم يعرفه أحد حتى يموت فيه فقال يا أبانا أنا عندى سجن اسمه سجن الحسرات فى قلعة البرابخ بناها كاهن اسمه الحسرات وكان جبارا يسجن الناس فيه ورصده الجان ولا يبيت فيه أحد لا يصبح محروقا والقلعة على جبل والجبل على البحر من جهة الغرب وقدامها فى البر الشرقى حصن يمشى من القلعة إلى حصن مرتكبه على مائة وثمانين بربخ من النحاس الأصفر والبحر فابيت من قبلهم إذا وقع فيها إنسان قطعه التيار من عزم الماء وجريه والسجن تحت تلك القلعة ومات الكاهن الحسرات فادخل السلطان فيها فقال أنا مستجير برسول الله الصادق وقرأ قوله الحق وله الملك سلام قولا من رب رحيم وإذا بقائل يقول ارجعوا يا اخوتى هذا ملك الإسلام فتأمل الملك فرأى ثعبانا أبيض مقبلا فقال السلام عليكم يا ملك الإسلام فأنقذه من السجن)[٥٢٨].

فقرة رقم (٨٧):

(فنزلت الأكراد من الديوان إلى الحسنية وقد رأوا بيبرس جالسا فسلموا عليه فرد عليهم السلام فقالوا أمرنا بحضورك إلى بين يدى السلطان – فدعى بيبرس الله أن يكشف الغمة وإذا بالملك الصالح ينادى ويسمعه بيبرس ولا يراه بسم الله ما شاء الله اظهر ياظاهر وأقصد حماهم وما عليك منهم تعالى يا ولدى يا محمود يا بيبرس يا عجمى يا دمشقى يا ابن القاه شاه جمك)[٥٢٩].

فقرة رقم (٨٨):

(الأسود ففيها سبع جزاير بين الجزيرة والجزيرة سفر يوم وجعل فيها سبع قلاع وجعل القلعة الوسطانية قصرا من ذهب بأربع لواوين وكل ليوان فيه

---

[٥٢٨] السيرة. م٣ – جـ٣٠ – ص ٢٠٧٧ – ٢٠٧٨.

[٥٢٩] السيرة. م١ – جـ٣ – ص ٢٧٧.

عسكر وجوار وكلما يحتاج إليه وعمل للقصر أربعة أبواب كل بساتين فيها جميع الأزهار والأثمار من فضة وذهب وعمل له سريرا فى صدر الليوان يجلس فيه رأسه قدرة من ذهب فيها كوكب يتوقد فى الليل والنهار وجعل فى القلاع الجزائر وحول الجزائر البحر المالح فإن كان نجم الدين من مهالك القصر لم يعرف الصعود إلى رأس الملك ويأخذ القدرة الذهب وإن أخذها كيف يخلص من السبع ملوك بعساكرهم فلما سمع الملك الظاهر هذا حرام يا مقدم جمال الدين إذا أرسلت واحد مثل هذا المقدم فى مهلك ويروح فيه)[٥٣٠].

فقرة رقم (٨٩):

(فعبر الوادي الأول والثاني والثالث، فلما وصل إليه سار فيه يومين، وهو يأكل من الثمار إلى أن قطع سبعة أودية ودخل ثامناً، فلما دخل إلى آخر وادي فالتقى الطريق فافترقت فى رأس الوادي أربع طرق طريقين يمين وطريقين يسار وبان له على بعد أربع قلاع كل قلعة على فم طريق وبحيرة بينهم كبيرة وحولها مائة وستون عامود من أصناف الجزع الملوق وبين كل عامودين وحش بارك وفوق كل عامود شخص من نحاس قابض بين يديه على وحش من الفضة والأوحش والشيخوصة جميعا فهم إلى ذلك البحر فسار حتى قرب فرأى على رأس كل وحش طيرا من الذهب وكل طير جنس من أجناس لم يشبه واحد منهم الآخر وكذلك الوحوش والأشخاص كل واحد من جنس قائم بنفسه)[٥٣١].

فقرة رقم (٩٠):

- (المسلمين معهم سلاح يقطع فى اللحوم، والعظام، والذى يغتسل فى هذه البركة، ويبل لحمه منها فإن السلاح لا يصيبه، ولا يصل إليه فلما سمعوا النصارى هذا الكلام، وقال وأين البركة يا أبى فقال بين هاتين الجبال وهى مليانة بالماء الزلال ولكنها لم تسع هذه الجموع فانقسموا نصفين النصف

(٥٣٠) السيرة. م – جـ٢٧ – ص ١٨٥٤.
(٥٣١) السيرة. م٤ – جـ٣٤ – ص ٢٣٠٦.

يقعد عنا والنصف الآخر يروح معي حتى وصلوا إلى تلك البركة ووقفوا فقال لهم اقلعوا ثيابكم وانزلوا فنزلوا فأصابهم المتون ولم يطلع منهم أحد)[٥٣٢].

- (وسار طالب بركة الحوت وبكى مع البرتقش على جوان الذى قتله شيحة وقال أبونا قد بلغنى أن شيحة قطع جوان وبلغ منه مراده وأنا خايف على أولاده فقال له لا تخف عليهم فإنا أرسلهم إلى بركة الحوت مازلوا سائرين حتى أشرفوا على الدير حتى بنجهم شيحة وقبض عليهم)[٥٣٣].

فقرة رقم (٩١):

(وقالت المسيح ينصرك ويقوم معك ثم أنها فرحت به وألبسته بدلة الملك عرنوص وأركبته على حصان وقلدته سيف مطلسم وذهب ليقتل زين المسلمين فيقابله المقدم قار أصلان فطار عقله وقال والله إن هذا الابن الكافر كيف تطمع فى سبع الإسلام وقال له يا بن الكافر كيف تطمع أن تلبس بدله رجل مجاهد فى سبيل الله فأخذ منه السيف المطلسم وضربه فطارت رأسه)[٥٣٤].

فقرة رقم (٩٢):

(يا واصل إلى هذا المكان إن كنت شيحة وطارد جوان وتخص منك بهذا المكان فانظر من معه سلاح مرصود من جالك يضرب هذا الشباك بسلاحه

---

(٥٣٢) السيرة. م – جـ٤٥ – ص ٢٩٣٢.
(٥٣٣) السيرة. م٥ – جـ٤٠ – ص ٢٩٤٩ – ٢٩٥٣.
(٥٣٤) السيرة – م٣ – جـ٢٦ – ص ١٩٥٩ – ١٩٦٠.

فينكسر فقال شيحة يا إبراهيم اضرب هذا الشباك بذو الحيات فضربه إبراهيم فانكسر وهجم على جوان)[٥٣٥].

فقرة رقم (٩٣):

(للناظر فى الغيلون يا عبد القدوس ما هذا البستان فقال عبد القدوس هذا للبيب رومان وخوخ ورمان وتفاح وبرقوق وشئ كثير من ذلك الشأن فسكن الغول المهول وكان ذلك الغول على هيئة ابن آدم بعين واحدة وله فوق عينيه عرف مثل عرف الديك إذا نام الغول نزل ذلك العرف على عينيه وإذا فتح عينيه واستيقظ انفتح العرف إلى أعلى رأسه وله أظافر كأنهما الخناجر وله جلد كأنه طبقات النحاس يخلق الله ما يشاء ويختار لأن أمه كانت دابة بحر من دواب البحر وأبوه وحش من وحوش البرية فلما أتى أعجبه ذلك البستان أقام به وقد طيبه من رومان وسار رومان يرسل إليه ركبه بعد أخرى وهو يكسرها ويقتل كل ما أتى إليه وقد غلب رومان وترك له ذلك البستان صار مستوحش فيه ولم يقدر يدنو منه إنسان فقال إبراهيم أنا وعزة الله لم أخرج إلى ذلك الغول إلا بمفردى ولم يتبعنى منكم أحد فارموا المراسى وطلع إبراهيم بمفرده فما تم كلامه حتى أقبل عليه ذلك الغول من داخل البستان، وهو يفرقع برجليه فى الأرض وأراد أن يدنو من المقدم إبراهيم وإذا بإبراهيم جرد الحسام فلما رآه ذلك الغول ن رقبته إلى المقدم وأشار له يعنى الضرب اضرب ما شئت بالحسام، فضربه على عنق رقبته أربع ضربات كل ضربة لو نزلت على عشر سباع لأسكنتهم التربة، ثم تركه الغول، وراح إلى صدر المكان فعلم إبراهيم أن لابد له من رده عند وقوع الشدة فوقف بنظره وأنيابه وإذا به قد أقبل إليه رفع يديه حتى بان سواد أبطيه وهجم على إبراهيم يريد أن يخرج روحه من جنبيه فرأى إبراهيم نقطة قذر القطعة مدورة مثل الدرهم، فألهمه الله تعالى وقال فى نفسه لابد أن هذا الكلب لا يموت إلا من هذه ثم أن البطل الأروع واستقبله بذبابة

---

[٥٣٥] السيرة ـ م٥ ـ جـ٤٥ ـ ص ٢٩٣٦.

الحسام وحكمها فى هذه النقرة فسرح الحسام حتى خرج من الجهة الأخرى وسقط الغول إلى الأرض مقتول وفى دماه مجدول)[٥٣٦].

فقرة رقم (٩٤):

(عندما تاه فى الجبل ودام ساير حتى طلع النهار فلقى روحه وحده فخاف أحمد على نفسه فلقى صومعة عالية فسار إليها، فلقى فيها رجلا كبيراً، وقال: أهلا وسهلا يا أحمد العزيز يا ولدى لك عندي حصان اسمه "رعد" أمه من البر وأبوه من البحر ليس أحدا اقتنا مثله، وهو مرصود باسمك، وعليه عدة من الذهب الأحمر، وبدله من الزرد، ودرع دوادي مسيل)[٥٣٧].

فقرة رقم (٩٥):

- (أنا أستجير برسول الله الصادق وقرأ قوله الحق وله الملك سلام قولا من رب رحيم وإذا بقائل يقول ارجعوا يا أخوتى هذا ملك الإسلام فتأمل الملك فرأى ثعبانا أبيض مقبلا فقال السلام عليكم يا ملك الإسلام فقال وعليكم السلام يا خلق الله أنت من تكون فقال يا مولانا أنا اسمى زعازع بن الملك الأبيض وأنا وأخواتى رصاد على هذا السجن واخواتى الزمهم الكاهن الإقامة فى هذا المكان كل من نزل فيه يحرقوه بالنيران فقال السلطان حرام عليكم كيف تحرقون أهل الإيمان فقال الثعبان يادولتى غالب الذين يأتون هنا كفار وأما إذا أنزل عندنا أسير نحمله إلى بلاده ونأتى بكافر يوضعه محله ونحرقه فإذا كان ثانى الأيام نظروا إلى بدن محروق لم يعلموا إن كان هو أو غير فقال الملك إذا كان هذا فعلكم جزاكم الله كل خير فقال والله يا ملك الإسلام لأحب ما علينا خدمة المؤمنين لعل الله أن ينجينا من هؤلاء الكافرين ونحن نريد أن نحملك ونردك إلى بلادك ونأتى بغيرك نحرقه)[٥٣٨].

---

[٥٣٦] السيرة – م٢ – جـ١٨ – ص ١٢٧٢ – ١٢٧٣.

[٥٣٧] السيرة – م٤ – جـ٤٠ – ص ٢٦٧١.

[٥٣٨] السيرة – م٣ – جـ٣٠ – ص ٢٠٧٨.

- (أسألك بحق الإسلام لا تقضى فى دولتى وإن كان لم أجد منك ناصرا ولا معين وأردت لى يا مولانا بالذلة جزاء لما قدمت يدى من سوء فعلى وذنوبى وكثرة عيوبى الذى أنت تعلم بها أرجو منك الستر فيما تجازينى به فى الدنيا ولا تفضحنى بين أعدائى فأنا أعلم أن الملك الصالح حقيقة والخلق خلقك يقينا وإذا بثعبان طلع من صدر المغار يمشى وانقضى فصار كأنه أدمى وقال جاء النصر من رب العالمين أبشر بالنصر يا أمير المؤمنين وهذا كتاب وزيرك الأغا شاهين)[٥٣٩]

فقرة رقم (٩٦):

- (فى التابوت المجنح فقال سمعا وطاعة وتقدم إلى السلطان وقلعه ثيابه وألبسه ذلك الثوب الريش وحزموه ورقدوه ودعكوه فدخلت جدور الريش مثل الإبر فى بدنه فغاب عن الوجود فوضعوه فى التابوت المجنح وعلقوه بدولاب الهوى فوق برج العقاب وقال له يا ملك البيضان لم يبق عمرك إلى الساعة التى لم يتحرك فيها الهوى وإذا طلع الهوى يدور بك ترى فيه أنواع العذاب وتركه وراح وابقى الملك هناك)[٥٤٠].

- (له يا أخى ها أنا أخوك المقدم جمال الدين شيحة وهذا الميعاد بينى وبينك فإذا كان غدا فاشرط شروط والبس سلطان فقد أن لك الأوان وخذ هذه العلبة الباغة احفظها عندك فهى أمارة بينى وبينك واعلم أن فيها حسبى ونسبى واعطينى أنت الآخر شيئا من عندك يكون فيه حسبك ونسبك فناوله الآخر منديل مزركش بالذهب مكتوب عليه بإبرة القصب الحسب والنسب ثم أنه بعد ذلك سار وتودع منه وأقبل إلى الشام)[٥٤١].

---

[٥٣٩] السيرة – م٥ – جـ٤٢ – ص ٢٧٧٩ – ٢٧٨٠.
[٥٤٠] السيرة – م٤ – جـ٣٦ – ص ٢٤٢٠ – ٢٤٢١.
[٥٤١] السيرة – م٢ – جـ١٥ – ص ١٠٨٣.

فقرة رقم (٩٧):

- (أنا غلبته بخاتم جوهر ما أحد هوى مثله فى الدنيا فقال له يا سيدى والخاتم تضرب به وإلا إيش تعمل فإنى أراه فىَ صباعك لا له سلاح ولا هو ثقيل لأجل يخلف جراح فقال لها هذا له خدام إذا دعكته يقول خدامه لبيك فكل ما أحتاج إليه شيئا فأخذته ودعكته فصاح الخادم أكبر الجميع وكان اسمه بروه قال لبيك قالت له أنت إيه قال يا سيدى خديم هذا الضلع فقالت طلبى حاجتى أولهم اضرب جمر شراب الدما ما تفويه إلى الصبح وتحملنى وتودينى عند شيحة)[٥٤٢].
- (الحكيم الهدهاد لأجل أن يحتوى على جميع خدامه ويصير حكما فى الكنز ملكة فلما اجتهد وتعب تعبا شديد حتى تمكن من الوصول إليه قالوا الخدام باكهين هذا شئ ليس لك إليه وصول والخاتم لا يحتوى عليه أحد غير صاحبه وإنما تانى بنت اسمها مريم الحمقة بنت الملك عرنوص وهى مفردة فى الجمال فإذا وقفت قدام الحكيم وطلبت ذلك الخاتم فغن الخدام لم يمنعوها بل يعطوه لهما وأما أنت فليس لك أية وصول فلما علم الكهين بذلك صار يجتهد حتى عرف الملكة مريم الحمقة ظهرت فى بلاد الروم وتزوج بها أخو السلطان فبحث عنها فاحضر عون من أعوان الجن وأمره أن يتصور فى صورة إبراهيم بن حسن الحورانى ويسرق مريم)[٥٤٣].

فقرة رقم (٩٨):

(نواظير كل ناظورة لها مراية وكل من له غائب أو مأسور يشوف المراية يقول فلان فإنه يراه على كيفية ما هو فيه فقال لابد أجعل فى كل بندر ناظورة

---

(٥٤٢) السيرة – م٤ – جـ٣٠ – ص٢٣٩١.
(٥٤٣) السيرة – م٤ – جـ٣٧ – ص٢٥٠٨.

فجعل واحدة فى إسكندرية وواحدة فى رشيد والثالثة فى دمياط فنظر فى المراية فرأى السلطان فى مكة ورأى عسكر الإسلام فى الحرب)[٥٤٤].

فقرة رقم (٩٩):

- (خذ هذين الساعتين المرصودتين فإنهم ينفعوك فى أزرار هلوون ملك العجم بأمر الملك الظاهر فاحتفظ عليهم وعلقهم فى حزامك لوقتهم واخفى حديثك عن أبيك ولا تعلمه بشئ من ذلك ذهب على بن المناورى ليطلب الخراج من هلاوون وركب الساقين وادخل الحلقة فى أذنه ولحمها بلحام الحكمة فلا يمكن فتحها أبدا وقال الملك يا هلاوون أنا مرادى منك خراج بلادك فى العام الذى مضى والعام القابل حاتورده لى وأنا واقف وإلا وحق من خلق الخلق والنار وهو الله الواحد القهار أسمرك بين خشبتين كبار وأنشرك بمنشار)[٥٤٥].
- (العقرب فدرات الرخامة وارتفعت وبان من تحتها باب الكنيسة من الرخام الأسود بأربع شبابيك من الفضة الحجر وفى وسط تلك الكنيسة قبة من النحاس الأصفر بأربع لواوين وفى وسط اللواوين سرير من العاج مطعوم بالدر والجوهر وجوان قاعد على ذلك السرير وقدامه مملوك مثل البدر فذهب إليه شيحة وقبض عليه)[٥٤٦].

فقرة رقم (١٠٠):

(فيدوى كالطبل فيظهر أسفل البركة حوت من الذهب ويفيض الماء حتى يبقى بعلو العامود ويصل إلى قارب الشاطئ البركة له أربعين مقداف وله أربع رايات وفى مقدمة هذا الشخص يكون الماء قد عم على القادمين من العدا فإذا

---

[٥٤٤] السيرة – م٥ – جـ٤٦ – ص ٣٠٢٤.
[٥٤٥] السيرة – م٤ – جـ٣٩ – ص ٢٦١٣ – ٢٦١٦.
[٥٤٦] السيرة – م٥ – جـ٤٥ – ص ٣٩٣٦.

سمع الناس زعقته يعلمون بأن الغريم مات غريق وبعدها يهبط الماء يظهر الفتى وينظروهم الناس)[٥٤٧].

فقرة رقم (١٠١):

(فبعد أن تنام العيون ينزل الأمير بيبرس متنكرا فى صفة تاجر من تجار الإسكندرية ولم يزل كذلك إلى أن عبر من باب هناك يقال له باب شرقى وتأمل فرأى اثنين عياق الأول حامل شكمجية على كاهله والثانى خلفه وهو سالل سيفه من غمده فتتبع آثارهم إلى أن خرجوا من مكان هناك خراب وكان فى انتظارهما جوان ـ فقال لو أن أتينا بباشة الإسكندرية حسان الكردى)[٥٤٨].

فقرة رقم (١٠٢):

(الذى سرقها عايق يقال له ملك غادر وذلك ليسلمها لابن ملك من الروم الذى تعلق قلبه بهذه البنت وخاصة عندما كان يتنزه على شاطئ البحر فيشكو أبو بكر للسلطان بيبرس وبيبرس يرسل الفداوية الذين لديهم صداقة بهذا العايق فيغافلونه ويأخذون فاطمة ابنته أبى بكر البطرانى)[٥٤٩].

فقرة رقم (١٠٣):

(أنتم قتلتم القان هلاوون وتريدون أن تعيشوا بعده فى الدنيا والتفت إلى شيحة وقال له أنت كبير العرب من الذى بقى يخلصك منى)[٥٥٠].

---

(٥٤٧) السيرة ـ م٥ ـ جـ٤٥ ـ ص ٢٩٤٧.
(٥٤٨) السيرة: م٤ ـ جـ٣٥ ـ ص ٩٢.
(٥٤٩) السيرة: م٤ ـ جـ٣٥ ـ ص ٢٣٤.
(٥٥٠) السيرة: م١ ـ جـ٨ ـ ص ٦٩٠.

فقرة رقم (١٠٤):

(فتخفى فى صفة السابق بن شيحة وقبض على شيحة وهو طالع من البحر وعاد به إلى جنوده وأخذ منه الساقية ووضعه فى السجن)[٥٥١].

فقرة رقم (١٠٥):

(فعندما دخل بيبرس بيت عثمان إذا برغيف من الرصاص خرج عليه من صدر مثل حجر الصوان فحاد عنه فراح فى الهوى وأرد الرامى أن يعيدها وإذا بقائل يقول ارجع ياولد شلت أنا ملك ـ كيف تضرب رجلا دخل إلى دارنا وكان هذا الضارب فرح عبد عثمان والمتكلمة غزية الحلبى)[٥٥٢]

فقرة رقم (١٠٦):

(عثمان لبيبرس روح فارقنى وإلا انبطك وأخلى مشاديدى دول يتعاونون عليك ويقتلونك ولا ينفعنك أحد من الوزراء ولا من الملوك فقال له بيبرس إذا كنت شاطراً أخرج إلى عندى وها أنا قدامك حتى أعرفك قدرك ومقامك أنت وكل من معك ومشاديدك وأقوامك هجم على بيبرس وضربه بالرزة فتلقى بيبرس ضربته على اللت فانكسرت نصفين ـ فهم بيبرس على عثمان وأرماه على الأرض ودار كتافه وقوى سواعده وأطرافه ونادى ياجدعان هذا كبيركم هل فيكم نخوة من له نخوة يأتى إلى عندى يطلب خلاصه فقالوا لا أحد يريد قتالك خذ عثمان وروح لحالك)[٥٥٣].

---

(٥٥١) السيرة: م٣ ـ جـ٢٢ ـ ص ١٨٨٤.
(٥٥٢) السيرة: م١ ـ جـ٣ ـ ص ٣١٨.
(٥٥٣) السيرة: م١ ـ جـ٤ ـ ص ٣٢٢.

فقرة رقم (١٠٧):

(فدخل بيبرس - وقرأ الفاتحة - دعى الله قضاء حوائجه - ثم توجه إلى المقام قال لها يا سيدتى أنت تعلمى أن هذا الرجل انهمك فى المعاصى وفى أكل الحرام وضيع كل صباه وجريه فى الضلال وركوب الآثام وأنا يا سيدتى أردت أن أجعله عندى خديم لعل الله أن يوفقه وإياى إلى طريق الخير والصلاح - فأنت صاحبة المشورة - تقدم بيبرس إلى عثمان يقبض عليه فتأخذهما سنة من النوم)[٥٥٤]

فقرة رقم (١٠٨):

- (بعد أن أمرهم عثمان بالوضوء فتوضؤا وعلمهم كيف أنهم يصلون وقد فعل بهم كما فعل به الأمير بيبرس وزال عنهم التعس والنكس وصلوا الظهر) ذهبوا إلى الأمير بيبرس وعليهم علامة الوضوء والظهر وهى (الأباريق) كى يستعملوها فى الوضوء فقال بيبرس ما هذه قال عثمان (الأباريق فقد مليناها من السهريج حتى إذا جاء وقت أوقات الصلاة يكون عندنا الماء حاضرا)[٥٥٥].
- (لكن ماء السهريج مكروه فى الوضوء لأنه سبيل للشراب وقد جعله صاحبه سبيلا لمن كان عطشانا ولا يجوز الوضوء به إلا بإذن صاحبه – اتركوا الأباريق واستخدموا الحوض الكبير فى الإسطبل فأعلمكم أنى رجل لا أريد أذيه أحد من الناس وأنتم كنتم قبل ذلك تفعلوا فعل الأرجاس والآن رجعتم فلا تظلموا أحد وعليكم بالحق والإنصاف قال عثمان سمعا وطاعا)[٥٥٦]

---

[٥٥٤] السيرة: م١ – جـ٤ – ص ٣٢٣.

[٥٥٥] السيرة: م١ – جـ٥ – ص ٢٣٥.

[٥٥٦] السيرة: م١ – جـ٤ – ص ٢٣٥.

فقرة رقم (١٠٩):

(إنى مأمور أن أطاوعك فى جميع ما تقول لى عليه أين أبو لولب وأبو هجمة يعنى شقر اللولى وصقر الهجان قال عثمان هما فى البيت فوجد بيبرس الاثنين واقفين له فى الانتظار يتأسفون له)[٥٥٧].

فقرة رقم (١١٠):

(يا ولداه يا خال المعروف والله أنت خسارة فى ذلك ولكن ما بيدنا حيلة يا خال معروف ورغم أن الظاهر بيبرس لم يفهم شيئا وكذلك معروف لم يفهم شيئا إلا أن جوا من الغيوم يسيطر على هذا الدعاء الغريب الذى سرعان ما ثبتت الأيام القادمة صدق ما به من نبوءات إذا يفقد معروف ولده ويتغرب بحثا عنه ويقع فى يد أعدائه فيأسرونه ويوضع فى طابق تحت الأرض مصلوبا على أعمدة من حديد سنوات طويلة تنفيذ الحكم الله وقضائه)[٥٥٨].

فقرة رقم (١١١):

- (ففى يوم من الأيام ورد على السلطان اثنان من أتباع المقدم سليمان الجاموسى وصحبته إسماعيل أبو السباع ونصير النمر وشيحة وهو حابسهم عندهم وقائم شواشى العصيان ويقول أنا ما أطع قط كل ملك ولا سلطان وكان السبب فى ذلك هو أن المقدم عباس أبو الدوايب كان فى اللجج غائبا فلما حضر سأل عن السلطنة فأعلموه بشيحة وحيله فقال لهم معزول وقبض على سليمان الجاموسى وأتباعه وقبض على شيحة وكتفه وأخذهم إلى قلعته فلحق السلطان بهم وخلصهم فأخذه شيحة إلى مغارة رفيقه فلما رأى نفسه قد وقع فى يد شيحة فقال ياشيحة اقتلنى ولا تسلخنى فإنى لا أيدرك لا أطيعك ولا أنت تعطى السلطنة فقال شيحة أنا ما عاوزك تطيعنى برضاك وإنما

[٥٥٧] السيرة: م١ – جـ٥ – ص ٣٨٠.
[٥٥٨] السيرة: م٢ – جـ١١ – ص ٧٨٠.

تطيعنى كما أطاع غيرك غصبا عنك وأعذبك عذابا ما تحمله الكلاب وبدأ يضربه ثمانين حتى شوى لحمه استجار بالسلطان فقال له السلطان لم تطع شيحة قال يا دولتى استحى أن اعود إلى رجالى وأقول أطعت شيحة ولم أقدر على أخذ السلطنة على القلاع إذا كنت أصبع شيحة أكون تحت رابك ولا انتقل من خدمة ركابك حتى أموت)[٥٥٩].

- (يا ملك الإسلام أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ها أنا يا ملك الإسلام صرت مطاعا إليك أنت فقط لا لشيحة القصير وأنا فى عرضك يا ملك الظاهر خلصنى من شيحة فقال السلطان يا مقدم جمال الدين أغلم أن نصير النمر أسلم وبقى على دين الإسلام وها هو أطاعنى أنا وأنا أطيعك أنت عوضا عنه وتسامحنى فيه فسامحه شيحة)[٥٦٠]

فقرة رقم (١١٢):

- (فقال الفداويان لبعضهما إنما شاهدا ذلك عرفا أن هذه المركبة تنقسم إلى قسمين نصفهم على مدينة الرخام والنصف الثانى على حلب فقالا لبعضهما نروح إلى مدينة الرخام ونعلم الملك، ونوصى بهذه الأحكام حتى تنحصر إلى لقاهم فدخلوا على الملك عرنوص فقال لهما ما معكما من الأخبار فقالا يا ملك وردنا على جزيرة فى البحر اسمها جزيرة المرمر بها ملكة اسمها بحرونة قاصدة الغزو على بلاد الإسلام قاسمة عسكرها قسمين فلما سمعنا ذلك ألزمنا الحال إلى الحضور بين يديك لنعلمك)[٥٦١].

- (عندما اختطف السعيد طلع أحمد بن أبيك إلى المقدم سمعان والمغيث وأراهم كتاب السلطان فضحك سمعان وقال خاف السلطان منى وأنا لا أقتل السعيد إلا مع أبيه فدخلت قمرية فى الليل وفكت السعيد وأتى إبراهيم الحوارنى

---

[٥٥٩] السيرة: م٤ – جـ٣١ – ص ٢١٣٦ – ٢١٣٧.
[٥٦٠] السيرة: م٣ – جـ٢٤ – ص ١٧٠٥.
[٥٦١] السيرة: م٤ – جـ٣٦ – ص ٢٤٣٦.

وقبض على سمعان وقال أما سمعان هذا فهو مضاد شيحة فهو يتقاصا معه)[٥٦٢].

فقرة رقم (١١٣):

- (وقد أنجب ولدين أحدهما يقال له إسماعيل أبو السباع أنه كان يألف السباع ويألفونه وكان أكبر من أخيه معروف فعندما قام أبوهما باصطياد والقنص فالبقاء المحتم داخل غابة فرأته لبوة من السباع فظنت أنه صياد أتى ليأخذ أولادها ويحرمها فافترسته وقتلته وفى دمائه جندلة وكان ولده معروف قد تفرس وتعلم الفروسية والحروب وصار فى الحروب لا أحد يقف أمامه)[٥٦٣].
- (إلى أن تكاملوا سبعة عشر سلطان ورأى الجميع على ان يولوا إسماعيل أبو السباع مكان أبوه لكونه الأكبر وأشجع من أخيه فقال معروف هذا شرط لم يرضينى والأمر محصور بين شيئين الأول أن احنى ملتحد الخوات والجبال وإن أخذ الحكم فما بلغت إلينا الأحكام وتذهب السلطنة منا على طول الأيام والوجه الثانى أننى أفرس من أخى وإن لم يرض بأن أكون سلطان القلاع فأكون أنا ولياه فى حومه الميدان وينزلوا إلينا السبعة عشر سلطان فكل من أسرهم عن أفرهم منا صار هو الحاكم على الرجال والشجعان ينزل معروف إلى السلاطين ويأسرهم فى الميدان عن أخرهم ولما رأى إسماعيل أبو السباع ذلك ترك السلطنة لأخيه معروف وسار إلى الجبال. وقد أخذ معروف سلاح والده حجر وتقلد به وأمر السلاطين بالطاعة له والامتثال لأوامره)[٥٦٤].

---

(٥٦٢) السيرة: م٤ – جـ٣٣ – ص ٢٢٦٠- ٢٢٦١.

(٥٦٣) السيرة: م٢ – جـ١٢ – ص ٨٥٧.

(٥٦٤) السيرة: م٢ – جـ١٢ – ص ٨٥٨ – ٨٥٩.

- (وكان معروف يمتاز بثلاث خصال واضحة الأولى جلاله ووقاره وهيبته)[٥٦٥].

فقرة رقم (١١٤):

(حتى هاج البحر وأزبد، وماج، وارتعد، وظهر من وسطه سلوة من حرير الأخضر بمقدافين من الجريد الأخضر، وداخلها عنبر ملون، وأظهر عبد الله المغاورى، وقال له قم انزل معى إلى جنوه فى سلوتى فإن لله رجالا إذا شالت حواجبها قضيت حوايجها فلم يشعر معروف إلا وقد أرست إلى جنوه فى لمح البصر)[٥٦٦].

---

(٥٦٥) عبد الحميد يونس: الظاهر بيبرس – ص ٧٤.

(٥٦٦) السيرة: م٢ – جـ١٢ – ص ٨٩٠.

منافذ بيع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠ - ٢٥٧٧٥٢٢٨ - ٢٥٧٧٥١٠٩ داخلى ١٩٤

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير - الزقازيق

ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ - ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢

مكتبـــات ووكــــلاء

البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة-
بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيـــروت - الفـــرع الجـــديد - شـــارع
الصيـدانى - الحـمـراء - رأس بيروت -
بناية سنتر ماريا
ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

ســوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع -
سـوريا - دمـشق - شـارع كرجيـه حـداد -
المتـفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦
- الجمهورية العربية السورية

تونـــس

المكتبة الحـديثة - ٤ شارع الطاهر صفـر-
٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مـؤســسـة العـبـيكـان - الرياض
(ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمـــز ١١٥٩٥ - تقـــاطـع
طريق الملك فـهـد مـع طريق العـروبة -
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات
والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية -
شـارع الســتين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جـدة :
٢١٤٨٧ - ت : المـكــتــب: ٦٥٧٠٧٢٢ -
٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبـة الرشد للنشر والتوزيع -
الرياض - المملكة العربية السعودية -
ص. ب: ١٧٥٢٢ الـريـاض: ١١٤٩٤ - ت:
٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مــؤســســة عــبــد الرحـــمن
الســديرى الخـيــرية - الجـوف -
المملكة العـربية السعـودية - دار الجوف
لـلعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجـــوف - هـاتف:
٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب